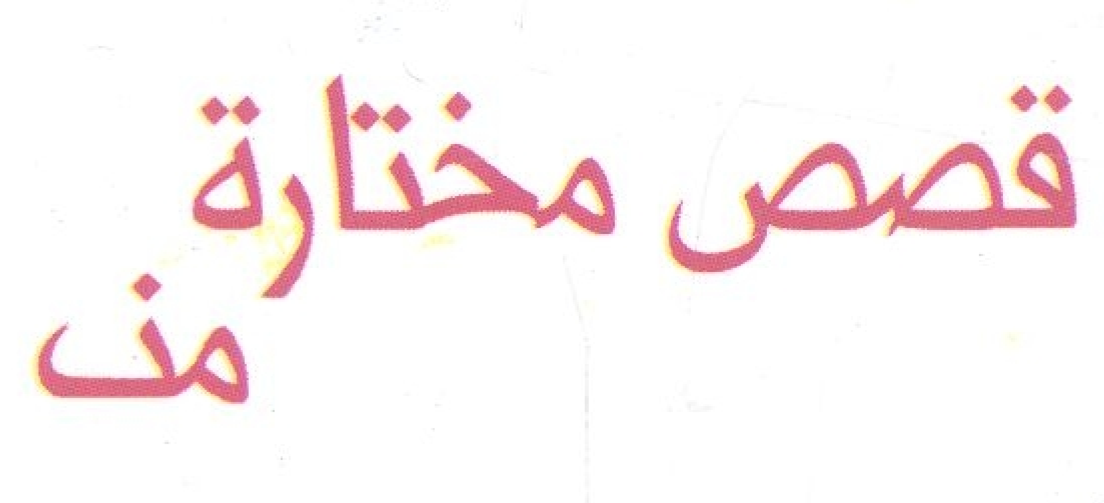
المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث

ترجمها عن اليونانية وقدم لها: نعيم عطية

الطبعة الثانية

قصص مختارة
من الأدب اليونانى الحديث

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٥٤٢/ ٢
- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث
- نعيم عطية
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة قصص مختارة من الأدب اليونانى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

قصص مختارة
من الأدب اليونانى الحديث

ترجمها عن اليونانية وقدم لها:

نعيم عطية

رقم الإيداع: ١١٨٣٢ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 6 - 411 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة

يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى المكتبة العربية ، فقد ضم بين دفتيه عدداً وفيراً من قصص الأدب اليونانى الحديث ، ترجمناها إلى العربية من اللغة الأصلية التى كتبت بها ، وهى اللغة اليونانية .

ولاشك أن ترجمة الأدب وسيلة ناجعة فى تعريف الشعوب بعضها بالبعض ، وفى توطيد أواصر الصداقة والمحبة بينها ، ومن خلال أعمال عدد من القصاصين هم من أبرز أدباء اليونان الحديثة يمكن للقارئ العربى أن يتنسم نسمة من الهواء الطلق تسرى إليه عبر البحر الأبيض المتوسط من بلد له ماضيه التليد فى الفن والأدب ، ويشق طريقه قُدُمًا لكى يتبوأ مكانته اللائقة فى طليعة البلاد ذات النهضات الأدبية ، فيصل بعض أبنــائه إلى الحصول على أكبر الجوائز الأدبية فى العالم ، كما سنرى .

القصة اليونانية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى :

ولقد كان للحربين العالميتين آثارهما على الحياة اليونانية . وقد كان لذلك انعكاسه الجلى على الأدب اليونانى الحديث ، فقد سعت التيارات

الأدبيـة فى اليـونان - على الأخص فى مـجـال القـصـة والرواية - إلى الاستفادة من التجارب المعاصرة ، سواء فى الشكل أو المضمون .

فقدم كتاب اليونان إنتاجهم القومى فى قالب عصرى ، وتخلصوا من الحذلقات والزخارف اللفظية ، مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم .

وقد أخذت شخصية الأديب اليونانى تتضح ، فقد طوع أسلوبه بحيث لم يعد يكتفى بأن يقدم لقرائه لوحات «موضوعية» فحسب بل استخدم لغته للتعبير عن آرائه «الذاتية» من خلال اختيار موضوعاته ، وتفسيراته للمواقف والأبطال .

ولقد صاحب ازدهار الأدب اليونانى الحديث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهور مجلات أدبية أسهمت بدورها فى إثراء الحياة الأدبية فى اليونان . ففى عام ١٩٢٧ صدرت مجلة «كتابات حرة» وفى عام ١٩٢٨ مجلة «الوطن الجديد» التى أسسها ورأس تحريرها جريجوريس كسينوبولوس ثم بيتروس خاريس وفى عام ١٩٢٩ صدرت «المجلة الجديدة» ثم أعقبتها «الطليعة» فى عام ١٩٣٠ ، ثم «الطليعيون» عام ١٩٣٣ ، و «الخطوات» و «الفكر» عام ١٩٣٦ و «الكتابات اليونانية الجديدة» عام ١٩٣٧ . كما صدرت مجلات إقليمية ، فى ثيسالونيك عام ١٩٢٦ ، وكريت عام ١٩٢٧ ، وقبرص عام ١٩٣٦ . وتوالت المجلات الأدبية اليونانية بعد ذلك . بل وصدرت مجلات أدبية فى خارج اليونان مثل المجلات التى صدرت فى الإسكندرية وفى مقدمتها «الحياة الجديدة» و «الآداب» و «سرابيوم» وقد ظهرت على صفحات هذه المجلات كتابات

كثير من أدباء اليونان اليوم مثل نيقوس كازاندزاكيس وكوستاس فارناليس وجورج سيفيريس .

ولقد سببت أحداث الحرب قيام «أدب المعركة » في اليونان وقد تميز بصفة عامة بأنه ليس سرداً تسجيلياً للأحداث بقدر ماهو تعبير عن الوسط الذى أُلقى فيه بالشخصيات ، والذى يشكلهم ويبدلهم حسب ضغوطه وضروراته ، وعن الوجدان الداخلى متمثلاً فى إدراك الكائن الإنسانى لوضعه الجديد ، والمشاعر التى تستيقظ فى أعماقه .

وفى مقدمة الأعمال التى ولَّدها «أدب المعركة» « الحياة فى القبر» وهى ذكريات محارب يتجاوز فيها التحليق الخيالى والنظرة الفاحصة . وكان من الطبيعى أن تنضح هذه الصفحات التى كتبها ستراتيس ميريفيليس عام ١٩٢٤ بالهول ، ووحشية الإنسان وضراوة الحرب ، وأحاسيس التضامن الأخوى إزاء الخطر الجماعى . أما فى «الدفتر رقم ٣١-٣٢٨» فنجد إيلياس فينيزيس يركز على مأساة الحرب من خلال التغلغل فى نفسيات الأبطال ، مع التقليل من النزعة العاطفية التى نجدها عند ميريفيليس والاهتمام المتزايد بالدراما الداخلية ، وإعلاء أكبر للإرادة على الحتمية .

وقد كان من شأن «رواية الحرب» توجيه ضربة قاصمة إلى فكرة «الأدب المحلى» فإن المعاناة الكبيرة إزاء أهوال الحرب تجلو النفس البشرية ، وتخلصها من الانشغالات المحلية .

وإذا كان «الوسط» الذى تحرك فيه «كُتَّاب الحرب» أكثر ضراوة وخشونة ، إلا أنهم بدأوا أيضًا يعولون كثيراً على عامل الإرادة فى دفع الوسط الاجتماعى . ومن ثم أصبح الصراع بين الإرادة وإطارها أكثر ديناميكية .

أما خارج «نتاج الحرب» فقد بدأ التجديد على الأسلوب القصصى وأصبح الكتاب ينزعون إلى عرض الكائن الإنسانى فى خضم الحركة ، ومن خلال تعدد الأوساط التى يتنقل بينها وتنوع الأحداث التى يمر بها ، مما ينبئ عن تعقد روحه وتشابك حياته . وبذلك أخذت الكتابات القصصية تكتسى بطابع أكثر ديناميكية ، مما أوصل الفن القصصى إلى ضروب مختلفة. فظهرت إلى جانب «القصة الاجتماعية» «القصة السيكولوچية» و« القصة الخيالية » و«القصة الفلسفية».

وبعد أن كانت القصة قبل الحرب العالمية الأولى تكتفى بتسجيل العادات والتقاليد المحلية أيضًا ، تعددت مناحى القصة ومشاريها واهتماماتها. على أن تصنيف الكتاب تبعًا لذلك التصنيف الذى عرضناه للقصة ليس بالأمر السهل ، لأن الكتاب تنقلوا بين أنواع القصة جميعها فليس هناك مؤلف تخصص فى «القصة الخيالية» وآخر فى «القصة السيكولوچية» وآخر فى «القصة الاجتماعية» وآخر فى «القصة الفلسفية» بل إننا نجد فى القصة الواحدة أو المجموعة القصصية الواحدة أكثر من منحى جنبًا إلى جنب. ولنضرب مثلا على ذلك بكتابات القصاص ذيموستنيس فوتيراس (الذى ينتمى أيضًا إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى) فإننا نجد النقد الاجتماعى يمتزج بالخيال. ولقد كان

لهذا الكاتب تأثيره على جيل لاحق من الكتاب عرفوا «بكتاب القصة الشعبية» وتتصف أعمالهم بالبساطة المتناهية فى السرد، وباختيار شخصياتهم من ضحايا مجتمع مريض. وقد انجذب هذا الجيل من القصاصين على الأخص إلى «النزعة الواقعية» فترجموا فى أعمالهم التشاؤم المخيم نتيجة إحباطات مابعد الحرب وانعكاساتها على الأوساط الدنيا والفقيرة. ونذكر على سبيل المثال فى هذا المقام «سيمفونية الخريف» لأنجلو ترساميس عام ١٩٢٩ و«أولئك الذين بقوا» لتاتيانا ستافرو عام ١٩٣٣ .

أما «النزعة الخيالية» فقد ارتبطت بكتابات استقيت من التاريخ والأساطير على الأخص. ونجد فوتيس كوندوغلو ، اهتداءً بالجانب الخيالى لدى الرائد فوتيراس ، يدخلنا فى مغامرات يلعب فيها الزمن بالنفس البشرية. ونشير فى هذا المقام إلى «الأميرة يزابو» لترزاكيس عام ١٩٤٥ و« نهاية ميخالوس» لكاراجاتسيس عام ١٩٤٩ .

أما «النزعة الفلسفية» فقد تميزت بطابعها الشاعرى، ونجد نموذجًا طيبًا لها فى «الليلة الأخيرة على الأرض» لبيتروس خاريس عام ١٩٢٤ .

على أن القصص الفلسفية والخيالية والسيكولوچية لم تخل من العناصر الاجتماعية. كل ما هنالك أن النزعة الاجتماعية تبدوا أكثر وضوحاً عند فريق آخر من الكتاب ملك الانشغال بأوضاع الطبقة العاملة وكفاحها كل اهتمامها. وفى مقدمة هؤلاء الكتاب ذيونيسيوس كوكيتوس والسيدة إيلى إليكسيوفى مجموعتها «معارك خشنة من أجل حياة

صغيرة» عام ١٩٣١ ويانيس سفاكياناكس فى مجموعته القصصية الصادرة عام ١٩٣٣ .

وقد بدأت القصة اليونانية الحديثة تتجه نحو الأدب الاجتماعى .. وقد كان فى طليعة القصاصين الذين نزعوا إلى ذلك ثيوتوكيس صاحب «الشرف والمال» عام ١٩٢٠ وباروريتيس صاحب مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٢١ بعنوان «الأب» كما أنتج كسينوبولوس - الذى ترجع سمعته الأدبية إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى - قدراً ضخماً من الأعمال ذات النزعة الاجتماعية مثل «الأغنياء والفقراء» و«شرفاء وغير شرفاء» و«محظوظون وغير محظوظين» عام ١٩٢٦ كما قدم فوتيراس منذ عام ١٩٢١ كثيراً من أعماله القصصية مثل «نور وظلام» و«الحى الأرستقراطى» و«الباب الحديدى» و«حضارات باطلة» .

ولقد أصبحت النزعة الاجتماعية (التى كانت بادية أيضاً عند جريدوريس كسينوبولوس من قبل) ثورية وحافلة بالمطالب والدعوات الإصلاحية. والواقع أن المشكلات الاجتماعية وإن كانت تشغل مقاماً كبيراً فى القصة اليونانية الحديثة إلا أنه يمكننا أن نقول إن القصة الاجتماعية سارت فى مسارين : الأول عنى بدراسة البيئات الاجتماعية ، وقد ذاعت هنا الأفكار الاجتماعية والمذاهب الإصلاحية ، الثانى عنى بتقصى انعكاس الصراع الاقتصادى على النفس البشرية. وقد جمعت بين هذين المسارين النزعة الانتقادية إن لم يكن التمرد الصريح أو الضمنى على الأوضاع القائمة فمصير الفرد فى مفهوم القصة الاجتماعية اليونانية يتوقف على إدراك متناقضات الوضع الاجتماعى ، والجهد المبذول لتعديله وتصحيحه .

ومن الأفكار الاجتماعية فى القصة اليونانية الحديثة «فكرة تحرير المرأة» وقد تجلت هذه الفكرة على الأخص فى قصص السيدة غالاتيه كازندزاكيس ، و«فكرة حماية الطفولة» وقد بدت فى قصص السيدة ليليكاناكو. وقد ولدت هذه الأديبة الكبيرة فى أثينا عام ١٩٠٥ ودرست الموسيقى فى سويسرا واشتغلت بالصحافة. وكتبت مجموعات قصصية عديدة ، بعضها بالفرنسية نشرت فى أمهات المجلات الأدبية فى فرنسا ، وبعضها باليونانية ، منها «الذين ضلوا الطريق» و«عذراء فقدت عذريتها» وقد قدم لمجموعتها القصصية الأولى الكاتب الفرنسى الكبير رومين رولان. وتعتبر ليليكاناكو من أنضج المواهب القصصية فى الحياة الأدبية اليونانية .

وتشتد مرارة النقد الاجتماعى عند كتاب مثل ذاسكالاكيس الذى يصور المأساة فى حياة العمال ، وعند كوكينوس وبيكروس. على أنه إذا كان التمرد أو النقد الاجتماعى هو قوام القصة الاجتماعية فثمة اهتمام يواكب التمرد أو النقد هو التثقيف الشعبى أو التوعية ويتجلى ذلك على الأخص عند ليفكوباريديس فى كتابه «آفاق» عام ١٩٣٠ .

على أن ثمة كتابًا آخرين جديرين بالاعتبار أيضًا. وقد ساهموا بكتاباتهم فى مجال «القصة السيكولوچية أو النفسية». ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن استقصاء المظاهر المختلفة للحرب النفسية فى القصة السيكولوچية إنما ينبع من بداية تخالف تلك التى تبدأ منها القصة الاجتماعية . فإذا كانت هذه الأخيرة تقوم على فكرة خضوع الإنسان للعوامل الاجتماعية ، وتوقف تجديد طاقاته على تجديد طاقات

المجتمع ، مما يحقق فى القصص الاجتماعية نوعًا من الوحدة ، فإنه يصعب أن يجمع بين كتاب القصة النفسية تصور مبسط ومتماسك للإنسان ، بل هم ينزعون إلى اختبار تعقد المتناقضات وتشابك الصراعات ، سواء بين الفرد والوسط المحيط به ، أو فى أعماق الفرد ذاته ، وهو ما ينبع عنه تنوع كبير فى المعالجة القصصية .

وإحدى النزعات فى هذا المقام تتمثل فى دراسة الإنسان الذى لايستطيع أن يتأقلم مع الأوضاع الجديدة التى يمليها الوسط الاجتماعى وتبدو هذه النزعة بجلاء لدى نيقوس نيقولائيدس فى عمل بعنوان «المشاكس» عام ١٩٢٢ وفى قصة «سجين» لدوكاس عام ١٩٢٩ وفى «الجذور الأولى» عام ١٩٣٦ لتاتيانا ستافرو. وهى تدرس هنا الصعاب التى يلاقيها اللاجئون اليونانيون النازحون من آسيا الصغرى للتأقلم مع الوسط اليونانى الذى نقلوا إليه فجأة .

وقد ولدت الأديبة الكبيرة تاتيانا ستافرو فى (فافيوخورى) ، وهى إحدى قرى البوسفور (الأناضول) وكان والدها من رجال التعليم وعاشت فى أحضان أسرة مثقفة. وسرعان ما أقبلت على اللغة العامية بشغف لم تلقاه منها اللغة الفصحى. وقد جاءت تاتيانا ستافرو إلى اليونان فى ديسمبر ١٩٢٤ ضمن اللاجئين ، هى وزوجها ، وبعد عشر سنوات اعتزمت أن تكتب عن معاناة الذين أصابتهم ويلات الحروب دون أن يحاربوا ، مستمدة مادة كتاباتها من حياة اللاجئين التى خبرتها جيداً. وصدر كتابها هذا بعنوان «أولئك الذين بقوا» وسرعان ما لفتت روايتها الأنظار، وتبوأت المكانة اللائقة بها فى الحياة الأدبية اليونانية.

وعندما نشرت كتابها «الجذور الأولى» عام ١٩٣٦ سجلت اسمها فى عداد كبار كتاب القصة اليونانية الحديثة . فصفحات هذا الكتاب قد توافرت لها طلاوة الملاحظة ، وغزارة المادة ومعمارية البناء ، ودقة الصنعة . ليس عندها أبطال وبطلات ، بل هناك بشر تربط بينهم اضطرابات الحياة وقلاقلها فحسب . وفى عام ١٩٤٧ أصدرت كتابها «الينابيع الخفية» وهى صفحات من سيكولوچية الحب ، كتبت بخفر وحس نسائى مرهف ، قصص قصيرة تخلط بين الحدث والنغمة الشعرية ، ويفوح منها شذى عطرى ومقدرة فنية كاملة .

ويعود إيلياس فينيزيس فى عام ١٩٣٩ فيعرض فى روايته «سكينة» مأساة الاغتراب ذاتها التى رأيناها فى «الجذور الأولى» كما نجد هذه المأساة عند ترزاكيس فى «الأغلال» عام ١٩٣٣ وفى دراسة بريفيلاكيس التفصيلية عن «قصة مدينة» عام ١٩٣٨ .

وتتحول الكتابة القصصية من «السيكولوچية الجماعية» إلى «السيكولوچية الفردية» عندما يكرس العمل لدراسة شخص سواء قصد لذاته أو عرض كرمز ، كما فى «الكولونيل ليابكين» لكاراجاتزى عام ١٩٣٣ .

ويقترب من ذلك اتجاه أولئك الكتاب الذين يبرزون دور الخيال عند الشخصية التى تهرب - بإرادتها إلى حد ما - من الواقع ، كما فى «الحب ناسج الأحلام» لناريس عام ١٩٢٦ كما يمكن أن تقف القصة السيكولوچية عند الصراعات العاطفية كما فى « النار ذات الشعلتين» التى كتبها ليذوراكيس أو عند الإخفاق فى إشباع العاطفة كما فى

«غابة الليمون» عام ١٩٣١ لكوزماس بوليتيس ، وقد تصل العاطفة المستبدة إلى هوى جامح يحيل الفرد إلى ضحية لغرائزه كما فى «الجسد» لكانيلليس عام ١٩٣١ ، وقد تقف القصة عند الأفكار المسلطة كما فى «نظرة الثعبان» لفويوكلاكى عام ١٩٣١ .

وقد يعكف كاتب القصة النفسية على تحليل ذاته واستكشاف مجاهلها كما فعل كسيفلوذاس فى «السيمفونية الداخلية» عام ١٩٣٢ .

كما عمد البعض إلى دراسة أوضاع الحياة الحديثة وانعكاساتها على النفسية الفردية بحملها على الاستسلام لها ، أو التأقلم معها . وقد يمضى البطل رغم كل شىء فى تخبطه بالأوضاع الخارجية . وهذا ما نجده فى روايتى ثيوتوكاس «آرغو» عام ١٩٣٣ و«الشيطان» عام ١٩٣٨ ، وعند بيتساليس فى «مفرق الطريق» عام ١٩٣٤ وعند تيرساكيس فى «المدينة الضارية» وهنا نجد الأقوياء يواجهون الضعفاء ويسحقونهم .

ولاشك أن تعدد الحالات والمخططات فى القصة السيكولوچية يترتب عليه تنويعات عدة فى التركيب التكنيكى للعمل . وذلك الملاحظ بصفة عامة على القصة السيكولوچية أن المغامرة ليست عنصراً خارجياً بل هى ترافق حركة الروح ، كما أن الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال تتلاشى من العمل الأدبى. ويصبح الوسط الخارجي عرضياً ، والفرد عالما زاخراً بالفانتازيا وانطباعات التجارب الشخصية .

وتمضى القصة السيكولوجية عند تيرساكيس فيقدم «الحب والموت» عام ١٩٤٢ وكوزماس بوليتيس فيقدم «ثلاث نساء» عام ١٩٤٣ وينمى بيتروس خاريس الجوانب النفسية فى مجموعته القصصية «عالم بعيد» عام ١٩٤٤ . ومن قبله تاتيانا ستافرو فى «مضى الصيف» واسترتيس ميريفيليس فى «فاسيلى الألبانى» عام ١٩٤٣ كما يعكف إيلياس فينيزيس على استرجاع ذكرياته الماضية فى «أرض اليونان» عام ١٩٤٣ وفى «رياح» عام ١٩٤٤ .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة إن النزعة الاجتماعية قد تراجعت فى القصة اليونانية الحديثة أمام النزعة السيكولوچية . وإذا كانت القصة الاجتماعية مرتبطة بالتعاسة الإنسانية عند يانيس مانجليس صاحب «خطوات فى الطين» عام ١٩٤٩ ، فقد تنوعت النزعة السيكولوچية فى أعمال غيره من الكتاب. وتجلت على الأخص عند نوكساس فى «بعد منتصف الليل» وتاتياناستافرو فى «ينابيع خفية» وعند ديليوس فى «موسيقى الغرفة» عام ١٩٤٧ . ونجد عرضا لأحلام الطفولة فى «صفاء النجوم» عام ١٩٤٥ لباماايوتوبولوس ولعاطفة الأمومة عند السيدة بوكافالا فى «الفداء» عام ١٩٤٧ ويربط لونديميس السيكولوچية بالفلسفة فى «طابت ليلتك ، أيتها الحياة» عام ١٩٤٦ . وهو ما نجده أيضًا عند كاراجاتسيس فى «النوم الطويل» وعند نيقوس كازاندزاكى فى «إليكسى زوربا» وهى رواية كريتية ، تضع وجها لوجه شابًا يقضى ساعاته فى قراءة الكتب ورجلا حنكته تجارب الحياة. وتحملنا الذكريات بعيداً إلى الماضى فى «الأحياء القديمة» لديمتريادس عام ١٩٤٧ . أما نيقولائيدس

فقد مزج المعالجة السيكولوچية بالوصف التفصيلى للتقاليد والمشاهد المحلية فى «أبعد من الخير والشر» عامى ١٩٤٠و١٩٤٣ و«المسامير الثلاثة» عام ١٩٤٨ .

وهناك أيضًا قصص تقوم على وصف المناظر الطبيعية ، وكثيراً مالا يقصد وصف الطبيعة لذاته ، أو يطعم بتأملات فلسفية أو خلجات نفسية وتقترب قصص وصف الطبيعة من كتب الرحلات وهى ضرب من «النثر القصصى» تفوق فيه كازندزاكيس وأورانيس وفينيزيس .

كما أن ثمة تياراً جديداً بدأ يغزو القصة اليونانية الحديثة منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى نجده على الأخص لدى جورج ثيوتوكاس وذراسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس ، وهو تيار الكتابات اللامحلية عن أحداث تدور فى بقاع أخرى من العالم غير اليونان ، أو بين شخوص من جنسيات أخرى غير الجنسية اليونانية. وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الإطار الخارجى للموضوع ، وعلى نقل المعالجة السيكولوچية إلى مستويات أخرى .

ولقد وجدت الحرب العالمية الثانية اليونان وقد اكتمل نضجها المعنوى. ولم تعق الأوضاع المؤلمة التى فرضتها الأحداث سير النشاط الفنى والأدبى الذى كان بالنسبة للشعب اليونانى بمثابة درع للدفاع وسلاح للهجوم. وقد أهاب الكتاب اليونانيون بالأحرار والمثقفين فى العالم كله أن يهبّوا لنصرة اليونان فى قضيتها . وكانت الحرب فرصة تاريخية ليؤكد الأدب اليونانى ارتباطه بالفكر العالمى وهو التيار الذى ظهر فى الكتابات اليونانية منذ عام ١٩٢٠ .

وتحت كابوس الاحتلال نشأت حركة أدبية سرية أمكنها أن تطبع وتوزع كتبها فى الخفاء ، مثل مجموعة ليليكاناكو القصصية بعنوان «جحيم الأطفال» واشترك كثير من الكتاب المناضلين فى الصحافة السرية مثل ثيوتوكاس الذى كان يكتب فى الجريدة السرية «الحرية» كما أصدر لفيف من الأدباء الأحرار مجلة سرية بعنوان «الرواد الجدد» أما المجلات التى رخصت لها السلطات بمواصلة الصدور مثل مجلة «نيا استيا» فلم تكف بدورها عن التغنى بالقيم اليونانية العريقة .

ومن الأحداث الأدبية البارزة فى ظل الاحتلال النازى جنازة الشاعر اليونانى الكبير «كوستيس بالاماس» فى ٢٨ فبراير ١٩٤٠ فقد حول الأدباء والفنانون موكب الجنازة إلى مظاهرة وطنية ضخمة مهيبة .

ولقد ولّدت الحرب العالمية الثانية بدورها أعمالا قصصية كثيرة من «أدب المعركة» مفعمة بروح قومية أبية ، صورت على الأخص بطولات المقاومة الشعبية ، ومعاناة الشعب من صنوف العذاب الذى وقع عليه. ومن هذه الكتابات «بعيداً عن أنوار الحياة» لأرغيريس و «الحرية أو الموت» لكازندزاكى و«نداء الأرض» لأفيروف و«فى جحيم أثينا» و«الأرواح الأدبية» للسيدة بيتراكى عام ١٩٤٥ .. إنتاج غزير مفعم بحب الوطن وتمجيد بطولات أبنائه .

على أن هذا النوع من الكتابات مضى يتناقص كلما ابتعد كابوس الحرب عن الأذهان ، ولكن ذكريات الحرب ظلت تخلق لدى القصاصين والروائيين العديد من الصفحات مثل «الدم الإنسانى» لذوكساس و«ساعة الحرب» لفينيزيس و«من أجل العدالة» لماريا روسيا عام ١٩٤٦ و«رجال مسلحون» للوكاس أكريتاس عام ١٩٤٧ .

وعادت القصة اليونانية الحديثة تنمو وتزدهر فى مختلف ضروبها ومناحيها. وانطلق الأدب اليونانى بصفة عامة إلى المستوى العالمى بخطى حثيثة ، فترجمت الأعمال العديدة من اليونانية إلى اللغات الأجنبية. ونال كازندزاكيس وسفيريس وغيرهما كثيراً من الجوائز العالمية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التى تلت الحرب وتنوعت ، فإنه يجمع بينها محاولة ربط القومى أو المحلى بالعالمى ، وإعلاء النظرة الديناميكية إلى الوجود الإنسانى على النظرة الإستاتيكية. وأخيراً نجد الكتاب اليونانيين الجدد، سواء واجهوا الفرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون فى أعمالهم إلى مشكلات تتعدى الوسط اليونانى وتقتضى حلولها التقصى عن مدلول أشمل للإنسان ، وبذلك يسهم الأدب اليونانى الحديث فى إثراء التجربة الإنسانية العالمية[١].

الأدب اليونانى ليس التراث الإغريقى فحسب :

حظيت أعمال أدبية لكثير من القصاصين والروائيين والشعراء اليونانيين المعاصرين بالترجمة لا إلى الإنجليزية والفرنسية فحسب بل وإلى الألمانية والإيطالية والبلغارية وغيرها من اللغات أيضًا .. وقد ترجمت رواية «الخطأ» للقصاص اليونانى المعاصر أندونى ساماراكى

(١) استندنا فيما تقدم على الأخص إلى كتابات أريستى كامبانيس وأبوستولوس زاخينى وأندريه ميرامبيل عن الأدب اليونانى الحديث .

إلى خمس عشرة لغة، منها اللغة اليابانية، وصدرت الترجمة التى أجراها أحد أساتذة جامعة طوكيو فى طبعة أنيقة من إحدى دور النشر بطوكيو. وتعتبر أعمال أندونى ساماراكى من أكثر الأعمال الأدبية رواجاً. وطبعت مجموعته القصصية «مطلوب أمل» طبعة خامسة من ٢٥ ألف نسخة. ويمكننا أن نعرف من هذا العدد مبلغ إقبال اليونانيين على قراءة الأعمال الأدبية. وقد كتب النقاد عن أندونى ساماراكى بمختلف اللغات. فكتب عنه ماكس تاو بالألمانية قائلا : «إننى أومن بساماراكى، وأعرف أنه بعمله يستطيع أن يعطى العالم الأمل الكبير ، فى أن يحيا الناس وقد سادهم الفهم والأخوة». وفى كوبنهاجن كتب عنه جاكوب بالودان: «كاتب فذ. من المتعذر أن تقرأ أعماله دون أن تحس بشجن حقيقى». وكتب أدوين جاهيل الأستاذ بجامعة ألينوى: «ساماراكى واحد من أكبر كتاب العالم. صوت من اليونان يتحدث إلى الإنسانية بأسلوب عصرى مدرك لمسئولياته ، يتحدث عن التناقضات والقلق ، ويدين الوحشية والحرب والعنف والفقر والحرمان من الحرية». وقد كان لرواية ساماراكى «الخطأ» وقع كبير فى مختلف الأوساط الأدبية فى اليونان وخارجها ، فحصلت فى اليونان على جائزة الاثنى عشر ناقداً ، وهى توازى «جائزة جونكور» فى فرنسا. وعندما ترجمت رواية «الخطأ» إلى الفرنسية ونشرتها دار النشر «ستوك» عام ١٩٧٠ نالت جائزة أحسن رواية أجنبية مترجمة. وقد كتب عنها الروائى الكبير جراهام جرين : «إنها تحفة أدبية حقاً ، كتبت بقلم متوقد وصنعة فريدة » .

وإذا كنا قد وقفنا مليًا أمام أعمال أنتونى ساماراكى فقد قصدنا من ذلك أن نشير إلى الصلاحيات التى تنطوى عليها الحياة الأدبية اليونانية المعاصرة ، وانفتاحها على المستوى الأوروبى والعالمى. لاشك أن الترجمة من اليونانية إلى مختلف اللغات الأخرى تؤدى دورها الفعال وتبرز إمكانات تلقى الأدب المعاصر فى الخارج ، إن اليونان ليست فحسب ذلك التراث الإغريقى الذى مضى عليه مايربو على ألفى عام بل إن اليونان هى أيضًا أعمال الفن والأدب التى تنتجها قرائح أدباء اليونان وفنانيها اليوم. وقد أخذ الأدب اليونانى المعاصر يعرف طريقه إلى العديد من جامعات أوربا وأمريكا ومعاهدها المختصصة. وتزداد هذه إقبالا على دارسة الأدب اليونانى المعاصر وترجمته إلى اللغات المختلفة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القارئ اليونانى بفضل حركة الترجمة النشطة إلى اليونانية يعرف الكثير من أعمال الأدب العالمى ، بل والملحوظ جيداً أن دور النشر اليونانية باتفاقات خاصة مع الناشرين فى العواصم الأوروبية تترجم الكثير من الأعمال الأدبية الأجنبية فور صدورها بلغاتها الأصيلة. والقارئ اليونانى مشوق إلى التعرف على الأدب المصرى المعاصر الذى لايعرف عنه الكثير ، وذلك على الرغم من إحساس اليونانيين بأنه كان بإمكانهم – وقد عاشوا طويلاً فى مصر الحديثة – أن يكونوا أكثر التفاتا إلى أدب بلادنا .

والكتاب اليونانى بصفة عامة يتصف بأناقته وحسن طباعته ، وهو فى أغلب الأحيان ليس بالزهيد فى سعره ، فالفكرة السائدة فى أوساط

الكتاب والناشرين أن الكتاب الأدبى سلعة يجب أن يحقق لمؤلفه وناشره دخلاً مناسبًا ، وأن الإقبال على شراء الكتاب إنما يأتى بعد أن يضمن القارئ لنفسه حاجات الحياة ومطالبها ولهذا فإن مشترى الكتاب اليونانى عادة يكون من المقتدرين ، وإن كان تزايد نسبة توزيع الكتاب اليونانى يشير إلى التحسن المطرد فى المستوى الاقتصادى للمجتمع اليونانى بصفة عامة .

ومادمنا بصدد الحديث عن الكتاب اليونانى فجدير بنا أن ننوه بسلسلتين منتظمتين تنشران الأدب اليونانى المعاصر ، أما السلسلة الأولى فهى بعنوان «الأعمال المنتقاة من الأدب اليونانى الحديث» وتصدرها دار النشر التى تصدر عنها مجلة «نيا أستيا» ويقرأ فى قائمتها أعمالاً لتيوتوكا وباباندونيو وكاركافيتا وميروويفيلس وبلايفيلاكيس وكارجاتزى ، وبيتسالى ذيوميذى وآخرين ، أما السلسلة الثانية فهى التى تصدرها فى طبعات رخيصة دار النشر غالاكسيا بعنوان «مكتبة الكتاب اليونانيين والأجانب» ذات الغلاف الأزرق .

ولما كان اليونانيون قد عرف عنهم انتشارهم فى بقاع العالم فإن كثيراً من الأعمال الأدبية التى ينشرونها تحتوى على خبرات وأحاسيس مختلفة تنضح بارتباطات باقية بالبلدان والشعوب التى عاشوا على أرضها. وقد طالعتنا مجلة «نيا أستيا» نصف الشهرية بأحد أعدادها فى الستينيات بقصيدة لشاعرة عاشت فى مصر ورحلت إلى اليونان تحمل حبًا عارمًا لمصر وأهلها. هذه الشاعرة هى كيتى باباذاكى – كارميتسا وتقول فى قصيدتها بعنوان «ساعة الصلاة» :

«يتأهب حسن ومحمد وسليم للصلاة ، غسلوا الأقدام وبسطوا على الأرض ثوبًا رخيصًا نظيفًا. منكسي الرءوس خاشعين ركعوا متجهين بوجوههم نحو المشرق. خفيضي النظرات ، تتمتم الشفاة بآيات من القرآن ، كلمات حكمية. وهى مغلقة النوافذ تخلع نجية ملاءتها السوداء ، وتضع على الرأس طرحة بيضاء. تميل الشمس للغروب. تمهلت لحظة تمتع السمع بصوت مؤذن الجامع المديد يقول : «لا إله إلا اللّه» والنيل يصغى بانتباه. وقد سكن سعف النخيل. الكل يطلب الصمت. فى الدروب الضيقة الفقيرة يكف الضجيج ، وفى الأحياء الغنية أيضًا يبطل الصخب ، يرتفع النداء « لا إله إلا اللّه» والقاهرة بأسرها تحتضن صوت المؤذن الحبيب. وصل الصوت إلى قلبى المؤمن. وتمتمت شفتاى. مر حسن ومحمد وسليم : «لا إله إلا اللّه» اللّه واحد بالنسبة لنا .. كلنا على هذه الأرض . كلنا سواء» .

ولقد سعت التيارات الأدبية في اليونان – على الأخص فى مجال القصة والرواية – إلى الاستفادة من التجارب المعاصرة ، سواء فى الشكل أو المضمون. فقدم كتاب اليونان إنتاجهم القومى فى قالب عصرى ، ويفخر الأدباء اليونانيون بأنهم يثرون بعطائهم الأدبى الأوروبى، ويرفضون التقيد بالمحلية ، ومن ثم تخلصوا من الحذلقات والزخارف اللفظية مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم . وقد أخذت شخصية الأديب اليونانى تتضح بجلاء ، فقد طوع أسلوبه بحيث لم يعد يكتفى بأن يقدم لقارئه لوحات «شعبية» فحسب ، بل استخدم لغته للتعبير عن رؤاه الذاتية من خلال اختيار موضوعاته وتفسيراته للمواقف والأبطال .

كما ظهر تيار جديد فى القصة اليونانية الحديثة نجده على الأخص لدى جورج ثيوتوكا . وذراسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس ، وهو تيار الكتابات اللامحلية عن أحداث تدور فى بقاع أخرى من العالم غير اليونان ، أو بين شخوص من جنسيات أخرى. وقد جعل بانابوتوبولوس العديد من أبطاله فى قصص مجموعته «فلامينجو» الصادرة عام ١٩٦٣ من الأفريقيين السود يصارعون من أجل التحرر من أغلال العبودية. وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الإطار الخارجى للموضوع وعلى نقل المعالجة السيكولوچية إلى مستويات أخرى غير تقليدية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التى تلت الحرب وتنوعت ، فإنه يجمع بينها محاولة ربط القومى بالعالمى ، وإعلاء النظرة الديناميكية إلى الوجود الإنسانى على النظرة الإستاتيكية. وأخيراً نجد الكتاب اليونانيين الجدد، سواء واجهوا الفرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون فى أعمالهم إلى مشكلات تتعدى الوسط اليونانى ، وتقتضى حلولها التقصى عن مدلول أشمل للإنسان ، وبذلك يسهم الأدب اليونانى الحديث فى إثراء التجربة الإنسانية العالمية .

القصة اليونانية الحديثة فى مصر :

ترجع أول محاولة قصصية فى الأدب اليونانى بمصر إلى عام ١٨٩٩ . وكان صاحبها أحد رجال التعليم المعروفين فى الإسكندرية وهو «يوانى جيكا». فقد نشر فى تلك السنة مجموعته القصصية «فى خمسة فصول»

وتنطوى قصص هذه المجموعة على جهد لتحليل نفسيات أبطالها ، وجنوح إلى اللغة العامية ، وهو ما كان فى حينه خطوة جريئة ، كما تنطوى على تنديد بالاحتلال البريطانى البائد. وإذا كانت قصص جيكا تلك ماعادت تقرأ الآن ، إلا أن كتابه «خمسون عامًا فى مهنة التعليم» الصادر عام ١٩٥٠ مازال يثير الاهتمام بما احتواه من ذكريات وانطباعات .

ويستحق «كوستا ساجاراداس» منا وقفة طويلة ، فقد أقام هذا الرجل بأسيوط وكان أول من لفت أنظار قرائه اليونانيين إلى حياة أهل ريفنا بروايته «نبية» التى كتبها عام ١٩٢٤ ثم تبعها فى العام التالى بمجموعته القصصية «حكايات» المستوحاة بدورها من حياة فلاحينا. ولقد كان ساجاراداس رائد الكتاب اليونانيين الذين وجهوا اهتمامهم إلى وصف مشاهد من حياتنا الشعبية. وقد رجع ساجاراداس أيضًا إلى ماضى بلادنا فكتب عام ١٩٥١ «بتاح حتب» ترجم فيها جانبًا من حياة الفراعنة وأدبهم .

وقد عرَّب الأستاذ عبد السميع المصرى رواية ساجاراداس «نبية» بعنوان «عذراء أسيوط» وأشار أديبنا يحى حقى فى كتابه «خطوات فى النقد» إلى هذه الرواية متنبها إلى دلالتها فيقول عنها «..هزت روحى هزًا عنيفًا ، حتى غلبنى التأثر. وأذاقتنى كأسًا مترعة من سعادة لا حد لها .. لأن كاتبها اليونانى يخاطبنا عن قرب ، ويعاشرنا منذ أمد بعيد .. وتدل مقدمة المترجم على أن المؤلف قد كرَّس لمصرنا العزيزة وطنه الثانى أو لعله أصبح وطنه الأول ، عصارة ذهنه وفنه ، وذوب روحه ،

ووقف عليها جل مؤلفاته الكثيرة .. ولم تقف نظرته عند سطح أرضنا ، بل نفذت إلى جذورنا وأعماقنا .. إننى لا أبالغ إذا قلت لك إن كوستى ساجاراداس قد قدم لنا قصة هى فى الذروة من الثقافة الذهنية والروحية. ولكن الثقافة وحدها لاتنفع عند التحدث عن الوطن إلا إذا صحبها حب وإعزاز وإحساس صادق وشعور يقظ ، وقد وجدت كل هذا عند صاحبنا بما لايدع زيادة لمستزيد ، بل أخطو خطوة أخرى وأقول إن الثقافة والحب إذا اجتمعا لاينفعان أيضاً إلا إذا صحبهما شىء ثالث له خطره وقيمته وهو التواضع والخشوع . وكوستى مثل رائع لتواضع الفنان ، وخشوعه أمام الطبيعة والنبات والحيوان ، وعواطف الإنسان وأحكام القدر ، وأشهد لك أن أحداً لم يصف مصر وأهلها وطبيعتها كما وصفها كوستى بفن وحب وإعزاز وتواضع وخشوع ، كما نفذ إلى أسرار النفس الإنسانية وبسطها فى كلام سهل ناصع نصوع الفن الإغريقى ..» (خطوات فى النقد – ص ١٨٠ ومابعدها) .

وقد سارت القصاصة «كاليوبى ناكوبولو» التى عاشت سنين طويلة فى الريف المصرى إلى جوار زوجها الذى اشتغل بالزراعة – سارت فى روايتها «شجرة على» الصادرة عام ١٩٥٧ على ذات النهج الذى اختطه ساجاراداس فسردت فى روايتها تلك حياة أسرة ريفية مركزة اهتمامها على التقاليد والعادات فى ريفنا وقد شيدت محور الرواية على الرغبة المتأصلة فى أن تنجب المرأة لزوجها ولداً ذكراً .. ومن خلال هذه العادات تتابع ناكوبولو بعين القصاصة المدققة حياة ريفنا كله ، مايلبس وما يؤكل ، مواسمه وأعياده . وأفراحه وأتراحه .. عواطفه ومشكلاته .

ولقد أوحت تربتنا وأرضنا للقصاص «ن.بوسولاس» بصفحات ضافية فى كتابه «الصيف» الصادر عام ١٩٦١ . كما يرجع الفضل إلى ڤيليبوبيريدس فى محاولة الربط بين اليونانيين المهاجرين إلى مصر والبيئة الريفية التى عاشوا فيها ، وذلك فى كتابه «تجار القطن» الصادر عام ١٩٤٥ .

أما «فاجيليس غراتسيا» فبعد أن كتب قصته الخيالية «بيت الأشباح» عام ١٩٥٨ ألف قصته «أصوات فى الصحراء» عام ١٩٦٠ .

وقد عرفت الحياة الأدبية للجالية اليونانية فى مصر أديبات جديرات بالإشارة إلى إنتاجهن القصصى. ففضلا عن القصاصة كاليوبى ناكوپولو التى نزعت - كما رأينا - إلى تصوير البيئة الريفية بكثير من الشغف والتعاطف، نجد القصاصة «هيلينى فويسكو» التى ضمت قصصها فى مجموعة صدرت عام ١٩٤٦، ثم نجد «لوكيا مارفا» التى كتبت عدداً من أجمل القصص اليونانية وقدمت لقرائها مجموعتيها القصصيتين «رحلة مع زميلى الإنسان» عام ١٩٥٣ و«بلا رفيق» عام ١٩٥٦، وإن كان الكثير من إنتاجهم ظل متناثراً على صفحات المجلات دون أن يجمع بين دفتى كتاب. أما «دوللى دالكا» فرغم أنها قد نشرت عدة قصص موفقة فى المجلات فإننا لانجد لها أية مجموعة جمعت فيها تلك القصص .

وفى مجال القصة اليونانية فى مصر نلتقى أيضاً «بماريا روسيا» التى نقدم ترجمة لإحدى قصصها فى هذه المجموعة .. وتنزع هذه

الكاتبة إلى الاهتمام بحرارة الروابط الاجتماعية ويدين لها الأدب اليوناني في مصر بكتابها «من أجل العدالة في الشرق الأوسط» عام ١٩٤٦ وقد استوحته من انطباعاتها عن الحرب العالمية الثانية ، وبكتابها «قبرص» الذي حاولت فيه عام ١٩٥٦ أن تعرض الروح الحقة لوطنها من خلال مزج رائع بين الواقع والخيال .

كما كتبت «أثينا باب» عام ١٩٦١ قصة حياة الموسيقى «شومان» مفصحة عن اهتمامات إنسانية وعالمية

وفي مقدمة القاصين اليونانيين في مصر الذين تعددت اهتماماتهم وكتاباتهم الشاعر الناقد القصاص «غلافكوس أليثيرسيس» الذي نظم الكثير من دواوين الشعر وألف كتاباً عن تاريخ الأدب اليوناني، أشار فيه إلى كثير من كتاب اليونانية الذين عاشوا في مصر أمثال «كافافيس» وقد ألف أليثرسيس أيضاً قصصاً قصيرة جمعها في مجموعته «العناكب» الصادرة عام ١٩٣٦

كما نجد «ستراتيس سيركاس» الذي تخلى عن نظم الشعر ليكتب القصة، وقد تجلت حنكته القصصية في مجموعاته «أناس غريبو الأطوار» عام ١٩٤٤ و«أبريل أشد صعوبة» عام ١٩٤٧ و«نومة الحصاد» عام ١٩٥٤ . وقد طبعت مجموعاته هذه ونشرت في الإسكندرية. وقد عرف سيركاس أيضاً بدراسته النقدية الجادة ، وله دراسة عن رائد القصة اليونانية الحديثة «ديموستينيس فواتيراس» عام ١٩٤٨ ودراسة أخرى عن القصاص القبرصي الكبير «نيقوس نيقولائيدس» عام ١٩٥٠ ودراسة أخرى ضافية عن الشاعر «كافافيس وعصره » عام ١٩٥٨

ولايفوتنا أن نشير فى هذا المقام إلى أديب آخر تنوعت كتاباته وضرب بسهم وافر فى شتى المجالات الأدبية هو «فريتميتساكيس» قارئ الفلسفة الذى كتب القصة المتطبعة بروحه القلقة المنقبة المحملة بقسط وافر من المعرفة الإنسانية .

ويجدر أن نشير فى حقل القصة اليونانية فى مصر إلى «كيتروبولو» الذى بكر بإصدار عمله القصصى عام ١٩٢٥ وإلى «يانجوس بيرينس» الذى كشف عن قدرته على تحليل النفسيات فى روايته «الغريب» الصادرة عام ١٩٢٧، وإلى «سوكرات ساماتيو» الذى قدم لنا عام ١٩٥٤ «الأعصاب المكدودة» ، وإلى «سوتيرى يورذانو» وإلى «إيليا خادزيليا» صاحب المجموعة القصصية «ساعات على النيل» الصادرة عام ١٩٥٣، وإلى «باولو ناثانيل» الذى أصدر عام ١٩٥٥ مجموعته «القلق» .

وفى عام ١٩٣٥ صدرت فى الإسكندرية مجموعة قصصية بعنوان «خطوات على الأسفلت» لقصاص ذى مكانة مرموقة فى أدب القصة اليونانية بمصر هو «أنطونى إينونى» الذى أصدر بعد ذلك مجموعة قصصية ثانية بعنوان «لحظات كبيرة لأناس صغار» عام ١٩٣٨ وقد أعيد طبعها عام ١٩٤٤ ثم أصدر مجموعة قصصية ثالثة بعنوان «الرجل الذى يضحك فى أوقات غير مناسبة» عام ١٩٤٣ ، ثم مجموعة قصصية رابعة بعنوان «مقابلة مع ذاتى الأخر» عام ١٩٥٤ . كما أصدر عام ١٩٤٦ كتابه «أحلام تحت رقعة من السماء» تتضمن قصة ورواية قصيرة. وأصدر أيضاً روايتين طويلتين إحداهما «أولئك الذى لم يحاربوا»

عام ١٩٤٥ . وأسلوب إينوني أسلوب مهذب رائق لايعمد إلى الإيقاعات العالية ولا إلى افتعال المفاجآت الصاخبة . وهو يتتبع في قصصه أناساً عاديين في ساعات المحن والحاجة والضعف ، ويعرض لحظات كل يوم بعمق ويملأ قلب قارئه بالشجن دون التردي بفنه في الميلودراما الخطابية. ومن خلال قصصه نلمح الكثير من أحياء الإسكندرية وشوارعها ومحالها .

على أن أكبر كتاب القصة والرواية اليونانية في مصر هو بلا منازع القبرصي «نيقوس نيقولائيدس» وإذا كان نيقولائيدس قد توفي عام ١٩٥٦ إلا أن قصة مثل «عظام الميت» أو «أبعد من الخير والشر» لهي عمل أدبي نادر المثال. كما أن روايته «المسامير الثلاثة» التي صدرت في القاهرة عام ١٩٤٨ جديرة بكل تقدير . والحق يقال إن أدب نيقولائيدس لم يحظ بمكانته اللائقة بعد رغم ما يحفل به من إنسانية وشرف وإخلاص .

ومن الجدير أن نشير إلى واحد من أشد قصاصي اليونان في مصر جرأة وهو «يني يامفيليس» الذي جمع قصصه عام ١٩٦٠ في كتاب بعنوان «الميناء» فقد طبع هذا القصاص قصصه بالحروف اللاتينية ، مما يعتبر عملا طريفًا وجديراً في حد ذاته . وهو يقول في مقدمة مجموعته إنه عمد إلى هذه الكتابة لأنه فنان تجريبي قبل كل شيء ، وإن كان قليل الإيمان بأن طريقته هذه ستحظى بالرضاء العام أو ستلقى التأييد

السريع. ولكن يامفيليس يُعد بطريقته هذه فى طليعة الكتاب اليونانيين الذين سعو إلى ربط لغة بلاده باللغة الأوروبية التى تكتب بالحروف اللاتينية[1] .

ونحن فى النهاية إذ نقدم هذه المجموعة من القصص اليونانية الحديثة ، نأمل أن تحقق ماقصدناه من إمتاع القارئ العربى وتحبيبه فى أدب شعب صديق .

(١) استندنا فى هذا المقام إلى كتاب الناقد المؤرخ السكندرى «مانولى يالوراكى» بعنوان تاريخ الأدب اليونانى فى مصر طبعة ١٩٦٢

الحقد فى قلب كاميناس

ذيموستينيس فوتيراس

عندما أقبل الليل ، وأوقدت خادمة الكنيسة قناديلها ، خرج كاميناس إلى سطح القصر الريفى القديم ، ونظر إلى بيت باريا .

كانت أنوار البيت تتلألأ ، ومن خلف الستائر المفتوحة انعكست الأضواء خارجاً فبدت الأشجار الداكنة الساكنة ، والأرائك الخشبية ، وحوض المياه .

قال بصوت خفيض: «كادوا يفسدون علىَّ خططى» ، اختبأ فى بطن القصر القديم ، هكذا كان يسمى أقبيته ، ولم يستطع الحارسان اللذان طارداه أن يعثرا عليه آه ! القصر القديم يحميه ، كانت أشباحه أصدقاء له ، ولما نزل الحارسان يبحثان عنه ، سارعت بإخفائه ، ملقية عليه رداءها السحرى ، فلم يرياه ! جرت الحشرات من حوله وإلى جواره، لكنها كانت كلها أصدقاءه ! هى بدورها ربيبة الظلام ، عدوة النهار والنور الوضاح ! مثله. تريد الليل الأسود الستار ، الذى يحتوى فى أعماقه غوامض وغوامض ، ويحتضن تلك الأشباح التى تخرج

بلا خوف فى ظلمتـه عـائدة إلى ديارها المهدمـة ، إلى قـصـورها التى صارت خرائب وأطلالاً !

سكنت الريح التى كـانت تعصف من قبل بالقصر العتيق وتزلزل جنبـاته ، وتبـعث الأنين والتنهـدات بين أرجـائه. كـانت ليلة هادئة ، لكن هدوءها كان يضطرم بجلبة لايعرف كنهها ، أشبه بهمهمات أشباح عاشقة ، أو خرير ينبوع خفى ، أو أغنية يبعث بها الصمت إلى النجوم .

– ما بالهم يفعلون ؟ لابد أنهم يرقصون ! الثراء بين أيديهم حرام !

كز على أسنانه .

سيرون الآن ماذا بمقدور فقير تعس أن يفعل .! لقد ألبّوا عليه الخفراء ورجال الشرطة والقضاة ، لكن هل سيكون بإمكانهم أن يوقفوا الانتقام ؟

وكان الليل كاتم الأسرار ينظر إليه من عليائه بعيونه التى لاتحصى .

... سوف يتسلق بعد ذلك السور إلى النافذة من تلك الناحية التى تنمو فيها اللبلابة اللفاء .

ومثلت فى مخيلته اللبلابة المتشبثه بالحائط ، وتركزت رؤيته على ذلك الموضع الذى تفرقت عنده أغصانها مثل علم مجزوز .

تسلق أحجار الحائط البارزة . كان يجب أن يروه مثل شيطان يطلع عليهم من هناك . فاضت الأضواء من المصابيح والشموع والثريات ، وأغرقت المكان بأنوارها . كانت النساء تدرن وترقصن بين أحضان

الرجال ، راقلات فى ثيابهن البيضاء ، وقد انحسرت ثغورهن الضاحكة عن أسنانهن الناصعة .. دفع النافذة بشدة وقد أمسك بمصراعها الخارجى .. تحطمت النافذة ، وانفتحت ، ولم يبق من زجاجها سوى كسرة صغيرة علقت بمزلاجها . وفى خضم الجلبة الحادثة ، صاح :

– الانتقام !

انفضَّ كل شيء . الوصال ، والضحك ، والمرح . ثم تعالت صيحة أخرى :

– النار !

سيشتعل الديناميت أيضاً ! لن يفلتوا ، كلا ، الباب أحكم إغلاقه ، والمفاتيح ألقيت بعيداً . وانتقام التعساء يبدأ !

نزل بسرعة ولكن بحذر، وإن كان يعرف كل حجر من أحجار السور ، فقد سبق له أن صقلها مراراً ليكسوها بالطلاء ! لن ينجو أحد . ومن جرؤ على الاقتداء به ، والنزول من حيث نزل هو ينتظره موت آخر .

قفز إلى الأرض ، وجرى يختبئ وسط الشجر ، وقد غلبته نوبة من الضحك أشبه بالبكاء !

ارتجت الأرض ، وانفجر دوى شديد ، وتطاير كل شيء فى الهواء . ومض وهج لامع ، وتصاعد غبار ، ودخان أبيض يغطى وجه النجوم .

تم الانتقام !

تساءل كاميناس: «وبعد؟»

أحسَّ فراغًا فى الموضع الذى كانت تشغله الوجوه المكروهة ، ومثل وحش أعمته شهوته عاد حقده فى أعماقه يفتح ويطبق فكيه الضاريين ، متعطشا للدماء !

كلا ، كلا! لن تتمخض الكراهية التى فى قلبه ، كراهيته التى لانهاية لها ، فتلد هذا الانتقام القاصر فحسب ، أبدا . أبدا ، لن يلد الجبل فأرًا ، ولا النمر نملة !

التفت إلى القصر القديم ، وسأله :

– إيه ، أيها القصر العجوز ، بما كنت ستنصحنى لو قدر لك أن تتكلم ؟

تردد الصدى فى أرجاء القصر ، محاولاً أن ينقل إليه ماذا يقول القصر العتيق ! أجفل مذعورًا . راودته ذكرى قديمة . هكذا كانت أمه تبكى عندما كانت تحل النكبات ببيتهما !

اندفع داخلاً إلى القصر ، وجال ببصره فى أرجائه . ومن السقف المهدم رأى نجومًا يخفق نورها . وسمع دبيب حشرات وحفيف أجنحتها . ترى ، أكان ذلك صوت أمه ؟

صاح قائلاً: «أماه !» وصَدَّقَ ماقاله .

كانت الساعات تمر بحلوها ومرها . أما الساعات السوداء ، مثل بنات خادمة القناديل ، فقد خيمت هناك .

علقت أنظار كاميناس – وقد اتكأ إلى الحائط الخفيض – بالنوافذ التى مازالت مضيئة بالبيت العدو . ارتسم فى مخيلته ذلك الذى كان يتمناه . أن يسحقهم ، أن يقتلهم ، ثم يبعثون توًا ليعاود سحقهم وتعذيبهم وقتلهم من جديد ، دون أن يكل أو يكف عن ذلك أبدًا ، أبدًا وأن يظل هذا المشهد متصلاً على مر العصور والأزمان !

توقف كاميناس عن أفكاره ، وهم بالانصراف ، لكن الوقت لم يمهله . كان القصر القديم قد تعب من عبء السنين ، وأنهكه صراع الأشباح ، فمال وانهارت دعائمه دافنة تحت الأنقاض إنسانًا ضئيلاً تأجج فى قلبه حقد مهول .

أغاريد

غريغوريس كسينو بولوس

من يريد أن يترجم أغاريد الطير إلى لغة مكتوبة، يسطر نغمات من هذا القبيل :

– تسيو ! تسيو ! تسيو !

أو :

– تسيفيزى ! تسيفيتى ! تسيفيتيتى !

أو (صدقونى فقد صادفنى ذلك أيضًا):

– فررررر – – تسا ، تسا ، تسا ، تسا ، تسا !..

هيه . لكن الأمر لم يكن مجرد حروف من الأبجدية ، بل إن أوركسترا كاملة من عازفى الناى والمزمار والكمان والفيولينا ماكانت لتقدر على تقديم كل تلك الأنغام المنبعثة من دار السيد أناستاسى والد زافيرولا .

كانت الدار بجوار «القديس بولس» فى «تسارو خاريكا» ، بيتًا ضيقًا عاليًا ، مثل برج الأجراس فى كنيسة ، فقد كان البيت يتألف من

ثلاثة طوابق ، ولكل طابق نافذتان فحسب . والذى كان يزيد من شبه البيت بالبرج وجود صف من الأقفاص الصغيرة والكبيرة متراصة ومعلقة تحت كل نافذة على واجهة البيت المطلية بالجير الأبيض . وكانت هذه الأقفاص تبدو من بعيد كما لو كانت شرفات ذات قضبان رفيعة حوطت بالبيت فى صفوف ثلاثة .

وكان فى تلك الأقفاص المختلفة الأحجام آلاف الأصناف من الطير ، من حسون وزرزور وعصفور وكروان وكنارى وشرشور وقنبرة وشحرور . وكانت تغرد بلا انقطاع منذ الشروق إلى الغروب : تسيو اتسيفيتى! تستسا! .. (لكن ، كلا ! قلنا إن هذه لاتسطر على الورق» ولم تكن الأقفاص العديدة مرصوصة على واجهة البيت فحسب ، بل وعلى خلفيته أيضًا التى تطل على شارع القديسة آناه ، كانت فى الغرف مدلاة من السقوف ومعلقة بالحوائط وفى الأروقة والفناء ، بل وفى المطبخ أيضًا ، فى كل أرجاء البيت ، حتى إنك لتقول إن الدار ماعادت تتسع حتى لقفص يمامة .

وذلك لأن بيت السيد أناستاسى فى «تسارو خاريكا» لم يكن مجرد دار للسكنى ، بل كان أيضًا دكانًا و«معمل تفريخ» . فقد كان السيد أناستاسى المعنى الأول بالطير فى البلدة يربيها ويبيعها . لقد كان يشقى ، مع هذه المخلوقات ، هذا المسكين بدوره من الشروق إلى الغروب دون أن يشاركها الغناء لأنه كان وقوراً جداً وغضوبًا إلى حد ما . كان رجلاً فى الخمسين من عمره ، أرمل يعيش مع ابنته الوحيدة زافيرولا وخادمة عجوز اسمها مادلينا .

كان السيد أناستاسى متيمًا حقًا بالطير .. ولهذا ، لئن كان قد مضى على وفاة السيدة أناستاسينا زوجته أعوامًا كثيرة ، إلا أنه لم يتزوج مرة ثانية ، مثل الصانع المبرز ، يرفض المرأة حتى يكرس نفسه لصنعته ، أما زافيرولا فهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، سمراء ممتلئة الجسم ، تكن للطير الفضول والحب الذى تكنه له كل الفتيات – أما العجوز مادلينا ، تلك المرأة النحيلة البليدة ، فقد كانت تنظر إليه بنفور وشذر ، مثل كثير من العجائز منحرفات المزاج .

كان السيد أناستاسى يقول :

– طيورى ...

وكانت زافيرولا تقول :

– الطيور ...

أما مادلينا فقد كانت تقول :

– تلك الطيور المقيتة ..

وكلما سمعها السيد أناستاسى صب عليها لعناته ، وقال :

– قطع لسانك ، أيتها الحمقاء !

ولو لم تكن أمينة رغم كثرة تذمرها ، وتسدى له العون فى العمل ، لطردها من خدمته ، وتوخيًا للحق نقول إنه فى الآونة الأخيرة كان العون الأكبر يتلقاه من العجوز مادلينا . كانت هى التى تغسل الأقفاص فى

الفجر ، وتدخلها في الليل . كانت هي التي تقوم بتنظيفها ، وتطهو البيض وتدق اللحم الذى يتألف منه غذاؤها . أما زافيرولا فكانت قد ركنت إلى الخمول . كانت تقضي أوقاتها غارقة في شرود لذيذ ، تهدهدها أهازيج الطير التي لاتنتهي . وكانت ترقد بدورها بين يديها أو في حجرها قطعة بيضاء من أشغال الإبرة ، وعندما كان أبوها يناديها ، كانت تنهض بفتور ، وتتنهد تنهيدة صغيرة . أما إذا نادتها مادلينا طالبة منها أن تساعدها ، فلم تكن تعيرها التفاتًا ، أو كانت تجيبها قائلة: «إني قادمة إليك ، حالا» دون أن تذهب إليها قط .

وعندما كانت تصمت أهازيج الطير بالليل ، كانت زافيرولا تستمع إلى موسيقى أخرى .. كان مينيغوس ، الشاب الوسيم ذو الخصلات السوداء ، يعزف على قيثارته من المحل المقابل ، وهو محل صديقه خريسوسباثي الحلاق ، ويسكرها بأغانية . وبإمكاني مرة أخرى أن أسطر لكم هنا بأحرف ماكان يقوله ، وبعلامات ما كان يغنيه ، لكن كيف أستطيع أن أصف لكم هنا بالكلمات حلاوة صوته ، ورعشته الجياشة بالعاطفة ، وتلوينات حنجرته ؟ كان غناؤه مثل تغريد الطير ، بل إن غناء هذا الإنسان العاشق كان أكثر إحكاما ومشقة ، فهو يبث في أنغامه لواعج قلبه التي تزداد تأججا ، وهو يرى أمامه معبودته التي يشتاق إليها قلبه ، ويلمح عند الشباك وجهها الصبى الممتلئ ناصعًا مثل زنبقة بيضاء ... وبهذه الموسيقى كانت روح الفتاة تطرب بطبيعة الحال أكثر مما تطرب لموسيقى طيورها . ولما كانت هذه الموسيقى تفتح أمامها آفاقًا ودروبًا جديدة من السعادة ، فقد أحبت المنشد عذب الصوت مينيغوس.

ولهذا كانت تغرق هذه الأيام في شرود لذيذ ، ولهذا أيضاً كانت تنسى شغل الإبرة بين يديها ، وعندما كانت تناديها مادلينا كانت تجيبها قائلة «إنني قادمة إليك ، حالا» ولم تكن تذهب إليها قط .

كانت زافيرولا تعرف جيداً لماذا يغني مينيغوس . ستقولون ، إن كل فتاة في سنها تعرف ذلك ... أجل ، لكن ابنة بائع الطيور قدر لها أن تعرف الأمر أفضل مما تعرفه غيرها على أي حال . ذات يوم ، فجأة ، وهي تضع بعض القنب في قدح صغير وتصغي إلى عصفور يغني ، سألت السيد أناستاسي :

– لماذا يا أبي ، يغرد الطير ؟

أجاب أناستاسي :

– كل يغني للآخر ، لكل أذنين صغيرتين تسمعان .

وقالت زافيرولا :

– اصدقني القول ، يا أبي .

لم يضف السيد أناستاسي كلمة إلى ماقاله ، لكنه غرق في التفكير ، وبعد فترة طويلة من الوقت ، حتى أن زافيرولا فرغت من تعليق القفص الذي انكبت على تنظيفه ، ونسيت السؤال الذي وجهته ، تعالى صوت بائع الطير يقول كما لو كان يحادث نفسه :

– لماذا يغرد الطير؟ ... وهل أعرف أنا لماذا يغرد الطير ؟ ... لكن لماذا لايغرد السمك مثلاً ؟ .. الأجدر أن يُسأل السيد الإله !

ويبدو أن زافيرولا كانت قد فكرت فى الأمر هذه الأثناء ، فقالت :

– لكن ألا ترى يا أبى أن الذكور وحدها هى التى تغنى؟ لاتغنى الإناث قط لماذا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه .

بادرها السيد أناستاسى مداعباً :

– لأن الإناث ماكرات !

قالت زافيرولا مبتسمة :

– لا أصدق ذلك . لابد أن ثمة سبباً آخر . عندما سأقابل الأب بوليذوروس سأستفسر منه . لابد أنه يعرف !

وأجاب السيد أناستاسى قائلاً :

– اسأليه لو لم يضربك . لكن ، انظرى الآن ما إذا كانت تلك العجوز مادلينا قد سوت البيض لكى نطعم الكنار ، تحتاج إلى عشر ساعات لذلك ، خيبة الله عليها !

انتهى الحديث عند هذا الحد . ولكن قبل أن تسأل زافيرولا الأب بوليذوروس، سارع السيد أناستاسى فى مساء اليوم ذاته بالذهاب إلى صيدلية الحى ، التى كان يأتى إليها بين الحين والحين يسأل حكيماً .

– الأمر جد غريب ، ياسيدى الدكتور ! تصور ماذا بدا لابنتى أن تسألنى فى الفجر عندما كنا ننظف الأقفاص ؟.. أعوذ بالله من هذه الفتيات .. يسألن عن كل ..

تنحنح الصيدلى ، وابتسم . وتجمع آخرون فى الصيدلية ليسمعوا ما سيدلى به من قول حكيم . وتفضل فأوضح للسيد أناستاسى كيف أن ذكور الطير تغرد لإغراء الإناث . فتلك الذكور مثل العاشقين الذين يعزفون الموسيقى بالليل تحت نوافذ عشيقاتهم .

وأضاف الصيدلى قائلاً :

– ولهذا ، يتميز الذكور أيضًا بريش أجمل وأزهى . ويحاول كل ذكر من غير كلل أن ينتصر على منافسيه بحلاوة أغاريده المتنوعة ، وأن يتزوج أليفته .

فتن السيد أناستاسى الساذج صافى القلب بهذا الإيضاح الذى لم يكن قد توصل إليه عقله من قبل مع أنه يعمل تاجر طير منذ أمد طويل . وعاد إلى البيت ، وقد امتلأ فرحا كما لو كان يحمل كنزاً . ولما كانت مثل هذه الأحاديث لاتناسب ابنته ، فقد أفضى بها إلى العجوز مادلينا ، التى مالبثت أن نقلتها إلى سيدتها فى اليوم التالى . ومن ثم عرفت زافيرولا ، على وجه التقريب ، لماذا يغرد الطير ولماذا يغرد الذكر وحده ، وماذا يعنى تغريده . شذرات فحسب من كلام الصيدلى – كما تفهمون – وصلت إلى سمعها . لكنها بخيالها ، وبالقدر الذى كانت تعرفه عن الناس ، وعن الطبيعة ، وعن نفسها ، أمكنها أن تدرك الأمر كله . ومنذ ذلك الحين كلما سمعت أغاريد الطير تنسكب من ألف قفص ، رأت عرساناً صغاراً فى أبهى ريش يحاولون بصوتهم وزينتهم أن يحركوا عواطف عرائس عذارى صموتات . وانغرست هذه الرؤيا رويدا رويدا فى أعماقها حتى إنها صارت تتخيل بيتها كشىء شاعرى ، كجنة صغيرة تغمرها سعادة الحب بموسيقى عذبة ، عذبة إلى أقصى حد .

وهكذا ، بعد أن عرفت من الألحان التى كان يعزفها مينيغوس أول الأمر أنه كان يهدف إلى أن يستثير حبها له بغنائه فى محل خريسوسباثى الحلاق عازف القيثارة ، قالت تحدث نفسها :

– ها هو بلبلى ... وأنا بلبلته .

ولكن لماذا لم تقل ها هو «عصفورى» أو« كروانى» أو«شحرورى»؟ لم تقل ذلك لأن فى تلك الآونة كان أحسن مغرد لدى السيد أناستاسى بلبلاً . كان ريشه خليطًا من البنى والأصفر الداكن تتماوج فيه خطوط خضراء غير زاهية . أما صوته فكان معجزة المعجزات ! لم تكن تلك الحنجرة حنجرة طائر بل كانت أوركسترا كاملة من الناى والمزامير والصفارات المعدنية . وكان السيد أنا ستاسى فرحا مزهوا ببلبله . عُرض عليه أن يبيعه بريالين – تصوروا! – ولم يقبل . كلا ! كلا ! هذا الطائر بالدنيا كلها! سيحتفظ به لنفسه، وسيحصل منه على سلالة طيبة. بل وقد أعد له عروسًا تليق به ، بلبلة جميلة لفاء معتزة بذاتها ، فاتحة الصفار حتى أنها لتبدو بيضاء . ولماذا وقع عليها الاختيار دون غيرها؟ هيه ، كان السيد أناستاسى فى مسائل الحب هذه بارعًا فى التوفيق بين المحبين ذكوراً وإناثًا . كانت مهارته تتمثل فى الجمع بين الزوجين ، وتوجيه الانتقاء الطبيعى إلى مافيه صالحه . وباعتباره صاحب السيادة المطلقة والمتصرف الأوحد فى مصائرها ، إله الروح والجسد ، كان يزوج العريس بأية عروس يريد حسنة أو سيئة ، تحلو له أو لا تحلو ، وتلك البلبلة الجميلة كانت من نصيب الغرد ذى الريش الجميل ، إلا إذا تدللت العروس وتمنعت عليه تمنعًا متواصلاً ، ومضت تنقره أكثر مما يحتمل عندما يدخل إلى قفصها .

وهكذا ، بعد أن استمتعت البلبلة الجميلة بأغاريد البلبل الغرامية الدافئة ، وضع السيد أناستاسى ، الذى كان يعرف مواسم الغرام خير المعرفة - وضع البلبل فى ذات القفص مع البلبلة . كانت زافيرولا فى المقدمة ، بل وكانت تعاونه بحماسة ، وقالت لنفسها فرحة :

- وأنا أيضًا بالمثل ... ذات يوم ، بعد كل هذه الأغانى الكثيرة ، سيأتون لى بمينيغوس ويضعونه فى قفصى .

كان بإمكانها أن تقول ذلك حقًا ، فقد كانت وحيدة والدها الذى كان بدوره أرمل ، ولم يكن ليمانع فى أن يأتى زوج ابنته ليقيم معه . ولما كان مُينيغوس فضلاً عن براعته فى الغناء بارعًا أيضًا فى النقش على الخشب ، ويشتغل عند بيليدى الذى كان ينتج أفخر الأثاث ويعتبر مينيغوس ذراعه اليمنى فى العمل ، فقد كانت زافيرولا وطيدة الأمل في أن أباها لن يعترض على زواجهما . ثم إنه فى تلك الأيام ذاتها أخبرت إحدى خالات مينيغوس ابنة عمة لزافيزولا أن الفتى يحبها بحق وسيطلب يدها ... منذ اللحظة التى دخل فيها البلبل إلى قفص أليفته ركبه الصمت .. طوال ذلك اليوم ظل أبكم منطويا على نفسه . وظل على هذا الحال اليوم التالى واليوم الذى بعده .

مضى السيد أناستاسى يقول :

- ماذا دهاه وحق الشيطان ! عجبًا ، لم يعد هذا الطائر يغرد! على أنه عندما رآه ، ذات يوم ، فى عناق مع عروسه الصغيرة ، ويتبادلان قبلة حارة خاطفة - قبلة طائرين جعلت الرأسين الشقراوين يرتجفان نشوة ، فكر العجوز وقال لنفسه مبتسمًا :

– ها هو يعانق حبيبته . ماحاجته الآن إلى الغناء ؟ .

على أن هذه الفكرة الصائبة لم تمنعه من أن يتذكر غناء البلبل ويتوق إليه . وذات صباح أثناء تنظيفه قفص العروسين ، في حضرة زافيرولا دس يده من الباب الصغيرة وحصر الأنثى في أحد الأركان ، وربت بإصبعه على رأسها يداعبها مغيظاً . وقال لها حانقاً :

– أيتها الأنثى القذرة ، أخرست بلبلي ! أصبحت ثقيلة على قلبي!

كان السيد أناستاسي يعرف من خبرته على أي حال أن الطيور عندما تتزاوج تكف عن الغناء . وعلى الرغم من حزنه للصمت الذي حط على بلبله لم يدهش كثيراً مما ألم به . أما زافيرولا التي لم يكن لها ما لأبيها من خبرة ، فلم تكن تدري كيف تعلل الأمر . وكانت تقول للعجوز مادلينا ضاحكة :

– إنها لاتهيئ له أسباب الحياة الرغدة . لقد انكمش المسكين ولم ينبس بشيء .

وكانت مادلينا تجيبها قائلة :

– لا يعنيني الأمر في شيء ! بالعكس ، قلت الجلبة التي تخرق آذاننا صوتاً واحداً !

فكرت زافيرولا ملياً ، وقالت لنفسها :

– على أي حال ، سأهيئ له أنا أسباب الحياة الرغدة ، ولن يتوقف غناؤه أبداً! أبداً؟! ياله من قول كبير ، هذا الذي قالته زافيرولا الصغيرة !.

فى المساء غنى مينيغوس أحلى أغنياته فى دكان الحلاق ، وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوما من أيام الآحاد من أبريل ، دخل بيت السيد أناستاسى عريساً لإبنته .. وفى المساء لاغناء ، ولا قيثارة .. مر فحسب ببيت خطيبته ، وتبادلا حديثا حلوا من النافذة وقال لها متنهداً «طابت ليلتك» وذهب لينام ... فى اليوم التالى ، زيارة أخرى فى المساء أما بالليل فلا شىء . أصبح الفتى من شدة سعادته يعود إلى بيته الآن وينام مبكراً مثل الدجاج .. وربما كان يريد بذلك أيضاً أن يتظاهر أمام حميه بالاستقامة والرزانة . ثم ، أية حاجة به الآن إلى الغناء وعزف القيثارة ؟ لقد أنجز المطلوب ، ونال مرامه . البيت مفتوح والعروس فى انتظاره . بإمكانه أن يذهب إليها فى أى وقت شاء ، وأن يقبلها أمام مادلينا ، ويقول لها إنه يحبها . ما الجدوى من الأغنيات إذن ؟

وفى غمرة الفرح والسعادة ، وربما كانتا أكبر بالنسبة لزافيرولا ، لم تتنبه إلى ذلك الصمت . وإذا كانت الآن قد فقدت الأغانى فقد وجدت القبل . وهكذا مرت الأيام فى سعادة وانشغالات هنيئة ، لأن الأحد الأخير من أبريل الذى حدد لعقد القران كان يقترب .

على أنه فى ذات يوم – وأول الغيث قطرة – دب التذمر بين الخطيبين . فكثرة الحب قد تجلب الكدر . خيل لمينيغوس أن زافيرولا تطيل النظر إلى شاب وسيم ثرى ألف أن يمر من الحى فى طريقه إلى الصيد ... وجه مينيغوس إلى خطيبته كلمة لوم ، فلم تقبلها وردت عليه بكلمة أخرى ، ومن كلمة إلى كلمة بلغا إلى حد البكاء وذرف الدموع .. أعنى أن زافيرولا هى وحدها التى بكت . وقد استبد بمينيغوس غضب

حقيقى ، ولأول مرة انصرف دون أن يقبلها ، مكتفياً بأن ألقى تحية المساء بفتور ، وبلاتنهد ...

وفى تلك الليلة ، فى غمرة أفكارها المريرة ، تذكرت زافيرولا لأول مرة البلبل الذى كف عن الغناء ما إن دخل إلى قفص أنثاه ، وقارنت مرة أخرى بينه وبين مينيغوس الذى كف عن الغناء منذ أن دخل بيتها خطيباً لها .

كانت تقول مرتبكة فى وحدتها :

– ياله من أمر غريب ! انظرى! منذ اليوم الأول ! منذ اللحظة الأولى! ... يبدو الأمر كما لو كانوا قد عملوا له سحراً ! ... الطائر والإنسان سيان ، إذن ... أكان مينيغوس أيضاً يغنى حتى يحملنى على أن أدخله هنا ؟ والآن ، بدلاً من الأغانى سأتلقى غضبه وشتائمه . وأنا التى كنت أقول .. ويل لى! ... ويل لى!.

والحقيقة أنه لا البلبل غرد ولا مينيغوس غنى من جديد بذات الرغبة القديمة . عقد قرانهما وعاشا حياة لا بأس بها . ولم تتعرض زافيرولا لغضب زوجها وشتائمه كثيراً .. بل أن حياتها لم تخل من الكلام الحلو ومن الملاطفات التى كانت تتلقاها من بلبلها فى قفصها الصغير . على أن غناءه ، تغريده ، الذى كان يسكرها فى زمن الحب ، لم تعد تسمعه قط ... وهكذا ، بخبرة مزدوجة تعلمت زافيرولا العروس ابنة تاجر الطير قانوناً من قوانين الحياة .

- الخادمان

نيقوس نيقولائيدس

دق الجرس ، جرى بوليكاريو يفتح الباب .

تساءلت مارتا :

- من يكون الطارق !

ألقت نظرة سريعة إلى الأرفف ومسند الأطباق . أصلحت غطاء المنضدة الذى زحزحه بوليكاريو بمرفقه من مكانه . وجمعت من أرض الغرفة أعواد الكبريت وأعقاب السجائر .

تمتمت تقول :

- رجل لا صلاح له . الكلاب والقطط يُقَوِّم سلوكها وتتهذب ، أما هو فيظن أن المطفأة توضع إلى جواره للزينة فحسب !

عاد بوليكاريو واجمًا .

كان مطبقًا راحتيه الكبيرتين مثل محارة .

– إنه لغز، سمه صدفه .. سمه أى شىء آخر . أما أنا فأسميه لغزا ارتسم التفكير فى نظراته ، واغرورقت عيناه فرحاً .

– مرة أخرى ، بدلا من أن أفتح الباب الصغير فتحت البوابة الكبيرة . إنها المرة الثالثة التى يحدث لى فيها هذا فى عام واحد .

لمعت عينا مارتا فرحاً .

– أجل زوجتى العجوز . فهمت إذن . خطاب ثالث .

فتح راحتيه وأبرز خطاباً .

ابتعدت مارتا من العمود الذى كانت ترتكن إليه ، واتخذت وقفه احترام شديد .

– أجل ، فهمت .. إنه من سادتنا .

– لتكن الأخبار طيبة ، يا إلهى ...

– ... وبعد ذلك يقول البعض : مجرد صدفه ، أوشىء من هذا القبيل ! .. يدق الجرس كل لحظة وأخرى ، وتتكاسلين عن النهوض . أصبحت تتراخين فى أداء الخدمة ، مللت واجبك ونسيته ، وتقولين بغير اكتراث فليدق الباب . ليس ثمة أحد ... أو ربما يستيقظ فى البواب الذى كنته فأنفض الأغطية عنى وأمد يدى .. آملا فى كل مرة أن أتسلم خطابا من سادتنا .

– أرجو يا إلهى ، أن تلقاهم فى أحسن حال !

– ... وبعد ذلك يقول لك البعض إنها مجرد صدفة ، أو غير ذلك من تلك السخافات التى يرددونها !

ينهض العجوز ويفتح الباب وتسارع امرأته ، التى لم تكن تنتظر زوارا ، إلى ترتيب المطبخ ، وجمع أعقاب السجائر التى ألقاها العجوز النكد .. وبعد ذلك ... ما الأمر ؟ أخطاب تقف العجوز وتكاد تقول «أوامرك يا سيدتى» وإذا بالخطاب من أصحاب البيت ، ألا يعتبر بعد كل ذلك لغزاً ؟!

– كفٌ ، أيها العجوز عن فلسفاتك ، واقرأ حتى نعرف الأخبار الطيبة . ألا تستطيع أن تفهم أن سادتنا أصحاب البيت مازالا بعيداً ولم يحضروا بعد ؟

– وأنت أيضًا ؟! من ذا الذى يمكنه أن يقول إن أنفاس سادتنا لا تملأ البيت مهما بعدت بهم الشقة ؟!

كانا زوجا من ذلك الصنف النادر من الخدم الذى يتزوج وتدركه الشيخوخة فى البيت ذاته ، وفيًا مكرماً مثل كلاب حائزة على الرضى والمديح . شاركا الأسرة فى كل أفراحها ، وأتراحها . أعدت مارتا غرفة الاستقبال الكبيرة وأوقدت الثريات فى كل المناسبات السعيدة . وفتح بوليكاريو البوابة الكبيرة لكل الجموع البهيجة من الأصدقاء القادمين إلى أفراح البيت . على أن مارتا هى التى غطت أيضًا المرايا والثريات بالأغطية السوداء ، وأسدل بوليكاريو الستائر الثقيلة السوداء على الباب ، ونكس الرأس عند مرور الأصدقاء الحزانى القادمين لتقديم العزاء .

كم من مرة شاركا أهل هذا البيت بكاءهم على أحبائهم الذين ماتوا !

وعندما حلت الفاجعة الأخيرة ، ورحل أصحاب البيت مثل طيور مذعورة لينقل الأب والأم ابنهما إلى جو آخر ، وينقذاه من الداء العضال الذى أطبق عليه مثل شتاء مباغت ، بقى بوليكاريو ومارتا لحراسة البيت .

كان سلوك الخادمين فى البيت الرحيب جديرا بالإعجاب .

أبيا أن يكونا مثل نبات طفيلى فى حديقة لم يعد يتعهدها بستانى ، وأحجما عن أن يمدا إقامتهما إلى ما هو أبعد من غرف الخدم .

كل ما أقدما عليه أنهما وضعا أريكة مؤقتة ومنضدة إلى جانب المدفأة فى المطبخ ، ونقلا من غرفتهما المقعدين القديمين ، وسلة الخيط ، والإبر التى ترفو بها مارتا الجوارب وتغزلها ، والكيس الذى يضع فيه بوليكاريو تبغه .

كانا يستيقظان فى ساعتهما المعتادة ، ويرتبان البيت كله ، كما كانا يفعلان من قبل ، يوليان اهتمامهما إلى كل الدقائق التى تجعل ترتيب البيت ونظافته على غاية من الإتقان . وكانا يؤديان كل هذه الأعمال ، كما كانا يؤديانها من قبل ، بكل حذر حتى لاتقع جلبة توقظ سادتهما . وبعد ذلك كانت تلبس مارتا ميدعتها البيضاء منشاة العنق ، وترتدى غطاء الرأس وكان يلبس بوليكاريو زيه البنى ثم يمران بهدوء فى الأروقة الطويلة لإلقاء النظرات واللمسات الأخيرة على ترتيب البيت ، صوتهما خفيض وخطواتهما بلا جلبة ، كما لو كانا لا يدركان أن البيت المترامى الأطراف خلو لا أحد فيه غيرهما ، ويتوقعان أن يظهر سيدهما وسيدتهما عند باب غرفة النوم المغلق فى أية لحظة .

غرفة الاستقبال الصغيرة الدافئة فى الشتاء بفضل مدفأتها الجيدة ، رتبت وأغلقت فور أن رحل أصحاب البيت . الثريا المعلقة والصورة الكبيرة غطيت بالقماش . أما المصابيح والآنية فقد لفت بالورق – فى

غرفة الاستقبال الصغيرة هذه كان رب البيت وربته يقضيان أمسيات الشتاء الطويلة . وكانا فى جلستهما بجوار المدفأة الموقدة يتذكران بحسرة أسماء من مات من أولادهما ، ويتكلمان عن ابنهما الأخير الذى يتلقى علومه فى الخارج بلهفة حلوة ، وعن أصدقائهما المبجلين بمودة ، وخدمهما المخلصين بكل خير .

مضت سنة دون أن تفتح غرفة الاستقبال هذه مثل سائر الغرف ليتجدد هواؤها وتدخلها الشمس .

كانت روحاهما الساذجتان اللتان ماكانتا تخلوان من عمق تشعران بأن جو غرفة الاستقبال هذه مازال يحتفظ بالكثير من سيديهما ، ولهذا كان يجب أن يحافظا عليه .

كان بوليكاريو يقرأ الخطاب متأثراً حزيناً . كان مكتوبا بخط سيده ، وأخذ صوت بوليكاريو يكتى رويدا ، رويدا النبرة المقنعة التى كانت لصوت سيده عندما كان يوجه إليهما حديثه . وقفت الخادمة تنصت فى وقار عميق .

كان يحكى تطورات المرض الذى ألمّ بالسيد الصغير :

... " إنه الآن بخير ، لاخطَر عليه ، فقد دخل مرحلة النقاهة . لم يرد الله أن يتركنا بلا أولاد ، حمداً لله .

– حمداً لك ، يارب .

.. "لكن يجب أن نبقى هنا بعيداً عن بيتنا ، وقتا مازال طويلا ، سنة أخرى ، أو ربما أكثر من ذلك . الجو مناسب ، والأطباء أكفاء ، وإمكانات العلم وفيره . هنا ، سنحارب الموت حتى النهاية ."

– أمين ، يارب !

ثم سأل سيدهم الطيب عن صحتهما ، وعما إذا كان الوكيل يتأخر فى دفع راتبيهما وتدبير كل مايلزم لمعيشتهما ، وهو ينصح بوليكاريو أيضًا بألا يقتر على نفسه فى شىء ، فأنبذة القبو تحت أمره ، وليدخن من تبغه مايشاء .

– هذا من كرمك ، ياسيدى .

وفى ذيل الخطاب ، كتبت ربة البيت أيضًا بضع كلمات بخط يدها .

" عزيزتى مارتا عرفت مما تطالعنا به الصحف أن الشتاء عندكم هذا العام كان أشد ، لكننى أرجو أن تكون مدفأتنا فى غرفة الاستقبال الصغيرة بخير على الدوام ، وأن تبعث الدفء فى أوصالكما وبطبيعة الحال ، ستعود القطة الصغيرة التى كنت تشكين من أنها لاتستقر فى البيت ، وستنعم بالراحة إلى جوارك . إن وشاحى الأسود ذا النقاط البنفسجية يصلح لك ضعيه على كتفيك . إنه من الصوف الخالص وسيدفئك .

– ياسيدتى الحبيبة الغالية ! .

ارتبطت الفرحة لسماع الخبر الطيب عن صحة السيد الصغير ، والحزن على تأخرهم عن المجيء ، بشعور ثالث نكس الخادمان رأسيهما فى صمت وقد غمرهما إحساس بالحياء العذب الذى ينتاب الناس البسطاء عندما يوجه إليهم مديح كبير .

تمتم بوليكاريو بعد برهة طويلة :

– حقًا ! عشنا فى البيت كما لو كانت تنقصنا الثقة بالنفس ، ونخشى أن نكون قد أسرفنا فى استهلاك محتويات القبو ، وأن تكون غرف الاستقبال قد اتسخت من لمسنا مفروشاتها .

– لم نفتح القبو مرة ، ولم نلق على مابه نظرة قط .

– هلا فتحنا غرفة الاستقبال الصغيرة مثلا لنرى حالها ؟!

استعدا فوراً للعمل . شمرا عن سواعدهما ، وفتحا غرفة الاستقبال الصغيرة .

– ياه .. ياه تراكم التراب فى أرجائها بشكل مخيف !

– حمداً لله على أى حال كان من الممكن أن تسيل المياه من المدخنة إلى المدفأة ، فتسبب تلفًا جسيماً هنا !

فتحا النوافذ . حملا الطنافس إلى الخارج . نظفاها ، وكنساها ، ثم نظفاها من جديد . أزاحا الغطاء عن الثريا ، المرآة ، والصور . فضا الورق الذى لفت به الشمعدانات والآنية . ولا يذكران أنهما قد اشتغلا بهذه السرعة منذ أن بقيا وحدهما فى البيت قط وقد مضت منذ ذلك

الحين سنوات عديدة . انكبا على غرفة الاستقبال الصغيرة بالحماسة التى يقبل بها المرء على عمل تلجئه إليه ضرورة عاجلة . لم يكن كل منهما يفتح فمه بكلمة إلا ليأمر الآخر بعمل .

فرشا الطنافس ، وتبا الغرفة بعناية فائقة . وقبل أن يهبط الليل ، كانت غرفة الاستقبال الصغيرة معدة تماماً .

كما أوقدت مارتا المدفأة . ووضعت بُنًّا طازجًا وقطعًا من السكر فى علبة البن على منضدة صغيرة قديمة بالقرب من المدفأة ، حيث ألفت سيدتها أن تجهز القهوة كل ليلة لزوجها .

ملأ بوليكاريو الساعة التى كانت قد توقفت منذ اليوم الذى سافر فيه أصحاب البيت .

أصبحت غرفة الاستقبال الصغيرة جاهزة تماماً ، توهجت النار فى المدفأة . دفع بالمقعد الجلدى العميق ليزداد اقترابا بعض الشىء من المدفأة وكذلك دفع بالمنضدة الخفيضة بما عليها من تبغ رب البيت .

وقبل أن يغادرا الغرفة وقفا وقتًا يفكران ، ثم تلاقت نظراتهما .

– .. ألا يخيل إليك بدورك أن السادة سيأتون بين لحظة وأخرى ؟!

– أجل !

أغلقا الغرفة، ومضيا إلى المطبخ لتناول الطعام . نزل بوليكاريو إلى القبو وأحضر زجاجة من النبيذ .

– ياه ! ياه! عششت العناكب فى كل الأرجاء .

وقالت العجوز :

– حمداً لله على كل حال . كان يمكن أن تدخل المياه من الفتحات ، وعندئذ كنت سترى ماذا كان سيحدث هناك .

تناولا طعامهما على عجل دون أن ينبسا بكلمة . لكن مارتا لم تتعجل وضع إناء القهوة على النار، ولم تبسط الغطاء الداكن على منضدة المطبخ ، وتحضر السلة التى بها كرات الصوف وإبر الجوارب ، بل نهضت وذهبت إلى حجرتها لتغير ملابسها . فضت أيضاً الميدعة الموشاة بالدانتيلا المنشاة لتلبسها ، لكنها صرفت النظر عنها . أشعلت قنديلا ومضت إلى غرفة سيدتها . فتحت دولابا ، وأخذت الشال الأسود ذا النقاط البنفسجية ، واجتازت الباب الداخلى إلى غرفة الاستقبال الصغيرة .

كانت الغرفة مفحمة بدفء حلو ، والمدفأة مليئة بقطع الفحم الصغيرة . أضاءت مارتا مصباحين من مصابيح الثريا . وضعت إناء القهوة على المدفأة ، وتدثرت بالشال الثمين ، ثم جلست على الأريكة الركنية الخفيضة . كما تناولت الكتاب المقدس المجلد بالقطيفة القرمزية ، الذى كانت تقرأه سيدتها كل ليلة . فتحته حيث طوى على شريط تدلت منه صلبان الأولاد الصغيرة ، وأخذت تقرأ .

سمعت فجأة خطوات زاحفة .

- إنه السيد !.

وهبت واقفة !.

فتح الباب ببطء ، ودخل بوليكاريو .

شهقت شهقة عميقة ، وصاحت :

أوه الصعلوك ! .. لبس خفى سيده!.. لكنها سرعان ماجال بخاطرها خاطر وأردفت تقول : "فليعودوا بسلامة الله .. ولايهم بعد ذلك ألا يجد السيد خفا يرتديه " .

قال بوليكاريو :

- المدفأة الخالدة .

وجلس فى مقعد سيده العميق .

قالت مارتا :

- حقًا ، ليس عندنا فى البيت مدفأة أخرى مثل هذه .

وأخذت تعد القهوة ، ثم قدمتها إلى زوجها ، وعادت تجلس فى مقعد سيدتها الخفيض .

قال بوليكاريو ، وهو يأخذ بعض التبغ من على المنضدة الواطئة :

- عزيزتى ، ألا تعتقدين أنت أيضًا أن بإمكان الناس أن يزدادوا تقاربا .. أعنى أن يمدوا أيديهم إلى بعضهم ، ويحيوا فى ثقة ومحبة ؟!

دس سيجارة فى مبسمه ، وأشعل عودا من الثقاب . مضت مارتا تتطلع إليه. نفخ فى عود الثقاب وأطفاه. جذب إلى جواره منفضة ، وألقى به فيها .

تمتمت مارتا تقول :

– هذا أمر صعب التصديق !

وتساءلت :

– كيف حدث هذا ، ولم يلق بعود الثقاب على الأرض المغطاة بالطنافس ! أردف يقول وهو يرشف من قدحة رشفات خفيفة :

– يمكن للمرء أن يقول نسى البشر أنهم طريدو الله الحق القيوم. حقت عليهم لعنته بأن يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم. أجل. وهم يتصرفون كما لو كان الذى لايموت قد مات دون أن يخلف وصية ، وانقض الورثة المطرودون على ممتلكاته وخطف كل منهم ما أمكنه خطفه .

عادت مارتا تتمتم من جديد دون وعى منها وهى تنظر فى دهشة إلى زوجها الذى كان ينفض رماد سيجارته فى المنفضة :

– هذا أمر صعب التصديق .

اكتست حركاته وكل تصرفاته – جلسته فى المقعد العميق – مده لساقيه نحو المدفأة – بمسحة من الرقة والأدب تذكر بسيدهما إلى حد بعيد .

– وإنى .. لأفكر ، ياعزيزتى ، فى كل تلك المنظمات التى تعمد بدلا من أن توثق أواصر الصداقة بين الناس – تعمد إلى إيقاع الفرقة بينهم بتقسيمهم إلى شيع وطوائف ، وتحاول أن "تؤلب البعض على البعض" .

كانت العجوز ترقب زوجها باستغراب. لقد تصادف أن سمعته كثيراً يتناقش بجوار المدفأة فى المطبخ مع خدم من زملائهما عن "منظمات" و"طوائف" لكن الكلام كان يخرج من فمه الليلة مختلفًا . كان أسلوبه فى الحديث لينا هادئًا .. وكل إيماءاته وسكناته تذكر بسيدهما .

– ما أجمل حديثك الليلة ، يا عزيزى بوليكاريو .. إنك تتكلم مثل .. أكمل عبارتها قائلاً فى تواضع وهو يضع عقب سيجارته فى المنفضة ويضغط عليها بالكيفية التى كان يضغط بها سيده على سيجارته ليطفئها :

– مثل كل رجل عاقل .

خيم الصمت .

كانت مارتا تقرأ الكتاب المقدس نهض بوليكاريو ، وتمطى ، تناول مسبحة سوداء وأخذ يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهابا .

وقف لحظة إلى جوار المنضدة فى الركن. ومن خلف إناء زجاجى يغطى ببغاء محنطة أخذ مظروفا من ورق شمعى وأخرج منه قطعة مربعة من خشب الجوز منقوشة ومطلية بالألوان وبماء الذهب. مسحها فى عناية بمنديله ، ووضعها بإجلال فوق المدفأة بين باقتين من الورد المصنوع من الشمع غطيتا بإنائين زجاجيين .

عاود الجلوس فى المقعد الجلدى. وأشعل سيجارة ثانية. منذ اثنى وثلاثين عاما عندما دخل الخدمة فى هذا البيت الثرى رأى قطعة الخشب المحفورة مطوية داخل صندوق ، وسأل سيده العجوز "ما إذا كان هذا الوحش الذى نقش عليه يمسك بدرع الأسرة"؟ وأجابه سيده هذا محتمل جداً وعندما زال عنه خجله قال له : فى بيت السيد كونتى الذى كنت أشتغل عنده يضعون الوحش الممسك بدرع الأسرة فوق المدفأة ، وهو منقوش أيضًا بأعلى الباب الخارجى ، وعلى أزرار الخدم . وعلى الملاعق والأشواك .." وقال له سيده العجوز" هاهو درع عزتى .. أحتفظ به فى قلبى وسترى أن حبه سينحفر رويدا رويدا فى قلبك أيضاً!" وأشار إلى ابنه الذى كان يصعد الدرجات مع ولديه الأولين .

كفت مارتا عن القراءة. ظلت ممسكة بالكتاب المقدس مغلقًا وراحت تتأمل فى حزن الصلبان الستة المدلاة من طرف الشريط .

استدار بوليكاريو ورآها . خطر له خاطر .

– إنها السيدة بذاتها! تلبس شالها ، وتجلس فى مكانها .. بل إن كيفية جلوسها .. ونظراتها! .. كأننى أرى سيدتى فى كامل عزها وأبهتها !.. ألا تقولين شيئًا ياعزيزتى ؟!

أجابت بحزن عميق :

– ياصديقى ، أفكر فى السنين التى كان البيت فيها عامراً .. عامراً بالأولاد! أما الآن ، فقبضتى تمتلئ بصلبانهم فحسب !..

قال بوليكاريو لنفسه :

- إنها السيدة بذاتها !

وراقبها وهى تبسط الصلبان الصغيرة فى راحة يدها ، وتنطق بأسماء أولاد سيدتها الخمسة الذين ماتوا :

- كأننى أسمع سيدتى وأبصرها أمامى !

طوت مارتا الصليب السادس فى قبضتها بقوة. وقبلته برفق. ونطقت فى اهتمام وحنان باسم آخر أولاد سيدتها الموجود فى الغربة .

- كأننى أرى سيدتى بلحمها ودمها .

وتحدثا بحب عن سادتهما ودماثة أخلاقهم .

تذكرا أيضاً خادمين قديمين آخرين كانا " تحت إمرتهم " وأشارا إليهما بالخير .

- كأننى أرى وأسمع سيدى ذاته !

خيم بعد ذلك صمت مديد .

فتح الباب بهدوء ، ودخلت القطة الصغيرة ، التى لم تعد تأتى إلى البيت بعد أن سافر السادة. تقدمت بخطوات وجلة إلى منتصف غرفة الاستقبال .. وقفت هنيهة ... وفجأة تعالى مواؤها . ثم مضت رأسا إلى العجوز وصعدت إلى حجرها. وجدت مكانها سريعا ، ومضت تصدر من حلقها ذلك الصوت الذى ينم عن الارتياح والخنوع .

دقت الساعة على المدفأة معلنة الوقت ، كما لو لم يكن قد توقفت عاما بأسره .

– ألم يحن وقت النوم، يازوجى ؟

– بلى ... ياعزيزتى .

نهضا واقفين .

بقى شال السيدة على الأريكة. طوته الخادمة ووضعته هناك. رفع الخادم مسبحة سيده من على السجادة .

انصرفت القطة الصغيرة لحال سبيلها .

رتبا غرفة الاستقبال الصغيرة . وأغلقا المدفأة .

– أيتها العجوزة الصغيرة .. ألا يخيل إليك أننا دخلنا هنا توا ، حيث كان سيدى وسيدتى يقضيان بعض الوقت قبل أن يذهبا ليناما ، وذلك لكى نغلق المدفأة ونطفئ النور؟

– أجل .. يكاد يخيل إلى شىء من هذا القبيل .

والتفتت إلى زر الجرس الكهربائى القريب من الأريكة التى فى الركن. رأت خيوط العنكبوت تغطيه ! أخرجت منديلها ومسحته .

– فليعودوا بسلامة الله ، حتى يتمتعوا ببيتهم العامر !

ذهبا إلى غرفتهما. وأخذا يتهيئان للنوم صامتين غارقين فى الأفكار.

وسقط خطاب السيد من جيب قميص بوليكاريو ، انحنى يلتقطه فلاحظ أن بالصفحة الخلفية ، بعد تعقيب سيدتهما ، بضعة سطور أخرى بخط سيدهما الصغير .

.. عجوزاى العزيزان ، صحتى تحسنت كثيراً. لن أموت. سأعود إلى بيتنا ! إننى أنكركما دائمًا ، وأحبكما . أنتما ماثلان فى ذكريات طفولتى ، وترتبطان بانطباعى الأخير عن بيتنا .

عند رحيلنا ، ألقيت من داخل العربة نظرة يائسة ، معتقدا أننى كنت أرى فناءنا ، فرأيت عجوزى الطيب بوليكاريو يحمل معطفا أسود لوالدتى مغزولا بخيوط غليظة ، وخيل إلى كما لو كان يحمل إناء أسود مليئًا بكل دموع أسرتنا القديمة والجديدة. كما رأيت عجوزى الطيبة مارتا تتبع والدتى وتبكى على الورود الأخيرة الشاحبة التى طلبت منها أن تقطفها لى ..".

الكلب الغريب

نيقوس نيقولائيدس

عندما دب الضعف إلى عينى الأب ، إلى الحد الذى لم يعد بإمكانه أن يميز بين العنب الرزاقى والعنب السبتى، بين التينة السوداء والحمراء انتقل عبء التعهد بالكرم إلى عاتق الابن .

ولم يكن تعهد الكرم مقصوراً على فلاحته ، وجعله بستانا خصبا مرموقا لجودة ثماره ، كما كان حاله بين يدى جده الأكبر بل شمل تخليصه من الدين أيضاً والحق يقال إن أباه قد تلقى الكرم من جده فى حالة متدهورة ، لكنه بدلاً من أن يبذل جهده ليصلح من شأنه ، استبد به شغف بأشجار التين ، ومضى فى اهتمامه بزراعة التين على اختلاف أنواعه مهملاً بذلك زراعة العنب. وكان ينبغى أن يمضى بالقليل من النبيذ الذى ينتجه الكرم المتدهور ليبيعه فى الأسواق المألوفة التى كان يبيعه فيها أبوه نقداً غير أنه كان يذهب إلى حيث يصل إلى علمه أن ثمة فصائل جيدة من التين. وكان يدفع غالياً فى سبيل الحصول على شتلات ولواقح ، وانصرف يغرس أشجار التين حينما يجد موضعاً حول

الجدار . ولم يكن الضـرر كبيراً وعندما تكاتفت تلك الأشجار وضيقت الخناق على عرائش الكرم كان كلما عثر على صنف جديد يزرعه كيفما اتفق له حتى ازدادت تلك الأشجار وتغشت الكرم بظلها .

وأصبح كرم سيمون العجوز مشهوراً بمختلف شجر التين الذى احـتـفى بهـا، الأثينى الملوكى اللذيذ ، التـارنـافـوتى الأسـود الكبـيـر. الأسـبـتسـيوتـى الأبيض المعـسـول، الكلامـاتى والكيـمـيـاكى والأندريتى والأرتينـى. تين كبيـر الحجـم وآخـر صـغـير ، أسـود أو أبيض . أحـمـر أو غامق. مستدير أو بيضـاوى ، بعضـه يؤكل جافًا والبعض يؤكل طرياً أكثر من خمسين صنفًا من أشجار التين ! .

ولكن الريع الذى كانت تدره كان ضـئيلاً لأن أغلب أشـجـار التين ، على الرغم من عناية سيمون العـجوز لم تكن تؤتى ثمرا كافيًا . ولم يعد كرم أبيه الهرم الأعجف يعطى شيئًا يذكر بعد أهماله واختناقه فى غمرة أشجار التين. وعندما رهن العجوز سيمون هذا الكرم لتدبير نفقات الحج إلى بيت المقدس ، فإن عرائشـه بدت كأنهـا قد توقفت عن الخـصـب فى غمرة يأسها .

وعندمـا أخـذ الابن على عـاتقـه تبـعـات الدين ورعـاية الكرم لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئًا ، كان ينقصه المال ، ولكى ينصلح حال الكرم ويدر ريعا كان يتطلب أيادٍ تَجْهَدَ فيه .

وأطبق العـمى على الأب وازداد الدين يومـا بعـد يوم ، فـإن أتعـاب الأطباء ودعيات الطب فى نهاية السنوات الأخيرة العجاف التى لم تدر

حتى ما يسد الفوائد - كل هذا جعل الدين يزداد ويستغرق كرم سيمون العجوز بأشجار التين الذائعة الصيت .

وكان الابن وزوجته يتنحيان جانبا ويتحدثان عن هذه المشكلة حديثا هامسا ، وقد انتهيا إلى قرار لم يريا سبيلا إلى غيره ، ألا وهو أن يبيعا الكرم وبما يتبقى يستأجران عمالا ويشاركانهما فى زراعة حقل كان قد انتقل إليهما ميراثا عن بعض أقارب الزوجة .

ولقد كان المشترون العامرة جيوبهم بالمال المحبون للظهور كثيرين فى البلدة وعلى استعداد لشراء الكرم الذائع الصيت على أن الابن كلم واحدا من البلدة المجاورة ، رجلا من الأعيان ذوى الثراء، شبعان العين سمح النفس واليد ، لأن الابن فكر أنه مع بائع من هذا القبيل يمكن أن تظل البيعة خافية على الضرير وجرى الاتفاق سرا وذهبا إلى البندر للقيام بالإجراءات القانونية .. وانتقل كرم سيمون العجوز بأشجار تينه الذائعة الصيت إلى أملاك المشترى وحوزته .

وبعد قداس الأحد أعلن القس الخبر من الهيكل وأوصى الحاضرين "باسم المسيح والعذراء" أن يظل الأمر سراً ، وبعد الظهر تداول القرويون الأمر فى السكة ثم فى المقهى ليلا ووعد الجميع بكتمانه عن الضرير .

ومنذ اليوم الأول ربض كلب المشترى فى الملك الجديد ، أما فى بيت الضرير فقد بدأت الحياة الغريبة .

كانت النيات طيبة .. لكن إلى متى تدوم المغالطة ؟

* * *

وقد انتُحى بالحفيدين جانبا وكُلما فى الأمر وكُلفا بما يجب عليهما نحوه وقام الابن والزوجة وقد حملت أصغر الأحفاد بين أحضانها بتلقينهما الكذب. وإذ كان الصغيران فى السن التى يعد فيها الكذب ميلا طبيعيا فقد طمأنا نويهما من ناحيتهما وكانا يبتدعان من فورهما ردا ماكرا على كل سؤال عنّ للجد أن يوجهه إليهما. ولكن الضحك على الضرير لم يكن ، سواء بالنسبة للكبار أو الصغار ، على تلك الدرجة من السهولة وقد ثبت ذلك من الليلة الأولى .

وعندما دخل الابن البيت ألقى تحية المساء بتثاقل ، وأدار الضرير نظرته المنطفئة فى الجميع وسأل باهتمام لم ينقطع من تلك اللحظة ، ماذا بكم ؟ .. ماذا جرى ؟.

وقد أثارهم جميعا هذا السؤال لأنهم ماكانوا يتوقعون أن الصراع سيبدأ بهذه السرعة .

– لماذا تصمتون؟! منذ وقت طويل وأنا أريد أن أسأل زوجة ابنى .. والأولاد.. ماذا بكم ؟ ماذا جرى يابنى ؟ !

وبغير انتظار جواب قال :

– لايمكنكم أن تخفوا عنى .. قولوا لى .

– الله !. ماذا يمكن أنْ يكون ؟

وأضافت المرأة بدورها قائلة على عجل :

– ماذا يمكن أن يحدث لنا ؟!

ولكن النبرة المرحة التى جاهدت لكى تدخلها على تصنعها للعجب لم تجد نفعا. وأطرقوا واجمين ، لأن العينين الضريرتين تسمرتا عليهم كما لو كان باستطاعتهما أن تكتشفا آثار ذلك القلق الذى يحاولون إخفاءه فى تلك اللحظة !

وقال الولدان :

– لا شىء ! ياجدى ! لا شىء !

ثم سارعا إلى القول أيضاً فى مكر :

– ياجدى ! لقد تشاجرا ..

– تشاجرا منذ وقت مبكر وهذا هو السبب!

وتنهد الابن وزوجته بارتياح ! ونظرا إلى ولديهما بامتنان ولكن بعد هنيهة هز الضرير رأسه وتمتم قائلا :

– كذابون ! .. كذابون ! .. أنتم كذابون .. أنتم كذابون .

ورأى الابن وزوجته أن من الواجب أن يناصرا ولديهما مؤكدين الكذبة .. فأخذا يسردان بحماسة قصتهما ، قصة شجار مبنى على سبب زائف ويتشاكيان ويتشاحنان ، ولكن الضرير فى نهاية هذه المهزلة البشعة عاد يتمتم قائلا: كذابون ! كذابون ..

وفجأة رفع صوته ملوحا بإصبعه وقال مؤكداً :

– لن تضحكوا على لن تخفيكم عنى غشاوة عينى !

وصعدت الدماء إلى وجهه واحمرت عيناه الزرقاوان وزادت حدقتاهما اتساعا وتسمرتا عليهم .

ولم يقو الابن على احتمال هذه النظرة العمياء التى اخترقت أعماقه وكاد يخر راكعا على ركبتيه ويصرخ : أجل ! يا أبى! معذرة ! اغفر لى .. اغفر لى وانخرط الحفيد الأكبر ، فى بكاء شديد .

واشتدت ثورة الضرير وندت منه صيحات عالية : آه ! آه !

ولكن الحفيد الثانى جرى بغتة إلى جواره وقال له :

– جدى .. سأقول لك .. إن يانجو ارتكب غلطة .. غلطة كبيرة .. فعلة شنعاء .. أتسمعه يبكى ؟

وكان ذلك مفاجأة ! وأصيب الأب بما يشبه الذهول ، وانخرطت الأم فى نحيب خافت وأمعن يانجو فى بكاء أشد كما لو كانوا يشدونه من شعره وأحنى الضرير رأسه .

– أوه .. أوه غلطة .. غلطة كبيرة .. فعلة شنعاء ، حفيدى الأكبر هذا هو السبب إذن ؟ هذا هو السبب إذن ؟ بودى أن أكون قد أخطأت .. اعتقدت أن السبب هو الدين .. غلطتى أنا .

ومن العينين الضريرتين انحدرت دمعتان .. !

وخطا بضع خطوات مقتربا من الولد على هدى من صوت بكائه وربت على رأسه قائلاً :

– صه .. صه .. ارتكبت غلطة إذن !

– أجل ! أجل .. ولن أتحرى لأعرف .. اعتقدت وقتًا طويلاً أن السبب كان غلطتى أنا .. لقد اقترضت نقودا بفائدة ...استدنت .. ثم أطبق علىّ بعد ذلك المرض .

– أبى !

– أبت !

– أيها الجد !

– جدى .

– حسن ! حسن ! لن أحدثكم ولا عن غلطتى أنا .

ومضى متحسسا وجلس فى ركنه مطرق الرأس كما لو كان يصغى إلى حديث يدور فى أعماقه .

– لاتفكر ، يا أبى ، فى الدين .

– حسن ، يابنى ! أعرف ! أخذت العبء كله على عاتقك ، ولا تريدنى أن أكلمك عنه .. أنا واثق – ستسدد ما على الكرم من دين وترد إليه الحياة من جديد أنا بدورى تلقيته من أبى مدينا وفى حالة متدهورة .

وأردف الابن قائلاً :

– لاتفكر يا أبى ، فى الكرم .

ولكنه عض شفته نادما فى اللحظة ذاتها التى نطق فيها بهذا القول لأنه سمع صوت ضميره يجلجل بين ثنايا كلامه .

ورمقته الزوجة بنظرة ذات مغزى وجرت لتضع ميخو الطفل على ركبتى الضرير فى اللحظة التى سأل فيها قائلاً :

– لماذا ؟ لماذا ؟:

وقد عاد يحدق بعينيه .

ومد ميخو يديه الصغيرتين جانبا لحيته وقد تهته لأول مرة بكلمة "ج ج جدى" وضحك الضرير ، وضحك الجميع وانفرجت أسارير الوجوه المقطبة ، ولكن ذلك لم يستغرق إلا دقيقة لأن الضرير عاود سؤاله بالانزعاج ذاته ، على أن الابن أمكنه فى هذه الأثناء أن يجد رداً .

– أقول لنفكر فى أولادنا لا فى الكرم .

* * *

ولبضعة أيام كانت كلمة ميخو الجديدة تتردد فى كل لحظة فتملأ الجد بالسعادة وتخفف من أحزان الأب والأم والأخوين اللذين شرعا منذ الليلة المفجعة يحسان ويفكران كالرجال وكان كل منهم يخشى البقاء وحده مع الضرير ، ويسعى أن يكون دائما فى حضرة الآخرين حتى يكونوا جميعا على أهبة الاستعداد للدفاع عن سرهم على أفضل وجه .

وكم من مرة عندما رأت الأم شفتى الضرير تختلجان، ظنت أنهما ستنفرجان سائلتين عن الكرم .. عن أشجار التين – أشجار التين التى مضى المالك الجديد فى اقتلاعها الواحدة تلو الأخرى – فتبادر إلى هز

ميخو لتوقظه من حضنها ثم بدأوا يصلحون حقل العنب الذى ورثته الزوجة ويدخل فى روع الضرير أن العمل كان يدور فى كرم أجداده. ومضى العمل قدما وروضت الأرض المتوحشة يوما بعد يوم ، وفى الليل عند العودة من حقل العنب الجديد وقد أفعمت القلوب بالإحساس العذب الذى يحسه الأبوان المسنان اللذان عندما يفقدان فتاهما اليافع يديران أنظارهما إلى صغيرهما الأخير يحدوهما الأمل - عند العودة من حقل العنب الجديد كانوا يحاولون جاهدين إعطاء ردود مسكنة لقلق الضرير ولغوه ، لأسئلته ونصائحه .

بالطبع لم يكن الضرير فى هذا الوقت أكثر اهتماما مما كان عليه فى الأعوام الأخرى. فمنذ أن أصيبت عيناه ولزم الدار لم يكف يوما عن أن يسأل ويسدى النصح : " خذوا بالكم من أشجار التين مثل عيونكم" .. وكان يعرف المواسم والتواريخ التى يبدأ فيها كل عمل. وكان ينصح أو يسأل عسى أن يكونوا قد نسوا هذا الشيء أو ذاك : "الوقت شتاء .. احفروا الأرض من حولها وضعوا لها السماد".. "لو رأيتم على إحداها عفنا أبيض .. اقتلعوها من جذورها واحرقوها .. إنه مرض وقد يعدى الأخريات .. طهروها من الشوائب التى تنبت حول الجذور ومن الأغصان التى تنمو دون أن تعطى ثمارا" .. "أقبل أبريل .. قلبوا الأرض من حولها ".. "التى أصيبت بالمرض عالجوها .. لاتضعوا بترولا كثيراً ، نقط رغوة الصابون يجب أن تكوّن كثة وادعكوا بقطعة من الصوف الساق والأغصان والفروع " .. ولم يكن ينسى عرائش الكرم فى نصائحه :" إنها فى حاجة إلى تعهدها بالرعاية طوال العام وبالتراب ..

قد صرفنى الشغف بأشجار التين عن الاهتمام بها .. أما أنتم فلاتهملوها ". وفى أول الأمر كان الابن وزوجته يجيبان على كل هذا بحماسة قائلين :" هذا فى متناول أيدينا وسنقوم به". ولكن قلقهما أضحى الآن أمرا لايطاق .. كان يفتك بهما فتكا .

وكان الضرير يسألهم كل ليلة ماذا فعلوا ، وكيف تبدو أشجار التين والكرم . ولكى يجيبوا إجابات صحيحة ، كانوا عند عودتهم من حقل العنب الجديد كل ليلة يقومون بجولة أخرى مارين بكرم سيمون العجوز. وكانوا يتلكأون فى الطريق ويطلون من على السور ملقين نظرات ملؤها الألم على ما بذله أجراء المشترى فى الأرض من جهد وكانت نظراتهم تضحى شريرة على الرغم منهم. وكان كلب المالك الجديد يلوى ذنبه بين فخذيه ويرمقهم من طرفى عينيه .

ومر خريف وشتاء وربيع .

وزقزق الجدجد .

وخرج الضرير إلى الشرفة ووقف يستنشق الهواء بقوة فى مواجهة سفح الجبل الذى يشبه ساقى ملكة ضخمة تمددت لتجف من البلل فى الشمس وفى الوسط كان الكرم الذى احتفظ باسمه على الدوام. وقد تحرر الآن من أشجار التين الكثيرة وتخفف من كثافتها وازدحامها فأخذ يسترد عافيته. وبدا مثل قطعة من التطريز الغزير تحلى المئزرة الملكية. ومن حوله حقول الكرم الأخرى مثل دانتيلا حافلة بالخروم ، وفى أحد الأركان حقل الكرم الجديد الذى يزرعه الابن فى أرض الأنسباء كنجم

طرز بغرز متباعدة واهية ونظر الابن والزوجة والحفيدان إلى الضرير بعدم ارتياح لا مثيل له .

– كما لو كان يتوجس شرا ..

– كما لو كان على وشك أن يكتشف أمرا .

– ميخو .. ميخو .. تعالى لجدك يريدك .

قال الضرير بعد صمت وبون أن يحول نظرته عن الكرم :

– أرى .. منذ وقت قريب لاتفارقنى صورة كرمى .

– ميخو ميخو أبى ، ناد ميخو ، إنه يطل من حافة السطح فى وضع خطر ، فى وضع خطر .

وصاح الضرير :

– ميخو . تعال .

وجرى ميخو الذى كانت قد اشتدت ساقاه الصغيرتان وانفك لسانه الغرير من عقاله فى الآونة الأخيرة – جرى إلى جواره وربت الضرير على شعره وعاد يقول :

– أجل .. أقول لكم منذ بضعة أيام أصبحت أرى كرمى .. وأضاف يقول متنهداً :

– فى حلمى ! .

وقال له الابن ليثبط من إيمانه بالأحلام :

– آه ! يا أبى ! ما الذى يمكنك أن تراه فى حلمك ؟

ولكن الضرير أخذ القول على محمل آخر وقطب جبينه منكمشا .

وبعد قليل غمغم قائلا وقد داخل صوته النحيب :

– أجل .. إنه لأمر مخيف .. ولكن أين تتاح لى الرؤية ، وأنا ضرير ، إلا فى الحلم وفى مخيلتى ! ..

ورفع صوته فجأة ، وأدار جسمه ، وانفرجت أساريره ، وأضحى محياه فى مواجهة كرمه – نحو بستان سيمون العجوز "وأخذ يتنسم الهواء كجواد تائه فى الظلام" وحدقت عيناه الضريرتان كأنهما تريان بعيداً جداً – بعيداً جداً .

وسأل الضرير بصوت منطفئ :

– ألست قبالة كرمى ؟ وتمتم قائلا دون أن ينتظر إجابة : عجبا .. كأنى لم أكن تلقاء كرمى .. وصاح الاحفاد الثلاثة بصوت واحد :

– بل أنت ، ياجدى ! أنت قبالته : لكن الضرير قد أدار نظرته إليهم فجعلهم يصعقون . ثم وجد يانجو ، الحفيد الأكبر ، قليلا من الشجاعة وعاد يقول :

– إننا لانكذب عليك .. أنت قبالة كرمنا .. لكنك تنحرف عنه .. هكذا الآن أنت قبالة الكرم .. أقسم لك ! .

وقال الضرير :

– كلا ! .. كلا! .. فى هذا الاتجاه أرض أنسبائنا .. واستدار وقد ملاه الغضب نحو ابنه وزوجته .

– ألم يكذب على هذا الولد السيئ ! ؟

ووقف الأب الأم وقد خيم عليهما الصمت :

– جدى ، ها هو كرمك ! .. جدى ، أنا سأدير رأسك نحو كرمك .. وتسلق الصغير الكرسى ومد يديه وأدار رأس الضرير نحو "كرم سيمون العجوز" وسأل الضرير بعد هنيهة :

– هل اجتثثت كثيراً من أشجار التين ، يابنى ؟

وبدا صوته للابن كأنه متأكد مما يقوله ويجأر بالشكوى .

– أبتاه ! .

وعاد الضرير يسأل وقد امتلأ غضبا من جراء الإجابة التى كان متأكدا أنه سيتلقاها .

– أكثرها ؟!

– أبتاه !.

– كلها ؟.

– أبى !.

وكان الابن على وشك أن يخر عند قدميه معترفا ، مستعفيا من الصراع ، لكن ميخو تعلق بلحية الضرير وصاح :

– جدى هناك شجيرات تين كثيرة فى كرمك كثيرة .. ولكن هناك أيضاً كلب .. كلب ينبح .

* * *

ومرت بضعة أسابيع وخبا الصيف ، وبدأت حبات العنب تتلألأ على العناقيد ،

وقال الضرير فجأة ذات ليلة :

– غدا ، سأذهب معكم إلى الكرم .. وضايق هذا الجميع . وأوقعهم فى ارتباك فلم يمكنهم أن يجيبوا إلا بكلام قليل فيه همهمة وحيرة . ماعدا ميخو الذى هتف فرحا وصفق بيديه .

– أجل ، ياجدى .. أجل ، يا جدى .

واستطرد الضرير قائلاً :

– خذوا غطاء وافرشوه لى فى الظل .

– أوه . يا أبت .. ما الذى يجعلك تريد ذلك وأنت رجل ضرير .

وقال الحفيد الأول :

– انتظر قليلا حتى ينضج العنب .. والتين .. وجرى الحفيد الثانى وأطبق على فم الصغير الذى كان يصيح وهو يقفز طربا :

– أجل يا جدى .. أجل يا جدى نذهب لنضرب الكلب .

– وقطب الضرير حاجبيه ، وخيمت على وجهه غمامة ، وخرج احتجاجه من فمه هادرا :

– لماذا لا تريدوننى أن أجىء إلى كرمى ؟ .. إيه !؟ لماذا ؟ .

ووجد الابن من الأهون عليه أن ينفجر وقد أسقط فى يده ولم يعثر لنفسه على دفاع أو حجة يسند بها رفضه :

– لكن .. يا أبت ! ... هل أنت بعقلك ؟! .. تريد ، وأنت رجل ضرير ، أن تتجول فى الجبل ! ... آه ! ... والله ! .... إنك لاتطاق .. آه ! .

وتسمر الضرير أمام ابنه صامتا لكن نظرته العمياء المتهمة نزلت عليه كالصاعقة ، ولم يكن فى طاقة هذا الأخير بعد ذلك إلا أن يمضى ممعنا – لم يكن ثمة مخرج آخر .

– آه ! ... والله ... لقد اتعبتنا بكرمك ! .. فلتحرقه النيران ! .. تسلمته متدهورا .. مثقلا بالدين .

وأومات إليه الزوجة : " اسكت .. أشفق عليه .. لاتقل له .. ستقضى عليه ... وخرج الزوج وقد صفق الباب الخارجى وراءه فى عنف .

وانكمش الضرير ومضى يجلس فى ركنه منزوياً ، وذهب ميخو إلى جواره ، وشب على أطراف قدميه ، ورفع قامته ، واشرأب عنقه ، ومط شفتيه وقال له بصوت منغم ملاطفا كما يلاطفون الأطفال الذين يحتاجون إلى مواساة :

– هون عليك ... هون عليك ... ياجدى ... ياجدى الصغير ، إذا شئت سآخذك أنا من يدك وأذهب بك إلى كرمك .

وتحركت ابتسامة مريرة فى وجه الضرير المبتئس المقطب من فرط
ك والخجل . وانتظر فى صمت عودة ابنه ساعات طويلة ، لكن زوجة
ن كانت ترسل كل قليل إلى المقهى وتوصيه ألا يأتى بعد ، لأن أباه
ال يجلس فى انتظاره وعندما انتصف الليل وأصبحت عودته إلى بيته
ينة ، دخل حزينا يسب ويلعن "نزق الشيوخ" حتى لايعطى الضرير
يتكلم فيه وحتى يلزمه حده إلى الأبد .

* * *

وأعقب ذلك أيام مليئة بالأسى الصامت .

وقبع الكبار والصغار فى قوقعة من الإصرار والعناد للذود
سرهم .

ولم يعد الضرير يفتح فمه ليسألهم أو ليسدى النصح لهم فى شأن
ـه وشجرات تينه بل ولم يعد يتكلم عن أى شىء آخر قط وكان الشك
ـ فى أعماقه ولكنه لم يعد يستدرجهم فى الحديث ولايسترق السمع
ـ الباب كان يفكر فحسب .. ويفكر .

وكان الصغار والكبار يحسون بالعملية المروعة التى تدور فى فكره
عات صمته الطويلة المظلمة ولكنهم ماكانوا يجسرون على أن يقولون
"فيم تفكر يا أبتاه ؟" "فيم تفكر ياجداه؟" ولا أن يقدموا على إنقاذه
هة من لحظاته الحزينة لأنهم كانا يخشون أن يبدأ الصراع من جديد .
يعد ميخو الطفل الذى كان يدخل السلوى على قلبه فى أول الأمر

يقترب منه الآن ، لأن أخويه كانا يخيفانه بأن الكلب سيأكل الجد لو أخذه إلى الكرم .

وذات ليلة سمعوه يتمتم :

– ... أجل .! .. يختبئون من ضرير بوسعه أن يقول لهم ماهى الساعة فى الليل والنهار ويدرك متى يميل القمر والشمس إلى الرحيل فى غمار النجوم أو السحب !

وأومأ الابن قائلاً :

– صه ! .. لايتكلمن أحد .

غرق الضرير فى صمته من جديد .

ومنذ أيام قليلة أضحى الضرير متأكدا من أن كرمه قد بيع. ولم يكن يجرؤ على الحديث عن هذا الأمر لأنه كان يحس بأنه مذنب وخشى أن يجابه ابنه . كان يشفق على ابنه وعلى نفسه. ولم يكن يتكلم عن لوعته لكنه كان يريد تعزية .

– أحس الموت فى أعماقى ! .. أحس الموت فى أعماقى ! .. يا أولادى ! .. تحدثوا إلى ... أدخلوا الدفء على قلبى ! .

وقالت له زوجة ابنه :

– لاتمعن فى تعذيبنا .

– أنا فى غاية من الضيق .. يا أبى ! .. إلى الحد الذى لو أمسكت بأنفى ... لطلعت روحى .

– حسن ، يا بنى ! .. أعرف .. أنا لا أسـألك عن شـىء ... فقط أطلب منك عزاء .

– عندى عنب زرعته حديثا فى كرم أنسبائى .. وأتطلع إليه برجاء ... لم يعد علينا دين .. فلنقل .. إذن ... الحمد لك يارب .

وانعكس ما حدث في أعماق الضرير بكل جلاء على وجهه حتى إن الابن جزع وعدل مرة أخرى عن قراره :

– ثم ... كرمك يسير على ما يرام فلا تدع الهواجس تداخلك .

وحدث فى الوجه التعس تغير كما لو كان يستجدى الكذب ، ودفعت زوجة الابن ميخو إلى أحضان الضرير .

– قل لجـدك إن كـرمـه هو أحـسن بسـتـان فى القـرية ... قل له إنه مازال مليئًا بأشجار التين وألا يدع الهواجس تداخل عقله .

– أجل ، يا جدى الصغير ... ولكن هناك أيضًا كلب لا يدعنا ندخل ... أو .... وسارع الولد الثاني إلى القول :

– بالطبع لايدعك .. لأنك تقطف العنب الذى لم ينضج .. أليس هذا هو السبب ؟!.

وأدرك الطفل أنه كان من الضرورى أن يقول "نعم" ، وأطرق رأسه وقال كذبته الأولى ، بغير براعة كبيرة ، لكن الضرير تقبلها لأنه أصبح الآن يطلب الكذب ليجد فيه عزاء .

* * *

ومضت بضعة أيام أخرى .

ووصل الضـرير إلى درجة من الانهيار حتى أن لوعته على الكرم استبدت بفكره . كيف سينجح أولاده فى أن يواصلوا الكتمان والاعتقاد بأنه مـازال مـخدوعـا ، عندمـا سـينضج العنب والتين ولن تـأتى السـلال مليئة إلى البيت ولن يكون ثمة قطاف ؟! وذات ليلة غمر الضرير إحساس غريب مبهم جعله يعتقد أنه لو دخل يتمشى فى كرمه ساعة يكون المشترى متغيبا عنه فإن ذلك سيلهيه عن الحقيقة إلى الحد الذى يمده بالقدرة على أن يتـمـاسك زمنـا آخر من الوقت قبل أن يسـتـسلم للوعتـه من جـديد !! وكـان اليـوم التـالى يوم أحـد وفكر فى أن بإمـكانه والجـمـيع بالكنيـسـة والسكك وبسـاتين الكرم خـالية أن يوقظ مـيخو وأن يذكره بوعده . ووجـد الساعة الملائمة وكلمه غير أن الطفل وقد كان أخواه قد ملآه رعبا – من أن الكلب سيأكل الجد – نكص عن وعده وانخرط فى البكاء .

واعتـزم الضـرير أن يذهـب وحـده متـخبطا .. ومـا أن أدرك أن أهل الدار قد راحوا فى النوم خرج إلى الفناء ... خرج إلى الطريق .

ولم يلق عنـاء فى تلمس الطريق على الرغم من أنه لم يقطعـه منذ أربع سنوات وكـانت السـيـول فى أربعـة شتـاءات قـد أفسـدت الطرقـات ودحرجت الحـجارة فى الأزقـة ولكن الإحسـاس الذى دفعـه إلى الذهاب للكرم المباع كان قد استحوذ عليه .

وعندما نبح الكلب الغريب أول نباحه سقط الضرير ميتا .



ولاية فرجينيا

إيليا فينيزيس

كانت حوائط الكوخ جرداء . نكست المرأة رأسها . ثم قالت للأخرى المطرقة إلى الأرض :

– ليس ثمة مايمكن عمله ؟ ألا يمكن تأجيل السفر ، إذن ؟ .

وأجابت الأخرى :

– الآن ؟ الآن ، وقد جاء الفجر ، وحان رحيلى ؟

– لاجدوى إذن ؟ ليس ثمة مايمكن عمله ؟

– أقول ، لاجدوى . لاجدوى .

كان الليل يلفهما – يلف جسديهما العجوزين ، كما يلف الجدران حولهما . ومن تحتهما وعلى بُعد بضعة أمطار تعالى هدير البحر. كان الهدير يترامى على الشاطئ ، على الأكواخ الفقيرة فى قرية الصيادين الصغيرة. الريح قوية ، وسحابة الرمل المنبثقة من الأرض الكليلة مثل ضباب معتم تغلف الأكواخ ، وتلف أشجار الكافور الباسقة. كل شىء

فى الليل مبهم كما لو كان يسبح فى محيط قدرى ، المحيط الذى كل ما فيه محدد ومحتوم .

انزوت إحدى المرأتين وانطوت على نفسها وحذت الأخرى حذوها . كانتا من الشرق ، وهذه الأكواخ هنا قرية للاجئين من «فوكيس». كانت المرأة الثانية «السيدة ستاماتولا» ستسافر صبيحة اليوم التالى فى رحلتها البعيدة عبر المحيط ، فأخذت تسترجع أمام ناظريها من جديد كل الذكريات واحدة تلو الأخرى. منذ ثلاثين عامًا وصلت مع ابنتها وقومها إلى هذه البقعة من شاطئ «أتيكى» مطرودين من وطنهم .

وفى العام ذاته جاء من بلاد ماوراء المحيط – من فرجينيا إحدى ولايات العالم الجديد – رجل ذو سلسلة ذهبية ، وأسنان ذهبية ، طلب الابنة زوجة له ، وأخذها ، وغابا وراء المحيط ، ثم أخذت تفد من وقت إلى آخر رسائل عبر المحيط ، مكاتيب من البنية ، جالبة إلى الكوخ المعتم فى أتيكى إحساسا سحريا ، وأطيافا من الأساطير. كانت الرسائل كلها تنتهى بالكلمات الآتية : «أماه ، ستأتين إلى هنا ، إلى ولاية فرجينيا» .

فرجينيا ،فرجينيا. ترى ماذا يكون هذا الاسم الغريب ؟ كان ثمة اسم آخر سحرى، رؤيا أخرى تداعب خيالها، وطنها الضائع كان اسمه «فوكيس» وهو ما كان يتردد على لسانها. وهو ما كانت تردده أيضًا نسوة الأكواخ كلهن عندما كن ينزلن للجلوس على الشاطئ فى المساء ويتبادلن الذكريات ، وتحمل الأمواج خفقات قلوبهن فى رحلة بعيدة .

ترى ماذا تكون فرجينيا هذه ؟ فوكيس ، فرجينيا ، أتيكى. أين يستقر المقام في النهاية بالمخلوق المسكين الذى اقتلعت جذوره من أرضها ؟ كلما مرت السنون كانت اللاجئات الأخريات يزددن رسوخا فى تربة أتيكى. كن يعملن على أن تتوطد وشائجهن بتلك الأرض. ينجبن عليها أولادا جددا ، ويدفن فيها موتاهن. وهكذا أخذن يتأقلمن مع الأرض الجديدة ، ماعدا سيدة الأكواخ «السيدة ستاماتولا» كل شىء غير مؤكد بالنسبة لها. فوكيس التى مضت تبتعد وتضحى حلما. أرض أتيكى المحيطة بها والتى سوف تغادرها. فرجينيا إلى حيث الصوت يدعوها. وكان الصوت يهتف بلا انقطاع .

«اطمئنى يا أماه ، إننا نواصل الإجراءات اللازمة لإحضارك ، فى ولاية فرجينيا . كل ما هناك أن الأمر عسير . جمهور غفير يسعى للمجىء إلى هنا ، مما يزيد من صعوبة السفر. حجزنا مكانا. وعندما سيحين دورنا ستأتين » .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت الكوارث والاحتلال والدمار. وتغير كل شىء . فرجينيا ، فوكيس ، أتيكى. كلها تغيرت فى محيط القدر : «كل ما هو مكتوب سيكون. كل ماهو مكتوب فليجئ ».

كانت مواطناتها تقلن لها :

– لعلك نسيت البلد البعيد ؟ ليس ثمة سفر إلى أمريكا ؟

وكانت تجيبهن :

– ماذا تقلن ؟ لابد أن أسافر يوما ما ، عندما يجيء السلام إلى العالم. من المؤكد أننى سأذهب إلى حيث تقول ابنتى ، إلى ولاية فرجينيا .

لكن مامن شك أنها لم تعد تؤمن فى قرارة نفسها. لم تعد تؤمن بدورها .

* * *

وهاهو الموعود جاء. ها هو قد جاء الآن وقد أحنت السنين كاهل المرأة. ثلاثون عاما مضت منذ أن فكرت فى هذه الرحلة أول مرة. هاهى الإشارة قد جاءت ، الإشارة المؤذنة باجتياز المحيط ، وكم تأخر مجيئها. جاراتها كلهن ، اللاتى ذرفن الدمع معها على شاطئ أتيكى الموحش ، قد رحلن تباعا فى الرحلة الأخرى: وهناك خلف التل الصغير ، فى مدفن القرية المقفر لقين الراحة ، وكن فى انتظارها . لم يبق من الصحبة سوى اثنتين. السيدة ياتولا . وهاهى تشذ الآن عن النظام ، عن الإيقاع الرتيب. التل الصغير على بعد خطوات من كوخها ، وهى تعرف أنه لم يبق لها إلا أن تحمل إلى هناك فى القريب العاجل إلى جوار صحبتها لترتاح إلى الأبد. لكن فات الأوان ، وهاهى الآن تضطر إلى أن تغير خط سيرها وترحل إلى تلك الأرض البعيدة ، ولاية فرجينيا ، لتتلقاها تربتها ، فهى تعرف أن هذه الرحلة التى تتأهب للقيام بها رحلة إلى حيث ستوارى التراب .

أخذت صورة مارى جرجس الفضية التى جلبتها معها من الشرق وذهبت بها إلى كنيسة القرية الصغيرة وصلت عليها فهى ستصحبها معها. ثم مضت تودع أكواخ القرية كوخا كوخا. عانقت قاطنيها جميعا ، ورسمت علامة الصليب على جبين الأولاد الصغار ، ومنحتهم بركتها. كانت ساعة عارمة موحشة ، ساعة الموت الدانى ، ساعة الوداع أو الوصايا الأخيرة . كان شعور الجميع نحوها كما لو كانوا يقبلونها قبيل أن يضمها تراب تلهم بين ذراعيه. ثم وزعت السيدة ستاما تولا محتويات كوخها على أقرب جيرانها، ونصحتهم ألا يتخاصموا . فما الذى يكسبونه من الخصام ؟ وحرقت أغصانا من كرمة ، وصنعت منها بخورا لمبخرتها ، واشترت أوقية من اللبان الأبيض لتأخذه معها. كانت تقول إن هذه الأشياء لن تجدها فى أرض الغربة ، هناك فى ولاية فرجينيا .

ولما كان كل شىء قد أعد ، ولم يعد سوى انتظار السفر ، فقد خلت العجوزان إلى بعضهما الليلة الأخيرة. كانتا آخر من بقى من القرية. تجاذبت السيدة يانولا والسيدة ستاماتولا أطراف الحديث. تحدثتا وتحدثتا ثم سكتتا. كان الأمر أشبه بمسرحية جنائزية. وسهرت كل منهما بجوار الأخرى .

ستشرق الشمس بعد قليل. وقالت العجوز الأولى ، كما لو كانت قد اكتشفت شيئًا جديداً :

– ها قد طلع الفجر .

وأجابت الأخرى :

- أجل .

وبذلت تلك التى ستبقى محاولة أخيرة ، وإن كانت تعرف أنها تحاول عبثا :

- بالله أين ستذهبين ياستاماتولا ؟ ما الجدوى من القيام بهذه الرحلة ؟ كيف ستحتملين التربة فى أرض الغربة ؟

خيم الصمت برهة. ثم أردفت:

- أقول كانوا سيدفنوننا جنبا إلى جنب مع سائر رفيقاتنا، ولن نكون فى عزلة .

وخيم الصمت من جديد ، ثم استطردت تقول :

- هذه التربة أصبحنا نعرفها . لن تكون جد ثقيلة علينا ، لكن من أدراك ما التربة التى تذهبين إليها ؟

وتسلل الموت بينهما . تردد على لسانهما بلا وجل ، وشاع حديثه مثلما تتردد أمور الدنيا القوية البسيطة على ألسنة العامة .

وقالت الأخرى ، السيدة ستاماتولا :

- صائب قولك. من أدرانى ما حال التربة الأخرى؟ لكنك تعرفين بدورك ، لم يعد بالإمكان أن يتغير شىء . هذا ماقلته أيضاً إلى ابن عمنا فرانسيسكو .

كان العجوز فرانسيسكو – وهو ابن عم بعيد – قد جاء إليها أمس وقال لها :

– يا ابنة العم ، مازلت أقول لك فى هذه اللحظة الأخيرة غيرى رأيك. اعدلى عن السفر ، فما زالت الكلمة لك .

– أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

– أقول ابقى لتموتى معنا فى هذه التربة التى ألفناها . ما شأنك أنت بالسفر ؟ الكلمة لك .

– أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

– نشبت حرب جديدة فى ذلك العالم الجديد. يقولون فى كوريا. ماشأنك أنت بعبور البحر الكبير وقد شبت الحرب من جديد؟ ابقى لتموتى بيننا .

كان يلقى لها بخشبة النجاة عالما أن البشر فى حاجة إلى أن يتشبثوا بشىء على الدوام .

لكن ، كلا ، لم يكن بالإمكان العدول الآن ، كل شىء قضى على نحو لارجعة فيه : الثلاثون سنة التى انتظرت الرحله طوالها ، ابنتها فى فرجينيا، التصريح ، التذكرة .

– لامفر ، يا يانولا . لامفر الآن .

– كما ترين ، ياستاماتولا .

وخيم عليهما الصمت ، وأشرق الفجر . ارتسمت التلال وردية ، واكتست بلون ملائكي. بعد قليل ستمر سيارة الخط التي ستقل السيدة ستاماتولا ، وتنزل بها إلى الميناء الكبيرة .

– هيه ، حان الوقت .

– حان الوقت .

تطلعت العجوز إلى تلال أتيكي ، وطنها الثاني ، وهي على أهبة الرحيل إلى الوطن الثالث ، والأخير . عندئذ عرفت أن المرء قد تقتلع جذوره مرة واحدة، فإذا اقتلعت مرتين فهذا أمر لايطاق. نظرت إلى التلال ورأتها هادئة وديعة . وأخذت تبكي بصوت خفيض ، لأنه بعد قليل ستختفي التلال إلى الأبد .

طائر مقتول

إيليا فينيزيس

نحن إبان الحرب العالمية ، وقت أن وطأ البرابرة أرضنا. كانوا يخربون البلاد، ويقتلون الناس ، رجالاً ونساء ، وشيوخًا وصبيانًا ، حتى يحطموا إيمانهم بالعدل والحرية. ولكن أهل اليونان لم يستسلموا. كانوا يقولون مثل أسلافهم من ربابنة البحار ورعاة اليابسة:" ما الجدوى أن تعيش فى الذل والعبودية، الحرية ساعة خير من أن تحيا العمر كله عبداً" ولهذا كانوا يوقعون الضربات بالبرابرة على الجبال وفى الحضر ، مؤمنين بالإنسان وبالوطن .

فى تلك السنين ، كانت تعيش فى اليونان أيضًا بنت صغيرة هى ابنة الحرب لأنها ولدت اليوم ذاته الذى أعلنت فيه الحرب العالمية عام ١٩٣٩، تلك الحرب التى بدأت مسير من بعيد ، وبعد أن عبرت بلاداً بلاداً ، مخلفة فيها الخراب ، وصلت إلى وطننا وأيضًا. كانت البنت اسمها "أناه". شعرها فى لون سنابل القمح الناضج ، وعيناها فى لون أمنا البحر. ولما كانت تعيش فى سنوات ضارية يضرب فيها الناس بعضهم بعضًا كالمجانين ، ويمص الواحد منهم دماء الآخر فقد اجتهد والد أناه ووالدتها أن يبسطا عليها كل حماية حتى يجنباها أن تعرف

مدى مايمكن أن يتمادى إليه البشر. لهذا سعيا أن يزيدا من ألفتها بالطبيعة ، بالشجر الأخضر ، بالطير السارح ، بالسمك وأعشاب البحر. وهكذا تعلمت أناه ألف حكاية وحكاية عن الماء وعن التربة. ومع الوقت عرفت كيف تحس كما لو كانت شجرة أوحصاة صغيرة .

وفى المنتزة الذى كان أبواها يصطحبانها إليه لم يكن ثمة أشجار كبيرة ، لأن الحديقة كانت حديثة مثلها. ولهذا لم تجد أناه عناء. تفاهمت على خير وجه مع الشجيرات التى كانت قامتها فى مثل طولها. كانت تحتضن الأغصان، وترقد فى ظلها وتحكى لها عن أحلامها ، فتقول : «عندما أصبح بدورى شجرة كبيرة ، لاتغضبن منى لن أبقى هناك معكن. أريد أن أرى ماذا وراء البحر الذى تسبح فيه السفن. سأصبح بدورى مركبا وأسافر لاتغضبن منى» .

وكانت الأشجار تقول لها «ماشأنك أن تعرفى ماذا فى البلاد التى وراء البحر؟ ماذا تريدين أن تعرفى عن الديار الغريبة ؟» .

لكن أناه كانت جد صغيرة ، وكان كل شىء معتما فى داخلها ، فلم تكن لتعرف حتى هى ماذا تريد بالضبط. شىء واحد كان مؤكدا فحسب هو أنها كانت تريد أن تعرف وهذا الذى كانت تريد أن تعرفه ظل بالنسبة لها غامضا مجهولا وفى غير مقدورها: فعن الإنسان كانت تريد أن تعرف .

وجاء أيضًا آنذاك ، فى سنى الاحتلال والعبودية ، يوم اليونان الكبير ، الخامس والعشرون من مارس الذى يحتفل أهل اليونان فيه بذكرى الحرية. فى عشية ذلك اليوم اكتست الأم بمسحة جادة .

أخذت ابنتها من يدها ، وانتحيتا جانبا ، وقالت لها :

- أناه ، سأقص عليك الآن حكاية مختلفة جداً عن كل ماسمعته من قبل .

فتحت أناه عينيها الزرقاوين ، ونظرت وجلة إلى أمها التي بدت هيأتها جد غريبة ، وسألتها :

- ما الخطب ، يا أماه ؟

- اسمعي ، يا ابنتي .

وحدثتها عن حكاية غريبة واحدة من حكايات اليونان العديدة فلقد جاء - على حد قولها - إلى أرضنا ذات مرة من الشرق غزاة لاحصرلهم ، حطوا رحالهم بها وأشاعوا فيها الخراب. سنين تلو سنين ، لفظ أهل اليونان زفراتهم من القهر الجاثم على صدورهم حتى جاء يوم رسموا فيه علامة الصليب وقبلوا صورة مريم أم المسيح ، وقالوا : أيتها العذراء لم نعد نحتمل أكثر من ذلك ، سنثور. كان هؤلاء حفنة صغيرة، وكان المحتلون كثيرين مثل سنابل القمح ، مثل النجوم في السماء «لكن ما من سبيل ، سنقاوم» هذا ماقاله أهل اليونان ، وخرجوا إلى الجبال. وعندئذ هدم المحتلون القرى، وطاردوا الشيوخ والنساء والأطفال، وأعملوا فيهم التقتيل. وحتى لاتسقط النساء في أيديهم كن يأخذن أطفالهن في أحضانهن ، يقبلن بعضهن بعضًا ، ثم يلقين بأنفسهم من على الجبال ويمتن ، أما أزواجهن الذين استبدت بهم الوحشة فقد مضوا يهيمون عراة جياعا من وهاد إلى وهاد ومن بحور إلى بحور يخوضون المعارك

ويقاتلون. وفى عيونهم وميض الإيمان ، وفى قلوبهم اليقين بأن الحق إلى جانبهم ، وأن يوم خلاصهم آت. ولم يخب ظنهم وأتى ذلك اليوم. رحل البرابرة مطرودين من أرضنا ، ونبت الزرع من جديد ، وجاء أطفال جدد محل أولئك الذين اندثروا .

أصغت أناه إلى الحكاية مفتوحة العينين. وسألت :

– ومن كان هؤلاء ؟

وقالت لها أمها :

– كانوا جدك وجدتك. كانوا أجداد وجدات كل الأولاد الذين يذهبون معك إلى المنتزه. هؤلاء كانوا .

ولكى تزيدها أيضاحًا ، أردفت تقول :

– أتذكرين التماثيل البيضاء التى صفت هناك ، فى المنتزه ؟

كانت أناه تذكرها جيدا ، فكثيرا ماذهبوا بها إلى هناك ، وكانت تعجب دائما من السكينة المخيمة على تلك الشخوص ، التى أدت واجبها وانقطعت صلتها بالحياة .

– إنى أذكرها يا أماه .

وقالت الأم :

– هؤلاء كانوا . غدا ، سنجمع بعض الزهور نحملها إليهم .. مثل غد بدأوا حركتهم لطرد الناس الأشرار من أرضنا .

أشرق الغد ، الخامس والعشرون من مارس سنة ١٩٤٣ . أخذت والدة أناه قليلا من الزهور صنعت منه إكليلا وضعته فى يد ابنتها ، ومضيتا معا إلى مكان الأبطال. لكن مثل والدة أناه استيقظ الآلاف فى ذلك الصباح ذاته ، جماهير غفيرة ؛ أمهات اليونان وفتياتها ، يريدون جميعًا أن يحملوا بدورهم زهورًا إلى الذين جاهدوا فى سبيل الحرية ، ويضعوا الأكاليل فى هاماتهم. إنهم يتحركون مثل الأمواج المتلاحقة متجهين إلى المنتزه . على أن الأم وابنتها أناه لاتدريان بالموج المقبل ، وتسيران فى هدوء. ويالها من سكينة تلك التى تحيط بهما ! من أغصان الشجر الجرداء تتناثر الزهور. إنه الربيع. استدارت أناه وأمها عند المنحنى وواصلتا سيرهما فى ممشى الحديقة صامتتين ، تتأمل الفتاة معالم الربيع ، وتتطلع المرأة إلى السماء الصافية من السحب. وفجأة سمعتا الهدير بدا أول الأمر مبهما مثل صوت البحر البعيد عندما تلاطمه العاصفة ، ثم أصبح الصوت أكثر وضوحا ، وأمكن للأذن أن تميز فى خضمه بين أصوات الرجال وأصوات الفتيات. كلهم يغنون للحرية ، وينشدون تلك الأغنية القديمة التى تقول إن الصمت كان مخيما على كل شىء ، والكف يضرب الكف تعبيرا عن الأسى .

الأصوات قد خلت من الفرحة ، فهى زفرة شعب وشجنه وإيمانه .

وقفت الصغيرة أناه وأمها على قمة الساحة التى صفت فيها التماثيل ، وقد أمسكت البنية بزهورها ، بإكليلها الصغير ، وتعلقت عيناها بالجموع النائحة المقبلة. كان يمشى فى المقدمة قرابة الثلاثين من الفتية والفتيات. يمسكون بأكاليلهم ويغنون. رأتهم الأشجار من حولهم.

سمعتهم الزهور التى تفتحت على أغصانها لمقدم الربيع ، وسمعتهم أيضا الطيور التى بعثرها الخوف فتطايرت هنا وهناك. كما سمعهم الألمان المتربصون بهم وانقضوا عليهم من خلف الحديقة وأمطروا الشعب وابلا من قذائفهم الملعونة .

استولى على الناس فزع مهول. ولولت النساء وتعالى الصراخ وجرين يختبئن وراء الأشجار العجفاء طلبا للنجاة . امتلأ المكان بالضجيج. وصفر الرصاص وهو يمزق الهواء. أخذت الأم التى استبد بها الذعر ابنتها أناه بين ذراعيها لتحميها بكل جسدها .. وشرعت تجرى بحثا عن شجرة تختبئ وراءها . لم تكن أناه تبكى. وقفت تائهة. اتسعت عيناها الزرقاوان من شدة الخوف والذهول وظلت مقلتا أناه الصغيرة مضيئتين حائرتين لاتفهمان مما يجرى حولها شيئا . وبعينيها المفتوحتين ، المفتوحتين تماما ، رأت من خلال ضباب الخوف والموت : الفتيان والفتيات ممسكين بأكاليلهم يلزمون الساحة ، ويتسلقون التماثيل البيضاء بحركات ماضية ، ويضعون أكالهم على هاماتها ، ثم يجرون منصرفين. لكن الجميع لهم ينصرفوا . ثلاثة منهم لم يتسن لهم ذلك. رأتهم أناه يسقطون صرعى برصاص البنادق ، كما لو كانوا شجرا ، شجرا فتيا ، يهوى. بقى الإكليل يتدلى أيضا فى يدى أناه لا أحد يسأل فيه ، لكنه فى اندفاع الفتيان انزلق من أصابعها النحيلة ، وسقط .

فى صباح اليوم التالى سادت السكينة على المتنزه تماما . عاد الأولاد إلى الخروج بعرباتهم، وهم يصيحون ويضحكون ويلعبون. جذبت أناه أمها من يدها . وكل كيانها يتوسل :

- هناك ، يا أماه، لنذهب إلى هناك .

إنها صموت، وإنه لشيء مخيف أن تلزم صبية صغيرة صمتا مريرا إلى هذا الحد ، حافلا بالتساؤلات : لماذا؟ لماذا؟ .

وتصل أناه إلى التماثيل البيضاء، أكاليل الزهور التى جلبها الفتيان والفتيات مطاردين جائعين ألقى بها الألمان على الأرض وداسوها بالأقدام وتقدمت أناه من تمثال ، ثم تسمرت فى مكانها فجأة. رأت على الأرض دماء لم تكن جفت بعد ، دماء غزيرة. ولقد شردت بعض الزهور المقتلعة من أكاليلها التى وطأتها الأقدام ، وراحت نحو الدماء وارتوت بدماء الفتيان الذين لقوا حتفهم. وتذكر أناه جيدا اللحظة التى رأتهم فيها يسقطون. كانوا - على حد قولها- مثل شجر يهوى .

أناه صامتة بينما تغالب أمها دموعها . همت أناه أن تتقدم ، وعندئذ وقعت عيناها على شيء هناك. وهمهمت :

- إنه طائر !

انحنت . كان طائرا ، عصفورا صغيرا. وكان مقتولا. عجبا، كيف أمكن للرصاصة أن تصيبه ، وهو جد ضئيل الحجم إلى هذا الحد ؟ لقد مزقته إرباً إربا. لابد أن الأمر قد حدث أمس .

وتناولت أناه الطائر ووضعته فى راحتها ، ثم مضت بضع خطوات إلى حيث التراب محروثا. وجلست. ودون أن تلقى بالاً إلى أن ثوبها قد يتسخ وضعت الطائر على الأرض ثم شرعت تحفر بيديها حفرة صغيرة.

وعندما رأت أن الحفرة قد أصبحت عميقة بما فيه الكفاية ، أخذت العصفور ودفنته ، وهالت عليه التراب. ثم قطفت زهورا برية صفراء نابتة على مقربة ووضعتها على الحفرة الصغيرة .

عندما فرغت أناه من ذلك انخرطت فى نحيب عميق لا آخر له. ولم تكن أناه هى التى تبكى وحدها ، بل كان يبكى معها الأولاد فى العالم جميعا .

كلا ، لم تعد أناه تريد أن تسافر ، عندما تكبر ، إلى البلد وراء البحر. ولم تعد تريد أن تعرف. لقد عرفت وهى جد صغيرة الكثير عن البشر .

أحلام للغد

إيليا فينيزيس

فى اليوم السابق على اليوم الكبير ، وكان النهار يقترب من أخرياته والليل يرخى سدوله ، قررا أن يستريحا قليلاً ، وقد أنجزا ماكلفتهما به الجماعة التى ينتميان إليها .

قالت الفتاة : «لنذهب إلى مكان به شجر ، لننعم ببعض النسمات الرطيبة».

ذهبا إلى المتنزه العام ، وجلسا على أريكة. كانت النجوم قد ظهرت فى السماء. والليلة صافية الأديم. لم يكن أحد غيرهما هناك. وظلا صامتين فترة من الوقت .

وفى لحظة سألها: «هل ... هل تخافين من شىء؟»

أمسكت بيده ، وشدت عليها ؟

قالت بصوت ملؤه الثبات واليقين: «كلا ، لا أخشى شيئًا».

قال الفتى بعد هنيهة: «سيضرب الألمان بشدة غدا . تأكدى من ذلك».

– «إنى لمتأكدة».

مضت برهة صمت أخرى .

قال الفتى بشجن: «ستأتى أيام طيبة ، بالنسبة لنا أيضًا. وعندئذ سيكون بمقدورنا أن نهتم بسعادتنا ، بسعادتك وسعادتى» .

ثم تحدثا عن أحلامهما ، عن المستقبل. كانا قد تعارفا منذ بضعة أشهر، فى ساعة من الساعات العصيبة. تواجدا جنبًا إلى جنب فى مسيرة شعبية عبر شوارع أثينا. كانت الفتاة تمشى فى المقدمة ، وقد تطاير شعرها الأسود فى مهب الريح ، كما تطايرت طيات العلم الخفاق الذى حملته بين يديها. وفجأة برزت من نافذة عالية فوهة حديدية لمسدس أحكم أحد الألمان تصويبه إلى الهدف ، إلى ذات الشعر المتطاير حاملة العلم. لكن الفتى بادر إلى جذبها للوراء قبل ثوان قصار من انطلاق الرصاصة مدوية فى الأرجاء. ثم هرول الموكب إلى شارع جانبى وانطلق إلى مقصده من طريق آخر ، وعلى رأسه دائمًا اليونانية ذات الشعر المتطاير فى الهواء .

هكذا تعارفا، كانت تدرس الكيمياء ، أما هو فكان يدرس الهندسة. وكانا يرسمان أحلامًا للغد. عندما سيعود السلام إلى البشر المعذبين ، عندما لن تطأ أرض بلادنا الجرداء قدم غاصب معتد ، عندما سيصبح للناس الحق فى الحرية من جديد ، ويكونان قد أديا بدورهما دينهما نحو الوطن ، سيشرعان فى بناء سعادتهما الخاصة. وكم سيكون ذلك جميلاً!

سيحصل كل منهما على شهادته ، وسيكون فى مقدورهما أن يتزوجا. سينجبان ولداً أسود الشعر مثل أمه. سيعلمانه منذ الصغر أن يعشق كرامة الإنسان وحريته ، بل وإذا اقتضى الأمر سيعلمانه أن يكره كل ما هو من الضرورى أن يكرهه لأنهما أرادا أن يجعلا من هذا الولد رجلاً حقًا يقول «لا» عندما يكون من الواجب أن يتخذ هذا القرار. لن يكون هناك غصب وجور ، لن تراق الدماء هدراً ، لن يكون هناك ظلم يغرق الأرض. لن يكون أولادهم ساهمى النظرات ، أدركتهم الشيخوخة قبل أوانها ، يتطلعون إلى النجوم بعيون حزينة .

هكذا سيكون ابنهما ، رجلاً بحق .

أخذ يدها من جديد ، وربت عليها ملاطفًا .

قال لها :

– ستأتى ... لاشك فى ذلك ... ستأتى الأيام الحلوة قريباً .

أطلت عليهما النجوم. انحنت الفتاة وقبلت جبينه ، كما لو كانت تريد أن تطبع عليها بشفتيها الكلمة الكبيرة : «ستأتى».

* * *

مضى شعب اليونان يزفر تحت عبودية الألمان والطليان ، وكانت عبودية لاتحتمل. أعملوا استبدادهم فى البلد الفقير. خربوا. أحرقوا أكواخ القرى. قتلوا نساء وأطفالا وشيوخًا. ثم جاءت المجاعة. استولت قوات الاحتلال على القليل الذى تثمره الأرض ، انتزعوا الخبز الأسود

من أفواه الأطفال والأمهات ، وجاءت المجاعة فى المدن والقرى كان الناس يسقطون على الأرض ويموتون. كان الأطفال يلفظون أنفاسهم الأخيرة على صدور أمهاتهم اللاتى نضبت أثداؤهن ، وبدلاً من أن تحلم عيونهم الصغيرة بالملائكة كانت تغفو رويداً رويداً ، وتنطفئ شاكية. على أن الشعب لم يركع رغم كل ذلك. كان يجمع ما بقى له من قوة ضئيلة ، ويخرج إلى الشوارع صائحا مطالبًا بالحرية .

كما وفدت أنباء بأن غاصبًا جديداً وطأت قدمه أرض الوطن من الغرب، وأعمل التخريب والتقتيل أينما حل. كز الشعب الجائع على أسنانه ، وقرر أن يخرج إلى الشوارع من جديد ويصرخ بالحرية والعدالة .

* * *

فى أثينا ، تسير الجموع فى الشوارع الكبيرة ، صامته ، واجمة ، كما لو كانت تتنزه فى الشمس تتسلى بمشاهدة التماثيل. ما من شيء ينم عن أن أمراً سيحدث ، أو أن الإعداد له على قدم وساق. ومع ذلك فإن الصمت المرير وسط البهجة التى تغمر بها الشمس الوضاءة الوجود ، يجعلك تستنتج شيئًا : شيئًا مثل بركان على وشك الانفجار .

واشتعلت الشرارة .

عندما أعطيت إشارة متفق عليها ، هبت من الشعب الذى يخيل لمن يراه أنه يسير فى هدوء ودعة – موجة ضخمة اندفعت تجرى إلى الساحة الفسيحة أمام الجامعة. ويمتلئ المكان. وتتسلق فتاة تحمل

إكليلاً من الغار تمثال الجندى المجهول وتطوقه بإكليلها. ويركع الشعب. وتنشد كل الأفواه المقروحة نشيد الحرية .

وما لبث أن سمعت فى اللحظة ذاتها من آخر الطريق جنازير الدبابة الألمانية ، الصفراء مثل الموت ، تجرى نحو المكان الذى اشتعلت منه الشرارة. وقبل أن تطلق الدبابة نيرانها، اتجهت المظاهرة التى كانت قد تكاثر عددها لحظة بعد أخرى إلى شارع آخر. انثنى الحشد وتلوى مثل كائن حى يقاتل ويصارع بإيمان وثقة .

كل الأفواه تهتف الآن ، كل الحناجر تصرخ وتجأر .

– كفانا هذا ! نريد حريتنا ! نريد الحرية !

من قديم الزمن ، ورث هذا الشعب العاطفة العميقة .. ورث حب الحرية والعدالة. وها هو يطلق العنان لعاطفته الجياشة حتى يسمع صوته ، بينما شرعت القوات المدرعة من حوله تريق الدماء وتقذف بالحمم على أناس عزل ،ليس لديهم مايذودون به عن أنفسهم ، وتمطر الرصاص على النساء والأطفال .

«كفانا هذا! كفانا ! ليسقط الطغاة !»

ها هو الحشد ينزل الميدان الفسيح الآن مثل موجة عالية ، وقد تعالت صرخاته وأناته. وعادت الشفاة تتمتم أول الأمر ، ثم انطلقت الحناجر بعد ذلك تغنى النشيد الملهب للحماسة ، نشيد الحرية ، نشيد اليونان الأول. وعلى قمة الموجة انبسط علم أزرق أبيض ، تماوج مع

النسمات القليلة ، وتماوجت أيضًا خصلات الفتاة التى حملته بين يديها. تقدمت بخطوات ثابتة ، شامخة الرأس ، وقد تأجج الحماس فى قلبها من جديد. وإلى جوارها سار صديقها. كانا يغنيان الحرية ، ويخطوانَ قدمًا. وأمامهما بقليل ، أمام عيونهما التى ينبثق منها الشرر ، سار طيف اليونان. وأمامهما سار أيضًا أملهما ، السعادة التى تحدثا عنها تحت النجوم ، ولد أسود الشعر ، سيربيانه ويعلمانه أن يصير رجلاً حقًا ، قادرًا على أن يقول فى اللحظة الحاسمة «لا» لاعدوان ، ولا دماء تراق هدرًا .

* * *

ثم توالت الأحداث سريعة كالبرق. ظهرت المركبة المدرعة الألمانية عند أول الطريق من الجانب المقابل للمظاهرة النازلة، وانقضت على الجماهير المحتشدة ، وأخذت طلقات الرصاص تدوى من مدفعها الرشاش ، و لكن الموجة المندفعة لم يكن بإمكانها أن تتوقف ، فمضت فى اندفاعها. وهاهو المدفع يقذف رصاصه الآن على الكتل البشرية المتراصة. واستقرت الرصاصة الأولى فى جسم يتفجر شبابًا ، جسم الفتاة ذات الشعر الثائر حول رأسها ، حاملة العلم الخفاق بين يديها. انتفض الجسد قليلاً مثل طائر جريح. ثم مال وسقط على الأرض. وفى اللحظة ذاتها أقبلت الدبابة مسرعة ، يدوى صوتها الشيطانى، وأطبقت على الجسد الجريح المنتفض ، وداست عليها بعجلاتها الثقيلة ، ودخلت فى الجموع فمزقت شملها وبددتها لحظة ثم مضت مبتعدة .

حدث كل شيء كومضة البرق. وما أن انصرفت مركبة الموت حتى عادت الجموع تخرج من جديد من الشوارع الجانبية التى التجأت إليها ، وهرعت مولولة إلى جثة الفتاة التى احتضنت العلم وبللته بالدماء التى نزفت من جسدها المهشم .

بعينين مغرورقتين بالمدموع أخذها الفتى ، صديقها. حملها بين ذراعيه. ورفع طالب آخر العلم المخضب بالدماء. ومن أعماق الصمت البهيم الذى خيم مع انتشار رهبة الموت ، هبت ضارية مثل إعصار شديد ، صرخة مروعة ، صرخة الجماهير التى تلعن القتلة ، وتنادى بالانتقام والحرية .

* * *

رسمت أحلاما للغد ... نامى الآن ، أيتها الصبية. ستأتى الأحلام. لن تأتى إليك ، لكنها ستأتى للأخريات من فتيات وطنك ، ولفتيانه أيضاً. ستأتى الأحلام لفتيات العالم وفتياته ، العالم كله. وسيذكرك الجميع ، ويباركونك ، لأن أحلامهم قد تقدست بدمائك .



أليكسى سائق العربة

ذيونيسيوس كوكينوس

عاد العجوز أليكسى ستاليس ، الذى كان يعمل حوذيًا فيما مضى، إلى شبابه فى صحبة حفيده. وقد وصل هذا الصبى إلى حياته فى وقت اعتقد فيه العجوز أنه لم يبق له شىء يعمله فى هذه الدنيا. لقد استوفى حقه من مسرات الحياة منذ عديد من السنين ، كما شرب كئوس الحزن مترعة أيضًا ولم يعد ينتظر ماهو أسوأ مما مضى. وقد جاءته المتاعب فى الوقت الذى يتخفف الآخرون من عبئها. جاءته عندما كبر أولاده وأصبح يقترب من الخامسة والستين. كان قد تزوج مرتين. ولم ينجب أولاداً من زوجته الأولى. ثم تزوج من خريسافغى ورزق منها ابنيه، ستاثى وفاسيلى، ثم ابنته ماتينا فى النهاية. وليته لم ينجب أحداً منهم ، فقد كان الابن البكر أحمق ، يرافق ندماء السوء ، يسهر الليالى ويرتاد الحانات ، يثير المشاكل ، ويخرج من علاقة نسائية ليتورط فى غيرها ، حتى أصيب بمرض الرئة فمات ، وما لبث العجوز أليكسى أن فقد

زوجته خريسافغى التى مرضت بذات المرض ، وماتت بعد ما يقرب من عامين. ولئن كان الأب قد أرسل ابنه ستاثى إلى ماروسى على أمل أن يشفى هناك ، فقد كان هدفه الأصلى من ذلك أن يعزله عن بقية الأسرة وينقذها من المرض المخيف، إلا أن خريسافغى أصرت على أن تذهب مع ابنها .. وقد بح صوت أليكسى ليثنيها عن عزمها دون جدوى. كانت صلبة الرأس بدورها متشبثة برأيها فيما تراه صوابًا ، لكنها كانت أمًا على أية حال ، ويغفر لها إصرارها على عدم الابتعاد عن ابنها. كانت تريد أن ترافق ولدها المريض حتى لاتتركه وحيداً ولم يكن بإمكانها أن تفهم أن العدوى قد تنتقل إليها وتموت ، فيحرم الجميع من رعايتها وقلبها الحنون. فاليتيم حقًا هو من فقد الأم ، وكيف كان يستطيع أليكسى أن يشرف على بنت بلغت سن النضج الأنثوى ، ويوقظ حديثها الفتنة الراقدة فى الأعماق ؟ ليس ثمة سبيل إلى ذلك إلا أن يقوم دور الحارس ليلاً ونهاراً ليحافظ عليها. لكن أليكسى كان حوذيًا يجوب بعربته الأنحاء ليعود إلى بيته بلقمة العيش ، ويدخر من إيراد العربة أيضًا ما يسمح له بتجديدها عند استهلاكها. ولهذا فلم يستطع أن ينجو من النكبة. فبعد وقت قصير أخذت تصرفات ماتينا تثير المتاعب. هربت مع صعلوك لم يكن بمقدوره أن ينفق على قطة لا على امرأة .. قلب أليكسى الدنيا رأسًا على عقب بحثًا عن ابنته ، وفى النهاية عثر عليها فى فندق مشبوه ، أما ذلك العشيق القذر فقد فر ، ولم يبق له أثر ، وهل كان يجدى أن يتعقب أليكسى رجلاً خائبًا ليجبره على الزواج من ابنته ؟ لو كان قد فعل لماتت ماتينا جوعًا إلى جوار زوجها ، أو ربما دفعها إلى الرذيلة ليعيشا من كسبها ، فقد كانت ماتينا جميلة وطائشة كما أنها

لم تكن بنتًا قاصرة حتى يمكن لأبيها أن يقاضيه بتهمة أنه أغواها وغرر بها. لقد سارت برضاها إلى أنياب الذئب ، فقد كانت شابة بلغت سن الرشد وتعرف كيف تصون نفسها إذا أرادت. لذلك فضل أليكسى أن يبحث عمن يتزوجها على أن يكون رجلاً جاداً قادراً على أن يحكم امرأة ، إلا أن الوقت لم يتسع أمامه ، فما لبثت ماتينا أن تعرفت فى هذه الأثناء برجل آخر ، كان عاملا من أبناء بلدة تينوس اسمه يورغى كيفالارى. نزح إلى أثينا من الإسكندرية، ويشتغل بمصنع للرخام قريب من بيت ماتينا .. لم يرق كيفالارى لأليكسى ، فقد كان فتى صغير السن لايكبر ماتينا. ولم يكن يبدو لأليكسى أنه بقادر على أن يكبح جماح فرس تهز ذيلها. كما لم يكن أليكسى يثق فى ابنته ، لقد أتت فعلتها الأولى ومضى يراقب سلوكها بعد ذلك ، فكان يراها دائبة التنقل بين الشباك والمرآة. كان يريد أن يرفض أن يزوجها منه ، إلا أنها فتنت بصانع الرخام وهامت غرامًا به ، فاضطر أليكسى إلى أن يزوجها منه خوفًا من أن يخطفها بدوره ويجرى بها هنا وهناك دون أن يكون باستطاعته أن يطالبه بشىء ، مادام سيستطيع كيفالارى أن يرفض ويكون سنده القوى فى ذلك أنه لم يكن أول رجل فى حياتها .

كان العصفور قد طار من العش ، ولم تعد ماتينا لتركز فى بيت ، عاشت مع زوجها فى وئام مايقرب من عام ونصف أو ربما عامين وأنجبت منه ولداً ، لكن إما لأنها كانت محط أنظار الرجال الذين إذا مالمسوا الطيش فى امرأة ظلوا يلاحقونها ويطاردونها ، وإما لأن الخيانة كانت تجرى فى دمها ، مالبثت أن عادت تعقد الصلات برجال آخرين .

وقد اشتم أليكسى رائحة تفوح من صحاب كيفالارى المترددين على بيته ، بل ونمت الأخبار إلى علمه فذهب يحذر ابنته .. حاول أن ينصحها فصدته ، فغضب وهددها بأنه إذا تأكدت شبهاته فإنه سيذهب ويذبح بنفسه ذلك العشيق . وفى النهاية ارتكب حماقة كبيرة بأن قابل كيفالارى وطالبه أن يأخذ حذره من أولئك الصحاب الذين يحيط بهم زوجته ، وأن يقطع صلاته بهم وهو الأمر الذى لم يكن يعره كيفالارى كثير التفات من قبل ، إما لقلة خبرته بالحياة ، وإما لفرط ثقته فى المرأة التى تزوجها عن حب، وبعد قليل وقعت الكارثة ، قتل كيفالارى خارج بيته أحد أصدقائه ، شك فى أن يكون على علاقة بماتينا. على أن هذه المرأة بدلا من أن تحسن سلوكها بعد هذا الحادث المروع ، راحت تعاشر رجلا مالبث أن هجرها بعد بضعة أشهر ، وانتهى بها الأمر إلى التردى فى أحضان رجال كثيرين .

تبرأ أليكسى من ابنته تماماً ، أو بعبارة أدق كان يقول ذلك ، لكن قلبه فى داخله كان يدمى عندما يتذكرها ، وكيف كان يستطيع أن ينحيها عن فكره ؟ لم يكتشف الأنسان بعد طريقة يضبط بها تفكيره مثلما يضبط الساعة ، ويوقفه عن المضى إلى الهواجس التى تعذبه ، وأى عذاب أشد من أن يرى الأب ابنته ينحدر بها الحال إلى درك لاخلاص لها منه ، وكان أليكسى يفكر رغماً عنه فى ابنته تلك الضائعة ، وقد بعث بالأصدقاء والأقارب ليتحدثوا إليها وليوضحوا لها بشاعة الطريق الذى تسير فيه ، وليقولوا لها إنها بتصرفاتها قد أودت بأبيها إلى القبر ،

إلا أن الابنة لم تثب إلى صوابها قط ، كانت تقطع حديثهم تارة وتعرض عنهم ، وتارة كانت تصيح فيهم - عندما كانوا يضيقون عليها الخناق - بأن من حقها أن تفعل ما تريد ، وبأن أباها لاسلطان له على حياتها بعد أن تزوجت ، وأن حياتها سواء أكانت حسنة أو سيئة فإنها من شأنها وحدها ، وبأنها ليست مجنونة حتى تعود لتحيا بحظيرة تزكم الأنوف فيها رائحة الجياد ، وتارة كان يرق كلام الابنة عندما يثير المحدثون في قلبها الشفقة على العجوز ، لكن الأمر كان يظل بلا نتيجة إيجابية ، وكانت تقول :

- ما الذي يجعلني أذهب للإقامة عند أبي ؟ وحتى إذا أردت الذهاب لم أعد أستطيع ذلك ، سأسبب له كارثة أكبر مما سبق ذات يوم. إنني أعرفه ، كما إنني أعرف نفسي أيضاً .

كان هذا هو الجرح الكبير الذي لايندمل في حياة أليكسي ، لقد تركت وفاة زوجته وابنه في نفسه ألمًا ، أما ما آل إليه حال ماتينا فقد قصم ظهره ، وجعله يمضي في الحياة جثة هامدة. كان يركب عربته شارد الذهن يفكر في ابنته ، كان الجميع يسخرون مما وصل إليه مزاجه ، فقد صار لايفتح فمه حتى ليلقي بتحية الصباح. قلت جولاته بالعربة ، فالزبائن لايقبلون على حوذي مقطب الجبين ، ارتسم على وجهه الوجوم ، ويفضلون عليه غيره ، ثم يجب عليك أن تكون يقظًا مفتوح العينين حتى تصطاد الزبائن. فهذا العمل مثل إمساك العصافير في الهواء. وبدأ القدم يدب في عربته ، وأهمل العناية بها ، وترميم ما بلي من أجزاءها ، بل ولم يعد يعمل حساباً حتى لمصاريف استهلاكها . لقد فتر اهتمامه حتى بنفسه .

وجاء عام ١٩١٢ وذهب ابنه الثانى إلى الحرب وفى أكتوبر قرأ أليكسى بكشوف القتلى فى معركة «سارندابورو» اسم فاسيلى. يالشقاء أن يكون لك ابن .. بل وأن لايكون لك غيره .. وإذا به يقتل .

انتهى .. انتهى .. كل شىء ، كان لأليكسى أسرة ولم يبق منها أحد ، من أجل ماذا يعيش ؟ رأسه ثقيل، كما لو كان قد شرب خمراً رديئة من ذلك الصنف الذى يسمم شاربه ، ويسبب له الألم .. لم يكن بقادر على أن يفكر فى شىء ، ولا أن يدبر شئون عمله .. كانت تدور فى عقله كل هذه الشخوص الحبيبة التى لن يراها بعد ذلك .. وماتينا ذاتها ألم تكن فى حكم الموتى ؟ وكبر أليكسى فى السن عشر سنوات دفعة واحدة. أحس بأنه مريض ، رغم أن الطبيب لم يكن يجد به أى مرض. لم يكن يستطيع أن ينام ، ودبت الرعشة فى يده ، وتدهور به الحال رويداً رويداً، لم يعد يخرج بعربته، فأجرها لغيره ، ثم نفق أحد جواديه ، فباع عربته ، واشترى أخرى يجرها جود واحد ، أجر لها سائقًا كان يغالطه ويسرق الإيراد ، وبدأ أليكسى يعجز عن أن يدبر معاشه ، وشح طعامه ، وسرى النحول فى جسده ، وعندئذ تلقى مظروفًا به خمسمائة دراخمة ، من عملة قبل الحرب ، أرسلتها إليه ماتينا التى علمت بما انحدر إليه حاله فأرادت أن تسدى له العون. بادر أليكسى برد النقود إليها مهددا بأنها إذا عادت وجرأت على إتيان مثل هذا الفعل مرة أخرى ، سيأخذ السوط ويذهب لينهال عليها ضرباً حتى يدمى جنبيها .

على أنه ولئن اعتبر أليكسى ابنته ميتة ، إلا أنها كانت على قيد الحياة فعلاً ومن غير المعقول أن تتركه ينعم براحته ، ذات يوم كتبت له

تخبره أنها ستسافر إلى الخارج – وعندما وصله الخطاب كانت قد سافرت فعلاً مع رجل وعدها بأن يتزوجها .. وطلبت منه فى خطابها أن يذهب إلى أحد البيوت ليتسلم بعض الأشياء العائلية كانت قد أخذتها من بيت أبيها عند زواجها .. وكان هذا جرعة جديدة من السم يجرعها أليكسى. فمنذا الذى سيعقد قرانه عليها من جديد ، تلك الخشبة النخرة؟ لاشك أنها قد كتبت له ذلك لتبرر فعلة طائشة جديدة. ورغم أنه كان قد وطد العزم على ألا يراها مرة أخرى وكان قد شطبها من حياته ، إلا أنها وقد رحلت من أثينا ذاهبة إلى المجهول ، أحس فى أعماقه ألمًا ، كما لو كانت تعيش حتى ذلك الحين إلى جواره ويفقدها الآن إلى الأبد. ويقلب ثقيل ذهب إلى البيت الذى كتبت له عنه .. ليس من أجل الأشياء ، فما حاجته إليها؟ بل من أجل أن يمر بالمكان الذى كانت ابنته فيه حتى أمس ، وذلك دون أن يريد الاعتراف لنفسه بتلك الحاجة الداخلية العميقة. وقد سلمته المرأة التى تركت لها ماتينا رسالتها بعض الحلى الرخيصة من صنع البندقية موشاة بقشور الذهب ، كانت ملكًا لأمها ، عبارة عن زوج من الأقراط الكبيرة وأيقونة خلف غطائها الزجاجى صورة أليكسى عندما تزوج خريسافغى. ثم رفعت المرأة بين يديها طفلاً ، وأومأت للعجوز قائلة :

– إنه حفيدك ، تركته لأسلمه إليك ، وهو لم يعمد بعد .. المسكين .

قطب العجوز حاجبيه ، لم يكن له أحفاد ، فما شأنه هو أليكسى الشريف ، أليكسى ستاليس ، بهذا اللقيط ، ابن الشوارع لكنه لم يكن بقادر على أن يرفع بصره عن وجه الصغير المتورد الذى كان ينظر إليه

بعينيه اللتين تشبهان خرزتين سوداوين ، وأخذ الجليد الذى فى قلبه ينوب لحظة بعد لحظة ، لم يكن محقًا فى أن يعتبره ابن حرام ، وحسب فى عقله التواريخ وعمر الصغير ، لابد أنه يبلغ الآن سنة ونصف ووجد أنه لايمكن إلا أن يكون ابن كيفالارى ، وقد كان بحاجة إلى ذلك ليبرر ذلك الحنان الذى أحس به نحو طفل ابنته ، الذى ليس له معين. وقال لنفسه : «يالى من متحجر القلب أن أترك ابنها» .. ظل بعض الوقت صامتًا ، يفكر ثم حمل الطفل بين يديه وانصرف .. جعل أليكسى من نفسه أمًا ومربية وأبًا للولد ورباه ، عمّده وسماه ستاماتى على اسم امه ماتينا. ومضى الولد يكبر ، ويصير صبيًا متين البنيان ممشوق القوام ، يتفجر حيوية وذكاء. ومع نمو الصبى دبت الحياة فى الجد العجوز ، كما لو كان يستمد من حيوية الصبى قوى جديدة ، أصبح يشعر الآن أن لهل هدفًا يسعى إليه ، الأمر الذى لم يكن قد عرفه مع أولاده. فى ذلك الحين كان يشغله العمل بالجياد ، والزبائن ، أما الآن فلم يكن يشغله سوى ستاماتى. ترى هل كانت الهموم والآلام هى التى جعلت قلبه يفيض بالمحبة؟ الذى كان يعرفه أليكسى أنه لم يحب أحدًا قط ، مثلما أحب هذا الولد. كان حياته .. ورويدًا رويدًا أصبح معلمه أيضًا ، معلمه فى أمور الدنيا وظواهر الطبيعة الكبيرة التى كانت أول ما أثارت فضول الصغير ، كان يصطحبه إلى ميدان الحى وحديقته ، وكان يحادثه ويريه ماحولهما ، على أنه ذات يوم اضطر إلى الإجابة على تساؤلات مربكة أثارها الصغير ، كان يرى للأولاد الآخرين آباء وأمهات ، فسأل عن أبويه ، فأجابه العجوز :

– ماتا ..

– ومتى ماتت أمى ، ياجدى ؟

– بمجرد أن ولدتك .

وفعلاً ، كانت ماتينا قد ماتت ، عندما قال له العجوز ذلك .. بلغ هذا النبأ إلى العجوز ، وكانت قد ماتت أسوأ ميتة ، فقد هجرها عشيقها وتخلى عنها . ومن يدرى فى أى مستشفى دفعت ثمن خطاياها ، إن لم يكن قد نهشها الجوع والمرض على أرصفة باريس .

– وأبى ، ياجدى ؟

– رحل . اختفى. قيل إنه ميت بدوره .

وهلى كان يكذب عليه ؟ كان كيفالارى فى السجن. تمكن فى المحاكمة أن يقدم الأدلة على خيانة زوجته ، لكن النيابة العامة أثبتت أن القتيل لم يكن على صلة بتلك المرأة. كان القتل من أجل الشرف ، لكن كيفالارى كان قد قتل رجلاً بريئًا ، لم يكن هو عشيق ماتينا . فحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات .

وباللهجة التى رد بها أليكسى على الصغير ، قصد أن يفهمه أن هذه المسائل لايليق به أن يستفسر عنها . فلم يكن الأمر ثقيلاً على الصغير فحسب بل وعلى العجوز أيضاً . فقد كان يجاهد ليقصى عن فكره وذاكرته تلك الحقبة الحزينة من حياته مثل مقبرة لم يكن يريد أن يراها . وكان يعيش على ذكريات الأيام الطيبة وعلى اللحظة الحاضرة.

وهكذا أتاح لجرحه العميق أن يلتئم. وأصبح صحابه يسمعون منه أطرف الأحاديث وأكثرها مرحاً .

يا لها من أيام تلك التى كان يقف فيها بعربته أمام فندق بريطانيا العظمى. عربته التى كانت أكثر عربات الأجرة أناقة فى أثينا. لم تكن لتقل عن تلك العربات ذات الخيول الثمانية التى كان السفراء وعلية القوم يدخلون بها إلى الفندق الفخم ويخرجون بها منه. كان معطف أليكسى الطويل من الصوف الأزرق. ويلمع عليه صفان من الأزرار النحاسية الكبيرة. وكان قفازاه الأبيضان نظيفين وحذاءاه يلمعان مثل المرآة. أما جواداه فقد كان يحسده تسيرونوفيتش عليهما ، ويعرض عليه أن يضمهما إلى الحظائر الملكية. ومن ذا الذى كان لايعرف آنذاك زيغرو وكورنيو وكاليغا وتيموليوندا فيليمونا. كان عالما بأسره. ناهيك عن لامبسى. لقد أوصل ثيوتوكى أكثر من مرة إلى تريكوبى. كيف يمكن للمرء أن يذكرهم كلهم. خذ جرائد تلك الحقبة ، خذ قائمة الأسماء التى كانت تذهب إلى حفلات الرقص الملكية. وستجد هذه الأسماء. فى حفلة قران ولى العهد ، عندما لم تكف العربات الملكية لنقل كل الأجانب الذين دعوا رسمياً ، استؤجر أليكسى للقيام بتنقلات دوق إسيكس وفى مرة أخرى استقلت عربته من فندق «بريطانيا العظمى» سيدة أجنبية ممشوقة القوام ، ترتدى ثوباً أسود وتغطى وجهها بغلالة رقيقة وطلبت إليه أن يقوم بتوصيلها إلى القصر. وصعد إلى جواره أحد مستخدمى الفندق ، نزل عندما وصلوا إلى القصر ، وقال شيئاً لأحد موظفى البلاط. وما لبث أن رأى أليكسى الملك قد حضر وتوجه إلى السيدة التى كانت تنتظر فى

داخل العربة. أجل ، الملك جورج بنفسه. وقد قبل يد السيدة ثم تأبط ذراعها ورافقها إلى داخل القصر. هل تعرفون من كانت؟ أوجينى ، أول إمبراطورة لفرنسا. وذات ليلة ، قام أليكسى بتوصيل بلانش إلى فيلاثون. وانتظر فى الخارج حتى الثالثة والنصف. وعندما غادرت بلانش الفيلا، ظهرت فى السماء نجمة الليل الأخيرة. ألا تعرفون بلانش؟ امرأة فرنسية مغامرة ، لكنها رائعة الجمال – وقد كتبت الصحف الأجنبية عند زيارتها لأثينا الكثير من التفاصيل عن علاقتها بناظر الخاصة الملكية الذى تعرف بها فى أيكس ليبين . أمور غريبة، كان يعرف شخصيات أثينا وأحداثها فى ذلك الوقت كما كان يمكن أن تمر أمام سائق عربة تحدث إلى بوابى الفنادق الكبيرة والقصور ، وإلى ركاب سكارى يحلو لهم أن يثرثروا، كان يعرف شخصيات أجنبية يحيطها الغموض ، وبيوتًا اتخذتها شخصيات معروفة أمكنة للقاء اتها. وكان يعرف أيضًا كيف تكونت بعض الثروات الكبيرة ، وقصصًا عن مغتصبى أراض أصبحوا من مشاهير القوم وعُمداً للمجتمع ، وتركات تخفى وراءها جرائم قتل مروعة .. من ذلك الصنف من الجرائم الذى لاتطوله يد القانون ، ثم فضائح كثيرة تمس شخصيات مشهورة فى أثينا. وبالرغم من ذلك ظلت مستورة وخافية ، صفعات عند مدخل الفنادق ، مبارزات لم يعرف كثير من الناس دوافعها الحقيقة ، لاتصدقوا أن عقول النساء قد خفت هذه الأيام ، لقد كن هكذا على الدوام .. كل مافى الأمر أنهن كن ينجحن فى تدبير أمورهن على نحو آخر. كن يرتدين ثيابًا كثيرة على أنهن ظللن من الداخل كما كن ، ولم يتغيرن. كان أليكسى يروى الكثير لكنه كان

يتحرج من ذكر الأسماء ، كان يكتم السر الذى يصل إلى سمعه أو بصره ، فقد علّمته المهنة ذلك جيداً ، ذات يوم كان يجلس فى مقهى الحى الصغير الذى يقيم فيه ومرت أمامه سيدة مسنة فى صحبة فتاتين ورجل ، فانفلتت من بين أسنانه الشتائم :

– أيتها المرأة القذرة !

وسأله الحاضرون :

– من تشتم ياشيخ أليكسى ؟

ونظر إلى النساء فى الطريق ، كانت الفتاتان فى ميعة الصبا حقا ، لم يكن أليكسى يعرفهما . واستدرك قائلا كمن يدافع عن نفسه :

– أنا شتمت أحداً ؟ لم أقل شيئًا .

– قلت أيتها المرأة القذرة .

وأجاب :

– تذكرت الخادمة التى لم تسق الجوادين هذا الصباح .

لكنه كان يكذب ، كان قد لفظ بالشتائم فى حق المرأة العجوز ، كانت معروفة إلى أهل الطبقة الراقية ، وكان أليكسى يعرف أموراً كثيرة فى حياتها . وعاد يتحدث عن أسرار المجتمع فى زمانه .

وكان يضيف إلى كلامه ملاحظات اجتماعية وأحكاما على قدر تصوره وعقليته ، وبميوله التأملية التى نمتها الحنكة والتجربة وعقليته

البسيطة المحدودة شيد وجهة نظر شاملة إلى أمور الدنيا .. هذا المجتمع يتحرك على عجلتين : حب المال واللهفة إلى الثراء. إن الناس غير قادرين على أن يجدوا راحتهم .. إنهم يعيشون ليلحقوا الضرر بالآخرين وبأنفسهم أيضًا وذلك لسببين كبيرين ، أولاً وقبل كل شيء ، إنهم لايستطيعون التفاهم فيما بينهم ، ما الجدوى من الألسن ؟ ما أشبه هذا العالم ببرج بابل .. ذات مرة عندما استأجر إنريكو سليمين أليكسي مدة أسبوع ليقله بعربته كل مساء إلى كيراميكو قال له سليمين بلغة يونانية ركيكية :

– لايريدون أن يفهموا إننى أحب اليونان .

وكان أليكسي يقول لأصحابه :

– جاء سليمين ليعطى هذا البلد كنوزه التى يأكلها التراب ، فقالوا عنه إنه مغامر أفّاق .. لعمرى. إنى أتساءل : لماذا ؟

لكن حتى أليكسي هذا ، الرجل البسيط ، من فهمه ؟ بعيداً عن جياده ، لم يكن يعرف أحداً يستطيع أن يتفاهم معه. وكان يقول :

– الجياد. الجياد فحسب .. هى عزائى !

كان جواداه المسكينان يجسان بأحاسيسه. كان يهز اللجام ويصفر. ويأتى صوتا معينًا بشفتيه ، وإذا بهما يمضيان بالعربة إلى حيثما يجب الذهاب ، كانا يقفان ويتحركان وينحرفان كما لو كانا يقرآن أفكاره .

اما السبب الكبير الآخر الذى كان يعزو إليه أليكسى نكبة البشر ، فهو أنهم لايستطيعون أن يفهموا أنهم عابرون فى هذه الدنيا ، يخطرون فيها لحظات ويرحلون ، فما الجدوى إذن أن تزعج جارك ، أن تسرق منه زوجته ، أن تتسبب فى أن يولد ابنك فى بيت غيرك ، أن تطمع فى أن يكون لك كل شىء ؟ إنك راحل غداً . لقد رحل كاليغاس. لقد رحل رويذيس ، ونيقولاوس روسياس ، وثون ، وتسيرنوفيتش - على أنه لم يكن يشير إلى أفراد أسرته قط : إلى زوجته وأولاده الذين رحلوا بدورهم - الجميع يرحلون. لماذا لاتمر نظيفًا من هذا الدرب الصغير دون أن توسخه ؟ إن حياة الإنسان قطرة ماء ، ما أن تقع حتى تجففها الشمس فتتبدد بخاراً ، ثم تعاود الوقوع قطرة أخرى وتتبخر من جديد. إنها قصة للتسلية ، ما الداعى أن تجهد نفسك من أجل أفراح وأحزان عابرة ؟ لم يعد لأليكسى الآن شىء .. حتى العربة ، والجوادين اللذين كان يحسده عليهما المشرف على حظائر القصر .. لم تعد له. كان مازال يرتدى حذائه العاليين القديمين ، وسترته من بقايا المعطف الصوفى الأزرق .. آخر معاطفه السابقة ، لم يعد يملك سوى عربتين يجر كلا منهما جواد يصرف عليهما ويؤجرهما لغيره ، عربتين لم يكن يجرؤ أحد أن يظهر بهما أمام الزبائن فى تلك الأيام الخوالى الجميلة. ولم يكن يحدوه إلى تشغيل هاتين العربيتين سوى لقمة عيشه ولقمة عيش ستاماتى .

ومع ذلك أحس أليكسى أنه أحسن حالاً من أى وقت مضى .. وعزا سكينة قلبه وصفاء مزاجه وتجدد شبابه إلى حنكته وخبرته بالحياة ، وإلى قدرته على مواجهتها بروح فلسفية ، ونسى أن كل هذه النعائم قد

جلبها له ذلك الصبى ، فى الوقت الذى كان قد بدا فيه يتهدم مثل عربته القديمة .

وفجأة ظهر الرجل الذى كان قد اعتبره أليكسى غير موجود. كان يطرأ على باله مثل هذا الخاطر من وقت لآخر ، إلا أنه كان يحاول فى كل مرة أن يطرد هذه الفكرة باعتبارها أقل الأمور احتمالا .

ذات صباح سمع خطوات رجل .. خطوات ثقيلة فى الفناء ، ورأى بالباب ستاماتى وقد وقف ينظر وجلاً إلى ذلك القادم ، فخرج العجوز بدوره ليرى من يكون ، رأى كيفالارى يقف عند باب الفناء يتطلع إلى الصبى. وعندما رأى كيفالارى العجوز تقدم إليه ، فأفسح له الطريق ليدخل ، تمتم كيفالارى بتحية الصباح ، لم يستطع أليكسى أن يجيبه ، إلا أنه بعد هنيهة تغلب على العقدة التى كانت تطبق على عنقه وقال له :

– اجلس .

وأشار له إلى مقعد بجوار المنضدة ، إلا أن العجوز ظل مقطب الحاجبين ، وبقى وجهه ينم عن أثر هذه المفاجأة غير السارة ، وقال له كيفالارى :

– لاتضايق نفسك. لن أبقى .

وأجابه العجوز :

– هيا اجلس ، هل تريد فنجانا من القهوة ؟

جلس كيفالارى وهز رأسه علامة النفىَ ، لم يكن يريد شيئًا . خيم الصمت برهة .

وسأله أليكسى لمجرد أن يقول شيئًا :

– أهى زيارة عابرة ؟

– أية زيارة عابرة ؟ جئت ليلة أمس من «أغينا» أمضيت الثمانى سنوات كلها فى السجن. الحمد لله أننى خرجت حيًا. الحمد لله .

لم يكن كيفالارى يعرف أحداً فى أثينا يتوسط للعفو عنه ، كما يفعل الجميع ، حتى أشدهم إجرامًا . كان أهله ومعارفه فى الإسكندرية ، وبعد هنيهة أضاف لائمًا :

– شكراً للأقرباء الذين جاءوا لزيارتى فى السجن وجلبوا ابنى معهم لأراه .. ولو مرة واحدة .. يبدو أن «أغينا» بعيدة من هنا بُعد المحيط .

كان كيفالارى محبوسًا فى سجن «أغينا» وكان اللوم موجها إلى أليكسى. الذى أجابه قائلاً :

– إذا كانت تقصدنى بكلامك ، فما الجدوى من مجيئى ؟ ألم تسل كم كلفتنى كل تلك الأمور ؟ كان لى بنت وفقدتها .. أرجو ألا نجتر أحزاننا الآن .. ما حدث ، حدث وقضى الأمر .. ثم عندما حضر شريكك بوستولى فى المرتين وسأل عن أحوال الصبى قلت له إنه إذا كان هذا مايشغلك ، فليطمئن بالك .. إنه هنا فى بيته .

وخيم الصمت من جديد ، ثم التفت كيفالارى نحو الصغير الذى كان يقف خارجاً فى الفناء قرب الباب ، وسأل :

– أهو هذا ؟

وأجاب أليكسى بالإيجاب ، ثم طلب من الصبى أن يخرج ليلعب فى الشارع ، فبادر إلى الانصراف :

وقال له كيفالارى :

– لا تصرفه. قل له إننى أبوه. ادعه للحضور .

بدا التردد على أليكسى ، فكرر عليه كيفالارى الطلب :

– هيا ، ادعه للحضور إذن .

خرج أليكسى ونادى الصغير ، وقال له إن ذلك الرجل فى الداخل هو أبوه الذى كان قد اختفى .

– لقد عاد ، وسيسافر من جديد ، تعال قبل يده .

وأدخل الصغير معه ، تلفت الصغير مرتبكاً وقد أمسك به من كتفيه ، وجذبه إلى حجره ، ومال وقبله. خيم الصمت من جديد ، لمعت الدموع فى عينيى الرجلين ، ارتعش فكا السجين السابق برهة ، ودارت حدقتا عينيه تحت أجفانه الكثيفة ، وتقلص جبينه ، كان كما لو أنه يغالب نحيبه. دس يده فى جيبه وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة. تنحى الصبى جانباً ، فقال له أليكسى وهو يجذبه :

– اذهب الآن ، والعب .

وقال له كيفالارى بصوت أجش :

– لاتذهب بعيداً .

توجس أليكسى خيفة منذ الوهلة الأولى ، على أن معالم الخطر أخذت تزداد وضوحاً . وقال العجوز :

– حسنا ، حسنا ، إنه لايذهب بعيداً ، والآن .. ستبقى لتتناول الغداء معنا .

ومضى أليكسى على سجيته يتحدث إلى كيفالارى حديثًا نابعا من القلب :

– سأرسل صينية من المكرونة إلى الفرن ، ويمكنك أن تقيم بالبيت إلى أن تتدبر أمور معاشك ، وتجد عملا ، عندى مرتبة وحاملان ويمكنك أن تنصب لنفسك منها سريراً ، وعندما تجد عملا ، وتريد أن تستقل فى الإقامة ، يمكنك أن تذهب بمعونة الله حيثما تشاء .

ورد عليه كيفالارى قائلا :

– كلا ، إنى راحل إلى الإسكندرية غداً ، جئت من أجل الصغير .

قال له أليكسى :

– إذن ، ابق معنا إلى غد ، لترى الصبى قليلا ، وبعد ذلك سافر على بركة الله .

قال كيفالارى :

- جئت لآخذه .

رفع أليكسى رأسه ونظر إليه ، كانت عيناه كما لو أصيبتا بحول مفاجئ. وظل فمه مفتوحاً لاينبس بكلمة .

كرر كيفالارى عليه القول :

- جئت لآخذ الصبى .

وسأله العجوز كما لو كان لم يفهم :

- من ؟ من ستأخذ ؟

- الصبى .

حرك أليكسى بيده علبة كبريت كانت على المنضدة. ثم تصنع الابتسام ، وقال :

- خل عنك ذلك. عد إلى صوابك ، ودعك من هذا الكلام. الولد على مايرام هنا.

على أن كيفالارى عاد يقول :

- اسمع ، لقد شرحت لك مقصدى بكل وضوح : جئت آخذ ابنى .. ورفع أليكسى صوته وقال :

- ما الذى يجديك من أخذ الصبى ؟ لاتبدو صحتك بخير ياولدى. ثم إنه لن يريد أن يذهب معك .. تعود على الحياة هنا معى .. ولايعرف غيرى .

وأجاب كيفالارى قائلاً :

- لا أستطيع أن أخوض معك فى أحاديث كثيرة .

فاعتدل أليكسى فى مقعده ودق بقبضته الغليظة على المنضدة ، وصاح قائلاً :

- مثل هذه الأعمال الخرقاء هى التى ضيعتكما وأطاحت بحياتكما معا ، صفيتما بيتكما ، تبادلتما الطعنات ، ودب فيكما العطن والفساد ، وزحف عليكما الخراب. ثم ها أنت تعود .. لم يمض على خروجك من السجن يوم واحد ، ولا تعرف أين تسند رأسك .. تعود لتطالب بالصبى .. أليس ثمة قطرة من الحياء ؟!

ثم أضاف مخفضاً صوته :

- اسمع ياجورجى .. مازلت فى شبابك ، فحاول أن تثوب إلى رشدك .. ماهذا الكلام الفارغ الذى تقوله لى عن سفرك إلى الإسكندرية ؟ لن ترحل من هنا ، ستبقى فى أثينا ، وهاهو بيتى تحت أمرك تقيم به إلى متى تشاء .. دعك من هذا الكلام . أنت بحاجة إلى نقود ، ويبدو عليك المرض ، اذهب ليفحصك الطبيب ، هذا هو الكلام المعقول ، أما ستاماتى فكف عن الحديث عنه ، وهل يذهب إلى الإسكندرية من ولد فى أثينا ؟ سيبقى هنا ليكبر ويصير رجلا ، كان يجدر أن تحضر امتحانه العام الماضى فى المدرسة ، إنه فى الثالثة الابتدائية ، وهو الأول بين الطلبة وأحسنهم سلوكًا ، بل إنه قدم مشهداً تمثيلياً مع اثنين من زملائه فى حفلة المدرسة ، آه ، لو رأيت كم كان ظريفاً وهو يؤدى دوره. سأل

الكل من يكون هذا الصبى ؟ كما أن خطه رائع الجمال .. ليتك ترى كيف يكتب الحروف مستديرة نظيفة وأنيقة بلا أدنى خطأ. ألم نذهب نحن أيضًا إلى المدرسة ومع ذلك فمازال توقيعي مثل نبش الدجاج ، رغم أننى لم أكن طالبًا غبيًا – أما هذا الولد فهو جد مختلف عنا. إيه ، هذا العفريت سيدخل الجامعة. سترى ذلك. اجلس هنا الآن ، حتى أذهب لأقول للخادمة أن تعد الأكل ، وترسله إلى الفرن ، وسنذهب بعد ذلك إلى الصيدلية حيث أعرف صيدليًا صديقًا لى سيصف لك مقويًا .. دواء وارد الخارج ، معبأ فى زجاجة جاهزة ، ستتعاطاه نقطا فى قدح من النبيذ ، قد يكون ثمنه مرتفعًا قليلاً ، لكن مفعوله فعال ، ويبعث الحياة فى العظام الرميمة ، ستتعاطاه ولن يمر أسبوع حتى تسترد عافيتك ، وبعد ذلك سننظر فى أمر البحث عن عمل لك ، وبالنسبة إلى أى مبلغ من المال تحتاج إليه – كما سبق أن قلت لك – ستجدنى رهن إشارتك. الحمد لله ، الخير موجود .

كان يلوح على كيفالارى أنه مريض حقًا ، فالهزال باد عليه ، وجلده قد اكتسى بلون التراب من جراء الحياة فى السجن ، لقد مرت عليه السنوات الثمانى كما لو كانت عشرين عامًا .

قال كيفالارى :

– لست مريضًا ، ولست بحاجة إلى نقود. بعث أهلى إلىّ من الإسكندرية ، لأذهب إليهم. لا أستطيع أن أترك ابنى هنا .

نهض أليكسى غاضبًا وقال :

– ليس لك أية صلة بهذا الولد ، لقد انجبتماه ولم تفكرا فى أمره ، وإلا لما قتلت أنت من قتلت ولما فعلت أمه مافعلت ، هل كنتما جديرين بأن يكون لكما ولد ؟ الابن فى كنفى أنا . إنه لى وحدى. أخذته مسكينًا بائسًا ، لف فى أسمال بالية ، مثل حثالة ألقى بها فى المجارى ، أرضعته وربيته .. وها أنت قد رأيته ولداً قوياً متين البنيان ، مثل جحش فى حظيرة وفيرة الطعام ، وتريد الآن أن تأخذه منى ، محال ، انزع هذه الفكرة من ذهنك .

ورد عليه كيفالارى بصوت ينم عن العزم والإصرار :

– ما الجدوى من كثرة الكلام .. ألا تعرف الأصول ؟ أنت عجوز .. كيف تريدنى أن أكون مستريح البال بعيداً عنه. ثم إننى أريده .. ألست والده ؟

رنت عبارة «أنت عجوز» فى أذنى أليكسى بشدة ، ربما كان كيفالارى على حق .. لم يكن يستطيع أن ينازعه فى هذا الأمر .. كان كهلاً ، طاعنًا فى السن جداً ، يبلغ من العمر الخامسة والسبعين. ثم أن ذلك الرجل كان أباه بطبيعة الحال ، وكان عليه أن يتوقع أن يحدث هذا يومًا من الأيام ، نهض أليكسى وأخذ يجوب الغرفة بخطواته البطيئة الثقيلة مستغرقًا فى التفكير .. ثم قال بعد قليل :

– من رأيى ألا نقطع فى الأمر اليوم ، فلنرجئه إلى غد ، ونعاود الحديث فيه ، ثم عليك أن تترك الولد الآن حتى يكمل سنته الدراسية

ويؤدى الامتحان فى الصيف ، وسأوفده إليك ، فكثير من المسافرين يأتون من الإسكندرية .

أصبح أليكسى الآن يبحث عن حل وسط ، يقنع به الأب برفق وهواده حتى يؤجل فراقه للصبى بعض الوقت وبعد ذلك ربما جاء الفرج، لكن كيفالارى نهض وقال له :

– ناد الولد وجهزه للسفر ، لأنى لا أستطيع البقاء وقتًا أطول من ذلك ، ولا أستطيع أن أعود اليك غداً .

ولما لم يحرك العجوز ساكنًا أضاف كيفالارى قائلاً :

– ستناده ، أم أذهب وآخذه وحدى ؟ وإذا أثرت المشاكل ، فيجب أن تعلم أننى سأضطر على أسوأ تقدير أن أرجئ سفرى إلى الأسبوع المقبل ، وسأنتزعه منك عنوة .. بأمر النيابة .

وخرج من الباب وصاح :

– ستاماتى .

جرى أليكسى إليه وقال له :

– لا تفزع الولد. انتظر .. سأحضره، سأكلمه. لاتتصرف على هذا النحو. ستأخذه ، طالما تريد ذلك. جازاكما اللّه على ما اقترفتما ..

وخرج إلى باب الفناء ، وأحضر ستاماتى ، وقال له :

– سيأخذك أبوك معه ، لماذا تنظر إلى هكذا ؟ إنه أبوك ، كنت تصدع رأسى دائمًا سائلا عما إذا كان سيعود ، ها هو قد عاد ، هيا،

الآن ، إنه مكان طيب حيث ستذهب .. الإسكندرية مدينة أجمل من أثينا .. وهناك أيضاً نهر عريض ، مثل بحر تتدفق أمواجه ، ألم تر في حياتك نهرا ؟ سترى إذن ، وهناك جياد .. جياد أصيلة .. جياد عربية .. وهناك قرود أيضًا .. إنك ترى هنا أناسًا وتقول عنهم إنهم قرود ، لكنك هناك سترى قروداً حقيقية ، وستكتب لى من الإسكندرية ،ستجلس بالليل وتحرر لى خطابًا ، بتلك الأحرف الكبيرة المستديرة التى تخطها فى الكراسة التى تكتب فيها دروسك ، وسأبعث اليك بالرد ، وتكتب لى من جديد .

وبعد ذلك ، جهز أليكسى حاجيات الصغير بنفسه ، وربطها فى لفافة ، وأعطى لوالده بعض النقود ، وقال له :

- هذه للصغير .

عندما رحل كيفالارى برفقة ستاماتى ، لم يستطيع أليكسى أن يصحبهما إلى باب الفناء إلا بكل صعوبة ، كانت ركبتاه المتحجرتان قد دب فيهما الخوار ، ولم يقو أن يقول سوى هذه الكلمات :

- رافقتكما السلامة .. سفر طيب .

عاد إلى الغرفة بخطى بطيئة ، لكنه قبل أن يدخل من بابها خر واقعًا على الأرض .. جرت خادمة الحظيرة واستدعت الطبيب . جلطة .. ومنذ ذلك الحين لم ينهض أليكسى من الفراش .. وزحف الشلل إلى جسمه رويداً رويداً ، لكنه كان سمحًا فى مرضه ، كما كان فى أيامه الطيبة

لم تبدر منه أية شكوى من أى شىء ، كان يتمتم محادثًا نفسه فحسب ، ومضت حالته تسوء يومًا بعد يوم ، وأخذ لايتعرف على من يقترب من فراشه ، وأصبح صمته متصلاً .

كانت خادمة الحظيرة تقول لبقية النسوة اللاتى كن يتجمعن عند باب الفناء :

– كم يتعذب المسكين ، منذ أسبوعين تقريبًا وهو يرى ملاكه وفى بعض الأحيان ترتسم الابتسامة على شفتيه ، لم يكن رجلاً شريراً .

وهكذا لفظ أليكسى أنفاسه الأخيرة ، بينما كان يرى ملاكه طيلة أسبوعين ، لكن ماذا كان هيئة ذلك الملاك حتى يبتسم له أليكسى ؟ أكان يشبه أولئك الأشخاص الذين أحبهم ، وأخذ الموت منهم بعضهم ، وأخذت الحياة منه البعض الآخر ، أم كان يشبه جياده ، تلك المخلوقات الوحيدة التى استطاعت أن تفهمه ولم تحزنه قط ؟.

صداقة

ليليكا ناكو

نيكو أدزامى ، كان هذا هو اسمه .. وجدوه عند مفرق الطريق بعد بضع خطوات من البنك الأهلى ، وجدوه ملقى على الأرض يبكى. وقع منه عكازه فى الطين ، وساقه عارية مثخنة بالجراح .. كان يناهز الحادية عشرة من العمر ، لكن الجوع قد طمس معالم سنه ، ذلك الجوع الذى يصبغ الشعر والبشرة بلون مبهم غير محدد. إلى جوار الصبى وقف كلب يلعق رجله ، وكان الناس الذين تجمعوا يحاولون أن يطردوا الكلب ويرمقون الصبى بنظرات الإشفاق ، لكنه كان يصيح بين الفينة والفينة «إنه كلبى .. ! لاتضربوه» ومهما أمعن الناس فى طرد الكلب ، لم يكن يبتعد عن الصبى .

هذا ما أخبرتنا به فتاة طيبة القلب ، أحضرت أدزامى إلى المستشفى فى عربة .. عربة يد رديئة الصنع .. من تلك العربات التى كانت تصنع آنذاك من قطع الخشب المهملة ومن صناديق تركب تحتها عجلتان ، وكانت تستخدم لكل أغراض النقل .. كانت عربة من تلك

العربات وليدة الفقر والحاجة ، التى كنت تراها فى شوارع أثينا محملة بالأجولة والبشر والجثث .

وضع أدزامى فى عربة من هذا القبيل ، كان عاجزاً عن المشى بسبب ساقيه المقروحتين ، فقد كان يعانى نقصًا شديداً فى التغذية وتدهوراً عاما فى صحته .. عربة اليد فى المقدمة ، يدفعها صبى آخر من ماسحى الأحذية ، والكلب وراءهما. ثم الفتاة بعد بضع خطوات .. هكذا وصل الموكب إلى المستشفى صبيحة يوم من أيام الربيع .

كانت الفتاة تستعجل الانصراف ، لأنها كانت تعمل فى أحد المكاتب ، أخرجت من جيبها نقوداً ودفعت ثلاثمائة وخمسين دراخمة أجرة العربة من «أومونيا» إلى «رازاريو» وكان ذلك المبلغ يعتبر ثروة كبيرة فى تلك الأيام ، كان العرق يتصبب من جبينها لأنها كانت تعدو طوال الطريق لتلحق بالصبيين .

قالت الفتاة لرئيسة المرضات :

– لم يكن بوسعى أن أفعل غير مافعلت ، وأترك الصبى ملقى على الرصيف .. كانت كمن تريد أن تبرر تصرفها هذا .. وأضافت تقول :

– لم يقدم أحد على رفعه من الأرض ، كل الناس ينظرون إليه ولا يصنعون شيئًا .. كانوا يهزّون رءوسهم ثم يمضون لحال سبيلهم .

ثم أخفضت صوتها وقالت لرئيسة المرضات التى يبدو أنها كانت تعرفها من قبل .. قالت لها كما لو كانت تعترف لها على حين غرة :

– وأتى هذا الصبى بإشارة من يده مفعمة باليأس والضياع .. إشارة مثل تلك التى أتاها أبى بيده قبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ! فانتابنى شىء هنا فى قلبى .

هذا ماقالته الفتاة ، كان اسمها ليليكا – على ما أذكر – كانت تعطى دروسًا فى العزف على البيانو ، على حد ماقالته لنا .. وأضاعت درسًا الليلة حتى تنقل أدزامى إلى المستشفى ..

يبدو أن الصبى كان قد راق لها أيضًا وأرادت أن تأخذه فى كنفها. ربما كان قلبها يفيض بالرقة والحنان ، فقد كانت ماتزال شابة .

قالت له : «ابق هنا يانيكو ، وعندما أحضر غدًا سأجلب لك حلوى .. اجتهد أن تسترد عافيتك. أن تأكل ، وتتقوى وعندما تشفى ، سأعثر لك على عمل ، حتى تصبح ذات يوم رجلاً صالحًا وشريفًا. هل تريد ذلك حتى لاتجوب الشوارع وتألف التسول فيها؟» .

كان نيكو أدزامى يسمع كل هذا الكلام ، ويهز رأسه ، ولكن عينيه كانت – على مالاحظت – منصرفتين نحو الباب. كان جالسًا على المقعد الخشبى هناك فى غرفة الاستقبال بالمستشفى . إنى أذكر ذلك جيداً .

سألته الآنسة ليليكا التى لاحظت نظراته : «هل تريد الانصراف ؟ أين ستذهب ؟ لعلك تعودت أن تهيم فى الشوارع ».

وأجاب أدزامى قائلاً : « كلا لا أريد الانصراف. لكن هل أترك كلبى خارجًا ؟ ».

وقال له ممرض عابر استوقفه الحديث بين الصبى والفتاة :« كلبك ؟ لاتشغل بالك بالأمر كثيراً. سيتخذ تجار السوق السوداء اللازم فى شأنه ! سيبيعونه على أنه حمل صغير .. وبدلا من أن يأكل .. سيؤكل » .

ضحك الجميع من فطنة الممرض وسرعة بديهته. وقد كانت نكتته من النكات التى تستهوى الذوق فى ذلك الحين. على أن نيكو أدزامى لم يضحك قط. طأطأ رأسه وزادت نظراته انخفاضاً . لا أعرف ماذا فعل بوجهه فبدت عيناه محاطتين بمئات التجاعيد كما لو كان عجوزا طاعنا فى السن. أجل لم يضحك. بل استغرق فى التفكير ، وعاود التطلع إلى الباب.

فى تلك الساعة دخل أحد الأطباء. نظر إلى نيكو ، وفهم من أول نظرة مما يشكو .

قال : «بيلا جرا»

وهذا أيضاً مرض من أمراض العصر الذى نعيش فيه. يعانى الجلد أول الأمر ثم يتشقق وتظهر الجروح. لكن إذا بادر المرء إلى أكل البيض وزيت الزيتون ، وشرب اللبن ، يشفى وتندمل الجروح .

لكن منذا الذى كان بقادرٍ فى تلك الأيام على أن يشرب لبناً ، ويأكل بيضاً وزيتاً ؟ زيتاً من أشجارنا! ومن أين لأدزامى المسكين أن يجد هذه الأشياء ؟ كان هو الآخر من «بيريه» ومن كانت تقذف بهم بيريه إلى أثينا كانوا أشد جوعاً وبؤساً .

ومضت رئيسة الممرضات فى أسئلتها المألوفة :

– والدك ووالدتك ؟

– فقدتهما .

– إخوتك ؟

– ليس لى أحد .

– بيتك ؟

– كنت أبيت تحت أطلال عشة فى صحبة كلبى ، الذى يمنحنى الدفء ، ويؤنس وحدتى .

– حسنا ، إذن .

ولم تجد رئيسة الممرضات ما يمكن أن تسأله عنه غير ذلك .

– اجلس هنا .. سيأتون ليحلقوا لك رأسك ، وتستحم ، ثم يحملونك إلى السرير ، ويحضرون لك الطعام .

وقالت له الآنسة ليليكا :

– ستصبح نظيفًا. لاتحاول الفرار من هنا حتى تلتئم جراحك. هل تسمع ما أقول لك ؟

وأومأ أدزامى برأسه موافقًا ، وقال :

– حاضر .

لكن نظراته مالبثت أن اتجهت إلى الباب .

قلت لنفسي «لابد أنه يفكر في كلبه » وعندما مررت فيما بعد من الممر أمام الطابق الأرضي رأيت كلبًا أبيض من كلاب الشوارع ينتظر إزاء الباب مثلما ينتظر الإنسان .

كان يتلفت حوله قلقًا ، وقد لمع الذكاء في عينيه ، ليرى من يدخل ومن يخرج. وكلما فتح الباب حاول أن يمرق إلى الداخل ، لكنه سرعان ما كان يطرد ، فيعود إلى وقفته المترقبة .

قلت لنفسي بسرعة ، لابد أنه كلب أدزامى ، رفيقه الذى أمضى معه فصل الشتاء ، ذلك الشتاء المخيف قارص البرد الذى لم تر أثينا شتاء مثله من قبل. ومر الاثنان بخاطرى : الصبى والكلب يقضيان ليالى الشتاء الضارية متعانقين فى العشة المهدمة التى كان يدخل إليها البرد والريح من كل مكان. ومثل أمام ناظرى المشهد خارج بيريه كما أعرفه ، قاحل ، كئيب ، وعلى مبعدة ، بضعة تلال حجرية جرداء ، وبضعة مصانع معدمة ، وأبعد من ذلك بكثير فى اتجاه «مارى جرجس» البحر الذى كان يهدر بدوره فى أعماق الليل والخلاء. وهذان المخلوقان من مخلوقات اللّه فى عزلتهما تحت أطلال عشة مهدمة فى الظلمة. يصفعهما ريح الشمال ، فيحتضن أحدهما الآخر بشدة ويلتصقان حتى يواجهان معًا البرد والخوف. مخلوقان من مخلوقات اللّه : أحدهما نيكو أدزامى والثانى كلب من كلاب الشوارع .

أقعى الكلب هناك وقتًا طويلاً ومضى ينتظر. عندما مررت مرة أخرى من الممر - بعد أن قضيت بعض الأعمال فى الجناح الآخر من المستشفى - رأيته مازال واقفًا لم يبرح مكانه. كان ينتظر. لم يكن يريد الانصراف .

لعل الكلب مضى ينتظر وقتًا طويلاً بعد ذلك. لعله انتظر ثم استبد به اليأس ، فصديقه لم يعد له أثر. ربما قرصه الجوع ، فمضى يجر خطاه منصرفًا، ربما هام محنى الذيل من شارع إلى شارع إلى أن ينزوى بدوره ذات صباح وحيداً مهملا وبلا أمل فى أحد الأركان ويموت. كان هذا مصيره ، كما هو مصير كثير من الكلاب ، وكثير من البشر أيضًا. أن يموتوا مهجورين مهملين فى أحد الأركان. كم من كلب وكم من إنسان رأيناهم يموتون فى ذلك الشتاء على قارعة الطريق ! وكانت عيون الكلاب مفعمة بالانتظار وهى تترقب الموت ! لايطرف لها جفن ولاتضطرب ، عدا الفخذين ، فربما ارتعدتا قليلا من البرد. وعلى مقربة منها فى الطريق يتدفق الخضم الرحيب من جموع البشر الذين يهرعون. مضطربين وقد ارتسمت على قسماتهم إمارات القلق ، يحاولون العثور على طعام يشترونه ، ليأكلوه هم وأولادهم ، قبل أن يتكوموا بدورهم فى ركن من الأركان وينتظروا الموت .

ولئن كان كلب أدزامى قد عاش حتى الآن ، ولم ينفق جوعًا مثلما نفقت كل الكلاب الأخرى في أثينا وبيريه ، فلأن الصبى الصعلوك أدزامي كان سيده ، وكانا يتقاسمان معًا لقمة العيش كل يوم ، أما الآن فمن ذا الذى سيعطى لكلب أدزامى ما يأكله ؟

ربما دارت كل هذه الأفكار فى ذهن نيكو أدزامى ، عندما كانوا يحلقون له شعره ويعدونه للاستحمام. هذا ما كان يقلبه أدزامى فى رأسه .

«ماذا أريد هنا وسط الزفرات والصياح وعويل الأطفال الذين يستحمون ؟ عما أبحث وسط هذه الجلبة ، والناس الأغراب بمقصاتهم وقطع الصابون فى أيديهم ؟ وبالليل من سيكون إلى جوارى يسليني؟ «وبوبى» ، ماذا سيفعل وحده ؟ وإذا عاد الإنجليزى الذى أعطانى الكلب ، بوبى، وطالبنى به ماذا سأقول له ؟ لقد أكلت عيشًا كثيراً عنده. كنت أنظف له حذاءه. كان صندوقى مازال معى. لم يكن قد سرقوه منى بعد. وعندما رحل ترك لى الكلب وقلت له «أول رايت ، يس ! سافر مطمئن البال ! سأحافظ على كلبك ، لأنى أحب الحيوانات !» .

وتم الاتفاق بين الإنجليزى والصبى بالرغم من أنهما لم يكونا يعرفان لغة مشتركة يتحدثان بها .

طاف كل ذلك بذاكرة نيكو أدزامى أثناء حلاقة رأسه ، بالآلة الصغيرة ذات الموسى الحادة. طاف كل ذلك بذاكرته رغم تألمه أثناء الحلاقة ، لأن رأسه كانت بها قروح ، وأطلق الصرخات .

كم كان أولئك المشرفون على المستشفى لايحسنون عملهم ! بدلا من أن يعطوه طعامًا ليأكل أجلسوه وحلقوا رأسه . ألم يكن ذلك سببا ليدب النفور فى قلب صبى التقط من الشارع وجيء به إلى حيث قيل له إنه سيكون أحسن حالاً ؟

دب النفور في قلب أدزامى بدوره وخاف ، كما أرقه القلق على كلبه. وصار كالحيوان الحبيس يترقب اللحظة التى ينطلق فيها هارباً. ولعن فى سره تلك التى غررت به وأتت به إلى هنا. وفي لحظة كان الجميع من حوله منشغلين عنه وذلك عندما تركه الحلاق ليتولى أمره المرض الذى سيغسله ، اختفى أدزامى عن أنظارهم ، وبخطوات عرجاء أفلت منهم .

مضى يتخبط بعكازيه ملتفتا يمنة ويسرة ، ينهش الخوف قلبه خشية أن يروه. وخرج إلى فناء المستشفى الذى كان غاصًا بالناس يتدافعون ويصيحون ويستجدون مكانا وسريراً بالمستشفى. فى خضم هذا الصخب لم يكن أحد لينتبه إلى أدزامى .

وقال أدزامى لنفسه : «هاهى فرصة طيبة لأهرب ، وأخرج من هنا !» .

عند الباب فحسب صاح فيه البواب قائلا : «أنت ياولد ، أين تذهب ؟ ألم يسمحوا لك بالبقاء؟ » .

وأومأ الصبى برأسه علامة النفى ، وأسرع بالإفلات من الباب المفتوح إلى الشارع الرحيب. ستسألوننى كيف وجد أدزامى فى نفسه القوة الآن ليمشى على قدميه بينما لم يكن له هذه القدرة عندما أحضرته الآنسة ليليكا محمولاً على عربة ؟ هيه ، هذه ألغاز تعودنا عليها نحن الذين نتعامل مع الأحداث المشردين. فضلاً عن مكرهم الشديد .

وفضلاً عن رقادهم وادعائهم المرض ، عندما يريد أحد أولئك الصبية أن يهرب من المستشفى ، فإنه سيجد لنفسه الوسيلة حتى لو كان على شفا الموت ! إن الخوف ينبت للخائفين أجنحة .

وعندما نزلنا تحت المرضات لنأخذ أدزامى كان فص ملح وذاب !

بحثنا عنه هنا وهناك ، لكنه كان قد اختفى !.. نادينا عليه وخرجنا إلى الفناء ، لكن لم يكن ثمة جدوى .

وقال أحد المرضين ضاحكاً «لابد أنه هرب مثل ذلك الصغير الآخر الذى جلبوه على نقالة بين الحياة والموت» ثم تمتم يقول لنفسه : «هل تحبس العصافير فى القفص بسهولة !» .

وعندما جاءت الآنسة ليليكا بعد الظهر ولم تجد الصبى كان حزنها لا حد له . «راح تعبى ، والدرس الذى فوته على نفسى من أجله» .

وصاحت رئيسة المرضات :

– أهذه أحوال تسر فى هذا المكان ؟

وأردفت تصيح من جديد .

– أهكذا إذن ترعون الأولاد ؟ .

وهمهم المرضون قائلين :

– كأنه أول ولد أو ثانى ولد يهرب منا ، ألا تعرف أن أولاد الشوارع من الصعب أن ينصلح حالهم ؟ لماذا تصيح ؟ ألف هؤلاء الصبية حياة الصعلكة .

وانتهز الحلاق الفرصة ليروى كيف أن أحد الصبيان فر من يديه ذات يوم وهو يحلق له. فر فى اللحظة التى استدار يتناول فيها المقص ، وأفلت برأسه نصف محلوقة .

راح إذن أدزامى. وضحكت إحدى الممرضات المكلفات بغسل الأولاد وقالت :

- ماذا تنتظرون من صعلوك مثله؟ .

كان يمكن أن تنتهى حكاية أدزامى عند هذا الحد. تنتهى هكذا بكل بساطة ، مثل كل حكايات الناس والحيوان أيضاً ، التى تصل إلى نقطة ما ثم تتوقف . وتمضى فى طريقك ، وتنصرف إلى حياتك وتنساها. لكن فى بعض الأحيان وبلا أدنى سبب ، تتذكرها فجأة فينتابك الشجن لما تقصه تلك الحكايات الحزينة عن الحيوان وعن البشر ، ثم لاتلبث أن تحاول نسيانها من جديد حتى تقوى على الحياة ، وتنجح فى نسيانها. على أن القلب يظل ثقيلا ويزداد ثقله كلما تقدم به الزمن .

لكن حكاية أدزامى لم تكن لتنتهى بعد. ذات ليلة ، فى ساعة متأخرة ، كنت عائدة من عملى وحيدة ، أذرع الشوارع المظلمة مسرعة ، بل كنت أجرى. كنت أجرى فى الظلمات المخيمة على شوارع أثينا. وكانت تدوى فى أذنى تلك الصيحات المخيفة التى كان يطلقها الجياع والتى كانت تشبه مواء القطط. كنت أسمع عبارة «أنا جوعان» تنطلق من الأفواه فتزلزل أعماق القلب ، ويتراءى البشر يهيمون مثل أشباح فى الجحيم كتبت عليها اللعنة ، يئنون ويتخبطون فى مشيتهم كالسكارى ثم يسقطون فجأة على الأرض ويصّمتون .

أجل ، فى ليلة مثل هذه أثناء عودتى من المستشفى ، وكنت أحذر فى مشيتى أن أرتطم بجسد إنسان ملقى على الأرض ، وأمسك فى يدى

مصباحى موقداً ، رأيت مشهداً غريباً ، هناك على عتبة كنيسة القديس ذيونيسى .

صبى منكس الرأس يبكي بحرقة ، وقد ضم شيئًا إلى صدره ، وقلت لنفسى لعله يحتضن طفلاً ، لكننى عندما اقتربت منه وصوبت ضوء المصباح إليهما تبينت أن الصبى غارق فى الدماء وأن الذى فى حضنه ، واعتقدت أنه طفل ، كان كلباً .

كان الصبىِ حزيناً لا يعزيه شيء . وكان الظلام من حوله دامساً وشعوره بالعزلة مريراً ، وهو يذرف الدمع مدراراً فى أعماق الليل البهيم. كان كل شيء أليماً موجعاً يمزق القلب .

وقفت وسألته :

– هل بك ألم ؟ هل ضربك أحد ؟ لماذا تبكى ؟

لكن الصبى لم يجب ، واشتد نحيبه. وأصررت على السؤال. وأجابنى الصبى فى النهاية دون أن يرفع رأسه .

– لم أضرب أنا. صدموا كلبى !. ومضى فى النحيب .

– قتلوا كلبى ! ألا ترين ؟ مر موتوسيكل منذ قليل ، وصدم كلبى ! آه ، لوكنت سمعته كيف كان يعوى ! جريت وأخذته بين يدى .. لكن ها هو الآن قد صمت ، لابد أنه مات .

وعاود الصبى البكاء والتشنج .

قلت له :

– تعالى معى .

لم أتلق أية إجابة من الصبى. كان ماضيًا فى البكاء منكبًا على الكلب الممسك به فى أحضانه .

– وماذا ستفعل الآن ؟ .. هل ستظل متشبثا بالكلب هكذا ؟ دعه ، وتعال معى .. رفع عينيه ونظر إلىّ. لكن عندما تبين لباس المستشفى الذى كنت أرتديه خاف وهم بالابتعاد .

أمسكت به من يده ، وقلت له :

– انتظر . لاتنصرف . أعرف أنك أدزامى . لن أذهب بك إلى المستشفى .

تعالى إلى بيتى ، معى . دع الكلب فى ركن من الأركان ، ماذا ستفعل به ؟ لقد مات. ألا ترى ؟

لكن الولد ما أن سمع ذلك حتى زاد انفعاله ، وصاح :

– أبداً ! أبداً! لن أدعه ، لن يلقى إلى الشارع ولن يرمى فى القمامة . سأذهب لأدفنه فى المنتزة الكبير حيث نمنا أمس، وحيث كنا نتام مؤخراً متعانقين ، تحت إحدى الأشجار .

وخنقت العبرات صوته ..

ثم أردف يقول :

– وكل ليلة سأذهب لأنام هناك ، حتى لا أتركه وحيداً .

نطق أدزامى بهذه الكلمات على عجل ، لاهثا ، كما لو كان قد جرى شوطًا بعيداً ، وبغضب أيضًا . وقد ارتسم على وجهه تعبير من اليأس الوحشى ليس بإمكانك أن تتصوره على وجه صبى صغير مثله .

ثم نزع نفسه من يدى بعنف واختفى فى ظلمات الليل محتضناً كلبه المقتول متشبثًا به . اختفى من أمامى كشبح صغير من أشباح الجحيم. وكان من الصعب العثور عليه بعد ذلك .

ظلم صارخ يجرى

نيقوس كازندزاكى

أمضيت سنى حياتى الأولى مثقلاً بهموم الصبا. استيقظ بداخلى وحشان كبيران ، نمرة رقطاء هى الجسد ، ونسر نهم ينهش أحشاء الإنسان ، وكلما زاد مايلتهمه زاد جوعه ، وهو العقل .

عندما كنت لا أزال جد صغير ، أبلغ من العمر ثلاث سنوات أو أربع ، تملكتنى رغبة شديدة فى أن أزيح النقاب عن لغز الحياة. مضيت أسأل أمى. مضيت أسأل خالاتى: كيف يولد الأطفال ؟ كيف يدخلون البيت فجأة ؟ من أين يجيئون ؟ كنت أفكر فى الأمر ، لابد من أن هناك بلداً أخضر ، وربما كان هو الفردوس أيضًا ، فيه ينبتون. مثل زهور برية حمراء. أجل ، ينبت الأطفال هناك. ومن وقت لآخر، يدخل أحد الآباء إلى الفردوس ، يقطف إحدى هذه الزهور ، ويحملها إلى البيت. قلبت هذا الفرض فى ذهنى ، لكننى لم أكن أميل إلى تصديقه كثيراً . وكانت أمى وخالاتى لايعرننى التفاتا ، أو يقلن لى بعض الأساطير التى ماكانت بدورها تشفى غليلى إلى المعرفة. كنت أعرف على أى حال أكثر مما كن يعتقدن ، وما كنت أصدق شيئًا مما يقال .

وعندما ماتت ذات يوم من أيام تلك الحقبة جارتنا السيدة كاتينا ، وكانت لاتزال شابة ، رأيتها تُحمل راقدة على ظهرها ويخرج بها حاملوها هكذا من باب بيتها ، ويتبعها أناس كثيرون. ويميلون مع الزقاق الضيق ، ثم يختفون. استبد بى الخوف ، وسألت «لماذا أخذوها ورحلوا؟» ثم عدت وسألت «إلى أين يذهبون بها ؟» لكن ما من أحد شرح لى معنى ذلك. انزويت فى ركن من أركان البيت خلف الأريكة ، وضعت وسادة على وجهى ، وشرعت فى البكاء لا عن حزن ، ولا عن خوف ، بل لأننى لم أكن أفهم. لكننى بعد بضع سنوات ، عندما مات مدرسى كراساكيس ، وجدت أن الموت كان قد كف عن إخافتى ، كما لو كنت قد فهمت ماهيته ، وما عدت أسأل .

هذان الأمران ، الميلاد والموت ، كانا بالنسبة لى السرين الأولين اللذين أقلقا روحى أيام الصبا. كنت أدق بقبضتى الغضة هذين البابين المغلقين ، كى ينفتحا. وقد تبينت أن ما من عون أستطيع أن أنتظره فى هذا من أحد. كان الجميع يلزمون الصمت إزائى، أو يسخرون منى. وأيقنت أن مايعنّ لى أن أتعلمه سوف أتعلمه وحدى .

ورويداً رويداً ، كان الجسد بدوره يستيقظ ، مملكتى تلك التى كانت مكونة من سحب وتوقعات ، أخذت تتماسك. كنت أسمع شتائم الشارع ، ولم أكن أدرك بوضوح ماذا يقصد بها ، لكن خيل لى أن بعض هذه الشتائم حافلة بدلالات مجرمة خفية. لذلك صرت ألتقطها وأصنفها فى عقلى ، وكنت أرددها بداخلى كى لا أنساها. على أنه ذات يوم أفلتت منى إحدى تلك الشتائم. تلفظت بها بصوت مسموع ، وسمعتها أمى ، فانتفضت مرتعبة. صاحت فى قائلة :

– من قال لك هذا الكلام السيئ ؟ لاتنطق به مرة أخرى .

دلفتْ إلى المطبخ ، وأحضرتْ فلفلا مسحوقًا ، دهنتْ به شفتى. أطلقتُ الصراخ ، فقد التهب فمى كله ، لكننى أقسمت لنفسى – لقاء إصرارها غير المبرر فى نظرى – أن أردد هذه الأقوال سراً ، لأن الفرحة التى كنت أستشعرها ، وأنا أنطق بها كانت كبيرة .

ولكن منذ ذلك الحين ، صار كل قول محرم يحرق شفتى ، وتصعد إلى أنفى رائحة الفلفل. وذلك حتى الآن ، بعد كل هذه السنين ، وبعد ارتكابى العديد من الخطايا .

فى تلك الحقبة القديمة ، كانت المراهقة تستيقظ فى بلدتنا جد متأخرة ، وقد استبد بها الخجل ، ساعية إلى الاختفاء وراء العديد من الأقنعة. وقد كان قناعها الأول بالنسبة لى هو الصداقة. وقد توطدت أواصر ملتهبة بينى وبين تلميذ عادى من رفاق المدرسة ، ربما كان أقلهم أهمية ، بدينًا ، قصيراً ، معوج الساقين ، ذا جسم رياضى ثقيل ، وبلا أدنى فضول روحى. وقد بدت لى صحبة صبى مثلى أكثر ملاء مة وأقل خطورة من صحبة صبية. كنت أشعر بنفور غريب مشوب بالخوف متى قابلت امرأة. وعندما كانت تهب ريح فتزيح حافة ثوبها ، كنت أشيح بوجهى فجأة ، وقد احمر وجهى خَجلاً وعناء .

مع صديقى هذا ، وزميل آخر من زملاء المدرسة ، نحيل العظم ، قليل الكلام ، ذى عينين زرقاوين خضراوين ، أسسنا فى إحدى

الإجازات الصيفية جمعية سميناها «جمعية العدل». كنا نجتمع سراً ونتبادل قسماً تلو قسم ، ووقعنا فيما بيننا مواثيق ، حددنا فيها الهدف الذى سنعيش من أجله : أن نحارب طوال حياتنا بلا قيد أو شرط - نحارب الكذب ، والعبودية ، والظلم. بدا لنا العالم كاذباً ، ظالمًا ، شريراً. أخذنا على عاتقنا ، نحن الثلاثة ، أن ننقذه. انفصلنا عن زملائنا فى المدرسة ، ومضينا نسير ثلاثتنا على الدوام معًا ، نستعرض خططًا توصل إلى أهدافنا ، ووزعنا على كل منا المجالات التى سيحارب فيها. سأكتب أنا ، هكذا قلنا ، أعمالا مسرحية ، وسيصبح صديقى ممثلاً يؤدى أدوارًا فيها ، أما ثالثنا الذى كان متيمًا بالرياضيات ، فسوف يصبح مهندساً ، كى يخترع اختراعًا كبيراً ، يثرى بدخله خزائن «جمعية العدل» وبذلك يتسنى لنا جميعاً أن نساعد الفقراء والمظلومين .

وإلى أن تأتى هذه اللحظة الكبرى ، كنا نفعل كل ما بإمكاننا حتى نظل أوفياء لما أقسمنا عليه. تحاشينا الكذب ، وكنا نضرب فى الأزقة المهجورة كل من نلتقى به من أولاد المحتلين الأتراك ، وخلعنا الياقات وأربطة العنق ، وارتدينا سترات ذات خطوط بيضاء وزرقاء ، وهما لونا العلم اليونانى .

على أننا فى ليلة شتائية ، رأينا فى الميناء حمالا تركيًا عجوزاً ، انزوى فى ركن يرتعد من البرد عارياً. كان الظلام قد أرخى سدله ، ولم يعد يرانا أحد. خلع إحدنا سترته ، وخلع الآخر قميصه ، وثالثنا خلع صدريته. وأعطينا الحمال العجوز ملابسنا. أردنا أيضاً أن نعانقه لمواساته ، ولكن لم نجرؤ على ذلك. انصرفنا خجلين ، وقد أثقل الحزن قلوبنا ، لأننا لم نؤد نحوه واجبنا كاملاً .

اقترح صديقى علينا «أن نرجع ونبحث عنه».

قلنا «هيا!» .

عدنا أدراجنا نجرى. بحثنا عن الحمال العجوز ، كى نأخذه بالأحضان ، نواسيه ونشد أزره ، لكنه كان قد رحل .

وذات مرة أخرى ، علمنا أن محامياً كبيراً من بلدة مجاورة كان قد خطب فتاة غنية ، وتقرر أن تجرى مراسيم القران يوم الأحد التالى ، ولكن فى هذه الأثناء جاء ت من أثينا فتاة فقيرة ، على غاية من الجمال ، كان المحامى يعاشرها عندما كان طالبًا يدرس بالعاصمة ، وكان قد وعدها بالزواج. وما أن وصل إلى علمى نبأ هذه الفضيحة ، دعوت «جمعية العدل» للانعقاد. واجتمع ثلاثتنا بغرفتى ، عندنا فى بيت الأسرة ، وقد عمنا السخط ، فإن هذا الظلم ماكان بإمكاننا أن نسكت عليه. تناقشنا ساعات فيما يجدر أن نقوم به من إجراء إزاء ذلك . وفى النهاية ، اتخذنا قراراً بأن نقابل ثلاثتنا أسقف البلدة ، ونطلعه على هذا العمل غير الأخلاقى. كما أرسلنا خطابًا موقعًا منا باسم «جمعية العدل» إلى المحامى ، وهددناه بأنه إن لم يتزوج دوروثيا – كان هذا اسم فتاة أثينا – فسوف يلقى حسابًا عسيراً من الله ومنا .

ومن ثم ارتدينا أفضل ثيابنا ، ومثلنا أمام الأسقف. كان عجوزاً نحيفًا ، مصدوراً ، على غاية من الدهاء ، تتقطع أنفاسه أثناء حديثه ، لكن عينيه كانتا تومضان مثل جمرتين متقدتين. على مكتبه وضعت صورة المسيح ، كان مسيحاً متورد الوجنتين ، ممتلئ الجسم ، وشعره

مفروق عند الوسط ، وأمامه أيضاً وضعت صورة كبيرة من أعمال الحفر القديسة صوفيا. نظر إلينا الأسقف بدهشة مشوبة بشيء من الانزعاج .

قال :

– ماذا حدث ، يا أولاد ؟

شرعنا نتحدث إليه معًا مبهوري الأنفاس ، وقد عمدنا إلى الصياح كى نتشجع على الكلام .

– ظلم صارخ ، ظلم صارخ يجرى .

سعل الأسقف ، وبصق فى منديله الصغير. ثم قال ساخراً .

– ظلم صارخ ؟ وما شأنكم أنتم به ؟ ألستم تلاميذ ؟ التفتوا إلى دروسكم .

– ياسيدنا المبجل .

وبذلك شرع يتكلم صديقى الذى كان أكثرنا بلاغة ، وقص عليه الفضيحة الاجتماعية كلها. واختتم صديقى قائلاً :

– لن يكون بإمكاننا أن نذوق طعم النوم ، ياسيدنا المبجل ، لن يكون بإمكاننا أن نلتفت إلى دروسنا إن لم يرفع هذا الظلم أولاً. يجب أن يتزوج المحامى من دوروثيا .

سعل الأسقف من جديد. وضع نظارته على عينيه ، ونظر إلينا طويلا. بدا لنا وجهه ، وقد انسكب إليه نوع من الإشفاق الغريب. ترقبنا كلامه متوترين. وفى النهاية فتح فمه وقال :

– إنكم شبان ، لا زلتم صبيانا . ترى ، هل سيمد الله فى عمرى كى أرى بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً كيف ستكون نظرتكم إلى الظلم ؟

صمت. ثم بعد هنيهة ، تمتم قائلا ، كما لو كان يحدث نفسه :

– كلنا نبدأ هكذا .

وعندئذ تكلمت ، فقد بان لى أن الأسقف يريد أن يغير مجرى الحديث. قلت له :

– سيدنا المبجل ، ماذا نفعل كى نمنع وقوع هذا الظلم ؟ مرنا. صديقاى وأنا على استعداد أن نلقى بأنفسنا فى النار ، إذا قلت لنا القوا فى النار بأنفسكم. يكفى أن ينتصر العدل .

نهض الأسقف ، ماداً إلينا يده لنقبلها :

– اذهبوا فى رعاية الله. واجبكم أديتموه. يكفيكم هذا. أما الباقى فمن شأنى أنا .

انصرفنا مبتهجين .

صاح صديقى قائلا :

– تحيا «جمعية العدل» !

وبسط ذراعيه ، وضمنا إليه ، واحداً على يساره والآخر على يمينه .

يوم الأحد التالى ، عقد بالكنيسة قران المحامى على الفتاة الغنية. وعلمنا فيما بعد أن الأسقف كان يروى لأصدقائه قصة زيارتنا له ، ومبلغ جزعنا على العدل ، وكان وهو يروى لهم ذلك لايتمالك نفسه من الضحك .

معجزة لقاء الإنسان للإنسان

تاتيانا ستافرو

سألت الأخت الكبيرة بعصبية :

– والآن ، ماذا تريدين أن تفعلى ، بعد كل هذا ؟ ستدافعين عن شرفك مثل تلك البطلات القديسات فى الحكايات القديمة !.

وبدلا من أن تجيب الأخت الصغيرة ، همت أن ترتدى قلنسوتها ، لكنها لم تكمل حركتها .. سقط ذراعاها ثقيلين إلى جنبيها .

– وهل كان يتصور أحد أن تحدث أمور مثل هذه ، أمور كتب لنا عنها منذ قرون وقرون طويلة ، أعنى ، أن يترك المرء ، أقرب أقربائه ، ذلك الذى يحبه ، يتركه للخوف المهول ، للموت ، للسجن ، بينما كان بالإمكان أن ينقذه لو لم يخش التضحية فحسب .. لو لم يخش أن يصاب بالأذى فى جسمه .

– استحلفك بحياتك ، ياهلينى ، اسكتى. لاتمضى فى هذا الحديث ، طالما تعرفين أننى لن أترك فرصة مثل هذه تضيع .. وهى أملنا الوحيد .

انطفأ وميض القلق الغاضب فى النظرات السوداء ، واغرورقت عينا المرأة بالدموع الحارة .

– آه ، لو كان بإمكانى أن أخلصك من هذه التجربة لما ترددت فى ذلك .. بلا أدنى شك .

– وهو منفر ومخيف إلى أقصى حد ... جبل لاحس فيه .. جبل من الجثث المسودة .. يداه وحدهما مكتنزتان بشحم يزيد فى مقداره عن كل اللحم الذى بجسدى .. وذلك الصوت المطوط الذى يخرج من أنفه .

أتت الأخت بحركة يائسة ، قذفت بخصلات شعرها الغزير إلى الوراء ، ودفنت وجهها بين راحتيها ، ثم قالت بصوت عذب خفيض ، يكاد يسمع :

– حتى تكون تضحيتك أشد وقعاً ، حتى يكون الثمن المدفوع لقاء حياتهما أغلى .

وفى ومضة ارتدت مارو النحيلة القد معطفها وقلنسوتها بعزم أكيد ، كما لو كانت قد تلقت العون من قوى غامضة غير محدودة ، وقد بدا فى نظراتها القلق والعناء والألم بكل وضوح .

– ربما تكونين واهمة أيضاً ، ربما لاتدور هذه الأفكار بخلد الرجل .. لقد قبل أن يساعدنا ، ما أن طلبت منه ذلك ..

أخرجت الفتاة الورقة دون أن تجيب بشىء ، وعادت تقرأها . ترام رقم ٧ . محطة إيفانجيليزمو. شارع رافينيه .. أما بقية ما كان مكتوباً فكانت تذكره دون حاجة إلى قراءة «الباب الرابع ، على اليسار » .

حديدى ، تنزلين درجتين ، وفى الخلف تجدين باباً صغيراً مختبئًا فى أحضان الزرع الأخضر» ، كان قد انغرس فى أذنيها الصوت المطوط وهو يقول «فى أحضان الزرع الأخضر» - ذلك الصوت الرفيع الخارج من الأنف الكبير بنبرة مضحكة ، مضحكة .

- لماذا يحدد للمقابلة بيته المنعزل ، بدلا من أن يحدد لذلك محلاً عاما ظاهراً للعيان ، لو لم تكن لديه مثل هذه الأفكار الخبيثة ؟

خطرت هذه الفكرة ببالها ، لكنها لم تنبس بكلمة. إن الكلمات تزيد ما فى النفس من مرارة ، ثم أن الكلمات زائدة عن الحاجة ، وغير مجدية فى الموقف الرهيب الذى كانت توجد فيه .

عندما وصلت الأختان إلى الباب الخارجى تعانقتا فى يأس. «من ذا الذى كان يتصور مثل هذا الأمر ؟ من ؟» تأوهت الأخت الكبيرة ، وندت منها هذه العبارة ، ناسية فى لوعتها كل ماكانت تقوله من قبل .

- ماذا يهم وسط كل هذه التعاسة أن تتجعد الوردة .. أى دور ألعبه ، أنا نملة الأرض الصغيرة .

لم تكمل ما أرادت أن تقوله. وأسرعت الخطى دون أن تلتفت وراءها .

كان الوصف الذى أعطاه «سيادة المدير» على غاية من الدقة حتى أن الفتاة لم تلق مشقة فى الوصول إلى العنوان ، بل إنها لم تجد نفسها بحاجة حتى إلى الرجوع لتلك الوريقة. هاهو الباب ذو الأعمدة الحديدية ، وقد وجدته موارباً ، هاهى الدرجتان و «أحضان الزرع الأخضر» ، كل

شيء في مكانه ، وبالإضافة إلى ذلك بلل مطر رطيب متقطع ، الياسمينة البرية ، غسلها من التراب ولكن عيني مارو لم تريا مع ذلك في ضوء الشتاء شيئًا .

– أهلا بك .. وسهلا .. الجو دافئ هنا بالداخل .. أرجو ألا تكوني قد لقيت عناء في المجيء ياطفلتي !

– أوه ، على الإطلاق ..

كان قلبها يهدر بشدة فيمنعها من أن تسمع جيداً. تسمرت قدماها هناك عند المدخل ، إلى جوار المدفأة العالية السوداء التي يشع منها الدفء ، ولم تقدما على خطوة أخرى .

على أنه بدوره لم يدعها إلى ذلك – قال وهو يرتدي معطفه وقبعته : لنذهب ، لنذهب بسرعة ! ثم فتح غطاء المدفأة الصغيرة ، وألقى ضحكًا نظرة على الجمرات المتقدة ، وأغلق الغطاء. أجال بصره فيما حوله. أدار مفتاح النور ، وأطفأه. بقي الاثنان برهة صغيرة جنبًا إلى جنب يغمرهما الدفء والضوء الخافت. وفي السكون المخيم كاد يسمع قلب المستخدمة الشابة وهو ينتفض .

وشعرت بيده الثقيلة على كتفها :

– لنذهب ، ولنبتهل أن يأذن لنا بمقابلته ، وأن يكون مزاجه رائقًا أيضًا .

رنت المفاتيح عندما سقطت في جيبه ، وجلجل الباب الخارجي الحديدي عندما أغلق وراءهما ، إلا أنهما عندما خرجا إلى الشارع الصغير المهجور لم تر الفتاة أية غضاضة في أن تمسك اليد الغليظة

المكتنزة «بشحم يزيد مقداره عن جسمي كله »، تمسك بذراعها وتساندها في المسير. بل إنها شعرت بالرضاء فيما بعد ، خلف عمائر المستشفى الذى لم يكتمل بناؤه ، حيث يتسلل الهواء بين جنباته داخلا خارجا مصفرا ، شعرت بالرضاء لوجود الرجل إلى جوارها ، ينود عنها العزلة ، ويبعث الدفء في أوصالها .

سارا مسرعين. وفى كل خطوة كان يسمع صليل المفاتيح فى جيب الرجل. وقالت مارو لنفسها «يفًصل الترزية الجيوب حسب عرض السروال .. ترى كم حجم جيبه ؟ .. لابد أنه فى حجم المخلاة ، أو ربما أكبر من ذلك . لكنه ليس ثقيل الظل .. يبدو فى المكتب بمظهر آخر .. كلا ، إنه ليس ثقيل الظل» .

– أحياناً ، فى مثل هذه الأحوال ، يتدلى النجاح من خيط رفيع .. طلبت منك أن تأتى معى ، لكن عليك أن تطبقى فمك ، ولا تتكلمى ، تمالكى نفسك بأنفة .. إنه شخص شديد البرود ، صموت ، ومتعال .. أرجو فحسب أن يستقبلنا ، وألا يكون قد انصرف .

ندت منها صيحة قصيرة خائفة ، بددت السكينة المخيمة :

– لكنه جاء اليوم فحسب !

– لاتصلح التخمينات .. لا يعرف أحد متى يأتى ومن أين يأتى ، متى يسافر ، وإلى أين .. إنه شخص غريب الأطوار ، منطو ، صموت .. مامن طريقة تمسكينه بها .. لا أحد يعرف فيما يفكر .. ما هى مشاعره .. هل دخل الحزن قلبه قط ؟

أدركت أن الأمر لم يكن هينًا بالنسبة لرئيسها. ولئن كان قد قبل أن يتوسط فى هذه المسألة الشائكة ، إلا أنه كان يشعر بالحرج فى قرارة نفسه من أن يلتمس طلبًا ، وعلى الأخص طلبًا مثل هذا ، من ذلك الألمانى العنيد. وإذا كان رئيسها يمضى إليه الآن فالتردد والشك يملآن قلبه. كانت تشعر بذلك ، وتشعر به بكل وضوح ، كما لو كان ينقل هذا الشعور إليها نبضات جسمه القريب منها. كان يفعل مايفعله من أجلها بدافع من الطيبة والمشاركة القلبية. أجل ، بدافع من ذلك ، ولاشىء أكثر منه. كانت مخطئة ، لم يكن ثقيل الظل ، ولا فظًا ، مثلما كانت تراه من قبل. لم يكن كذلك قط .

لم تتبين فى أى درب دخلا بعد أن اجتازا الميدان ، ولا إلى أى طابق صعدا فى ذلك المبنى المظلم. لم تشعر إلا برنين الجرس يتردد صداه ويتكاثر فى أحشائها ، ويسرى الانحلال فى ركبتيها .

جازاه الله خيرًا ، فقد سندتها مرة أخرى اليد الغليظة ، يد الرجل المفعمة بالدفء ، بل وحدث شىء لايصدق ، أحست بالرضاء واليد تضغط عليها. لم يكن الأمر سيئًا على الإطلاق .

فتح عامل الباب الذى يرتدى زيًا عسكريًا ، الباب على مضض ، لكنه لم يلبث أن انتصب فى وقفته ، ما أن تبين وجه الرجل .

– والآن ، تشجعى ، ياصغيرتى .

تمتم المدير بذلك ، نفذت كلماته إلى قلب الفتاة ، وأدخلت عليها السكينة. بدا لها صوته الرفيع المطوط ، وهو يخرج من أنفه بطيئًا متثاقلا ، مفعمًا بالطيبة والعطف ، وبالقلق أيضًا .

وفى غرفة الاستقبال خافتة الضوء ، وقفا جنبًا إلى جنب من جديد ، لايجرآن على الافتراق ، لأنهما أحسا فجأة بأن كلا منهما يجد الحماية فى قربه من الآخر. وعندئذ ، فى السكون المخيم ، فتح بجلبه واحداً من الأبواب الكثيرة من حولهما ، ودخل «الممثل الاقتصادى للرايخ» أحست مارو بعينيه الذهبيتين تخترقانها كما لو كانت جسماً زجاجياً ، لكن دون أن ترياها ، فلم تتوقفا حتى لحظة قصيرة عندها. لكن اليد المجاورة شدت على يدها ، دون أن تقشعر من هذه اللمسة التى كانت تكرهها من قبل ، والتى كان مجرد التفكير فيها يثير مخاوفها .

كثيراً ما تبدو الأمور مختلفة عن ذى قبل ، عندما نعاينها عن كثب، تبدو جد مختلفة حقًا .

ظلت مطرقة العينين ، خشية أن تعرقل مجرد النظرة الجهاد الشاق الذى يخوضه المدير ، وقد أيقنت أنه بكل جوارحه لها فى تلك اللحظة. كان يحكى الأحداث التى وقعت أثناء الجنازة فى «ترابيزا» ، كيف جرت الاعتقالات ، وكيف خيم الحداد على المدينة كلها فى أقل من ساعة ، ثم لهفة كل امرىء إلى تخليص ذويه من المطاردة الجائرة ، وربما من الموت .

كان يتحدث عن زوج هيلينى ، وعن الأخ فاسو ، عن الاثنين معًا. كان فاسو شقيقهما الأصغر ، وكان طيب القلب ، لايحتج عندما تضربه أخته مارو الأكبر منه. لم يكن يغضب عندما كانت تطبق قبضتها وتهوى بها على ظهره. بل كان يعقد ذراعيه عندما كبر ، ويحنى كتفيه ، ويقول معتزاً بنفسه ضاحكًا : اضربى ، اضربى ماشئت ، حتى تكلى ، حتى توجعك يدك ، يا أختاه .

والآن ، تتعرض هاتان الكتفان الشجاعتان ، وهذه الرأس الشابة ذات الخصائل الغزيرة لأن يثقبها ذات صباح رصاص البنادق الأوتوماتيكية التى تشرعها فرقة الحراسة ، تتعرض الآن لأن تسقط ، وتخر صريعة .

وسقطت هى ذاتها فى هدوء هناك بين أقدام الرجلين ، حتى ظل الاثنان دهشين لحظة. ثم حملها الألمانى ، وهو أكثر شباباً وخفة ، وأرقدها برفق على الأريكة .

ومضى الألمانى يقول ، وهو يتفحص ويتفحص رسغ الفتاة النحيل قاصداً أن يعثر على نبضها الواهن .

– ماذا حدث لها ، ما الذى أصابها ، هل تحتاج إلى طبيب ؟

بدا مرتبكًا ، مبلبل الخاطر ، وقد غلبت عليه إنسانيته ، ولم يبدو على الإطلاق صموتا ، ولا غريب الأطوار .

– وضِّح لها من فضلك أننى لن أغفر لنفسى قط سهوى .. تركت سيدة واقفة .. لن تغفر لى حتى هى ذلك أبداً .

ويبدو أنه نسى تماما مقامه العالى ، ومنصبه الكبير ، فقد جرى «الممثل الاقتصادى لألمانيا» وأحضر ماء عطرياً وبلل جبينها بمنديله الناعم الثمين :

– هل تشعرين بتحسنٍ ؟ ماذا أصابك ، ماذا أصابك ؟

وعلى الرغم من أن الفتاة لم تكن تفهم الكلمات ، فقد أحست بمعناها تماما .

– ماذا أصابنى ؟ تسألنى ماذا أصابنى ؟ إن ما أصابنا مخيف إلى درجة أننا لم نعد نحيا منذ ذلك الحين .. انتزعوا منا رجلين ، نفسين ، مخلوقين حبيبين .. منذ ذلك اليوم ، وأمنا لاتنام فى سرير ، إنها ترقد بالليالى على الأرض ، على البلاط ، حتى تتعذب بدورها مع ولديها .. ولا ننصب مائدة للطعام ، لأننا لا نتحمل أن نواجه مكانيهما الشاغرين .. ومن فرط القلق لانستريح .. إننا نجرى مثل المجانين ، عاجزات عن أن نعرف ماذا نفعل .. كيف نسدى العون .. والخوف من الموت يطاردنا؟ .

كانت تتكلم وهى تشد يديها على فمها حتى تحول دون ارتعاش شفتيها. كانت تريد أن تسكت ، ولكنها لم تعد بقادرة على الاحتمال. يبدو أنه كان محتوما أن تقول كل هذا الذى لم تفتح به فمها وتبوح به لأحد من قبل. كان من المحتوم أن ثقال الكلمات التى كانت تغلى وتتدافع وتخرج ممزقةً الأحشاء مثل الطفل عندما يولد .

وهناك ، إلى جوارها ، فى هدوء ووضوح مثل آلة موسيقية مصاحبة رافق الصوت المطوط المضحك – صوت المدير البدين – باللغة الأجنبية كلام الفتاة المتدفق وفى تلك اللحظة – وهو الأمر الغريب حقا – بدا ذلك الصوت وكأنه الصوت الوحيد فى الوجود القادر على أن يعبر بتلك الطلاقة عن الألم الممض وراء تلك الكلمات المفرطة .

تلقاهما الليل مكدودين ، متعبى الفكر من عناء الانفعال ، وبللتهما السماء برذاذ خفيف لايرقى إلى مرتبة المطر. توقفا برهة ليستردا أنفاسهما ، ولم ينبسا بكلمة واحدة ، حتى ابتعدا بما فيه الكفاية عن المبنى الأسود .

– أصر على أن يفرج عن هذين الشخصين فوراً .. لايمكن أن نبدر الشقاء والدموع أينما مررنا .. إنهما بريئان ، إنى لمتأكد من ذلك .. متأكد .. أرسلوا ملفيهما هنا حالا .. حالا .. لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك .

عادت هذه الكلمات إلى ذاكرة السيد المدير. رددها وهما يحتميان من رذاذ المطر تحت شرفة خفيضة وقد التصقت بطنه المطاطية الضخمة بجسم الفتاة النحيل الصغير الذى يرتعد عذاباً وأملا. وكم كان جميلا الإحساس بأنه يشد من أزرها عند ذلك الحائط الغريب ، ويدفئها مثل حضن أم رءوم ، ويمدها بالقوة على تحمل وطأة السعادة الطارئة .

.. أماه .. هيلينى .. كان كيانها كله ينتفض مثل طائر يصفق جناحيه .. أماه .. هيلينى .. غداً !

كانت هذه الكلمات .. هذه الكلمات دون غيرها .. تجول فى دمائها سريعة .. وحيدة .. لارفيق لها .. وقد اكتست معنى جديداً ومخيفاً أيضاً .

.. غداً !غداً ! توالت النبضات فى الفودين ، عند الأسنان المطبقة تزاحمت مقاطع الكلمات ثم وئدت خشية أن تخرج فتغمر سماء الليل .

غداً ! كم من الساعات غير معقولة الطول ستمر حتى صباح اليوم الجديد ، أو حتى الظهيرة ، أو المساء فى نهاية الأمر ، طالما أن المساء الطويل يمكن أن تحسب ساعاته ويستوعب من خلال ذلك «الغد» السحرى .

سرى إليهما من المقهى المجاور إحساس بالألفة. كان يفتح الباب بين الفينة والفينة وينسكب شريط أصفر من الضوء يلطف من كثافة الظلمة التى تفرضها الحرب .

ومع ذلك الشريط الأصفر تسللت سحائب دخان وشذرات من أحاديث ، اختلطت بأنفاس عبقتها روائح القهوة ولفافات التبغ. كلما انفتح باب المقهى انسكب إلى الطريق دفء حبيب ، الدفء المعزى الذى يصاحب التقاء الإنسان بالإنسان .. وفى ذات الوقت مضت شفتا الرجل المكتنزتان تلاطفان على مهل جبين مارو الرطيب ، ثم جفنيها الرقيقين ، الواحد تلو الآخر ، ثم شفتيها المرهفتين ، بحذر وحب وخشوع .

وقد تقبلت الروح الجزعة من أعماقها مثل بلسم متلهف إليه ، تقبلت ذلك الحب المختلط بالرغبة ، وتلك المرارة .

وفيما بعد ، عندما عادت بهما سيارة مثل مركب أسود خرب إلى الباب الضيق ، هناك « عند أحضان الزرع الأخضر » ، بدت الأمور مختلفة عما كانت قد جزعت منه مارو .

آه ، ياللغرابة ، لم يكن الأمر سيئاً ! آه ، لم يكن الأمر سيئاً قط ..

جـارتـان

ماريا روسيا

فى الخامسة من مسـاء كل يوم كانت جارة السيدة ماريغو تنزه كلبها الصغير ، فكانت تروح به وتغدو تحت نوافذ جارتها. وقد كان كلباً مرفهًا كثير الحركة ، يحمل فى عنقه ، رغم هزاله ، طوقا ثمينا .

كان يمرق كالسـهم ثم لايلبث أن يسـتـدير بغتة ويقبل على سيدته مندفعا ، ثم يبتعد عنها من جديد هازًا ذيله ويقف فى انتظارها فإذا ما لحقت به مضى يتشمم الأركان حتى يختـار البقـعة التى تروقه ليرفع ساقه عندها. وعندئذ كانت تنتظره هى. ثم لاتلبث وكلبها أن يدخلا باب العمارة ويغيبا عن الأنظار .

وبعد قليل كانت تتصاعد الأنغام من بيانو هذه الجارة. كانت تتكلم وتغنى بصوت لايتفق مع مظهرها وعمرها ، شأنها فى ذلك شأن بنات جنسها .

وعندما كانت السيدة ماريغو تسمع تلك الأنغام مصحوبة بغناء جارتها السـاحر كـانت خطـواتها تتحول إلى خطوات راقصة. فإذا ما تشابكت الأنغام وتعقدت وقفت مرفوعة القدم مبهورة الأنفاس .

وعندما تنتهى الأغنية ، كانت السيدة ماريغو تعود إلى عملها خفيفة لينة متهادية .

كان هذا شأنها كل يوم. هاهى الشهور والسنون قد مرت وارتبطت حياتها بحياة جارتها ، رغم أنهما لم يتعارفا ، ولم تتلق السيدة ماريغو منها تحية الصباح قط ، ولا تعرف شيئًا عنها سوى اسمها. اسمها ميسمير .

كانت السيدة ماريغو تقرأه فى نزولها وصعودها ، فقد كان هذا الاسم مكتوبًا على اللافتة البرونزية المثبتة بمسمارين لولبيين على باب شقتها النظيف ، ذلك الباب المغلق على الدوام فى وجه جميع سكان العمارة. وكم كانت السيدة ماريغو تود لو تخطو إلى عتبة جارتها .

وذات أصيل خرجت السيدة ماريغو إلى شرفتها كعادتها لتتنسم الهواء ، فوقع بصرها على جمع من الناس ينجذب إليه المارة انجذابهم إلى مغناطيس .. ووقفت السيارات عند الجمع أيضًا. وسرعان ما اكتظ الشارع ، وتعطلت حركة المرور .

كان الجميع يومئون مشيرين فى حزن ، ويهزون رءوسهم فى اكتئاب وقد تهدلت أذرعتهم ، بل أغمى على امرأة ، واحمرت وجوه الرجال حنقًا .

وأقبل الشرطى فى النهاية يجرى ، وبسط ذراعيه العريضتين مفسحًا الطريق مما مكن السيدة ماريغو أن ترى كلب الجارة الصغير مكسور الساقين غارقًا فى دمائه ، وقد اندلقت أحشاؤه .

وفى خطوة واحدة وجدت نفسها فى الشارع :

- كيف وقع له ذلك ؟ كيف أصيب ؟

- ضربه أولاد الجيران الأشقياء .

وزحف الكلب إلى قدميها ، كما لو كان قد عرفها ، وأسلم الروح ، وهو يئن فى صوت خفيض .

- يالمسكين !

وسألها الشرطى :

- أهو كلبك ؟

- إنه كلب جارة لى .

- إذن ، ابتعدى عنه ، ياسيدتى .

وصاحت السيدة ماريغو قائلة :

- أريد الطوق لآخذه إليها .

وحدجها الشرطى بنظرة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، واقتنع ، فقد كانت تبدو بنت ناس .

- تفضلى ، لكن احترسى من أن تلوثك الدماء .

وانحنى يساعدها بنفسه ، ثم جذب الجثة إلى جانب ، وقد تركت بقعة حمراء وسط الشارع. ولما تفرق الناس بقيت السيدة ماريغو إلى جوار الكلب المقتول ، ووقف على مقربة منها اثنان أو ثلاثة من الأشقياء ، صبيان خبثاء شاحبو الوجوه طوال السيقان .

– لماذا قتلوه ؟

أجل ، لماذا ؟! الأولاد أنفسهم ماكانوا يعرفون. كي ينتقموا. كانت عملية انتقام إذن. ممن ؟ من ميسمير .. من النظام .... المسألة معقدة جداً .

ونهرتهم السيدة ماريغو قائلة :

– وماذنب ميسمير ؟ بل وماذنب الصغير الأبيض ذى النقط البنية
– أجل ، هذا الكلب ، ماذنبه يا أرذال ؟

وانسحب الأولاد الأرذال منكسى الرءوس. ثم تركت السيدة ماريغو الجثة ودلفت إلى باب العمارة.

كان السلم حجرياً مظلماً رطباً .. واجتازت ماريغو الدور الأرضى مسرعة، وصعدت إلى الطابق العلوى. كان باب ميسمير مغلقاً كالعادة. وفى الضوء الخافت كانت تلمع مقابض الباب واللافتة التى تحمل اسمها .

وقرأته السيدة ماريغو مرة أخرى مقطعاً مقطعاً : مسز ميرفور ميسمير .

كان هذا اسما صعباً .. وامتدت يدها إلى الجرس ، لكنها سحبتها فى الوقت المناسب. ووقفت تتذوق كل ذلك الهدوء السائد المتدفق من ثقب الباب. ثم أتت حركة سريعة محنكة صففت بها شعرها، ورتبت «بلوزتها» ، ودقت الجرس .

وتجمع من نما إلى علمهن من الجارات فى شقة السيدة ماريغو بانتظار معرفة أخبارها ، وقد خيم عليهن شجن غريب ، تماما كما لو كنت تنتظر أحداً فى الظلام ، ولا يجىء .

وكن يقلن من وقت لآخر :

– لقد تأخرت .. أجل تأخرت .

ثم سمع صرير المفتاح فى باب الشقة بغتة. وبدت ماريغو عند المدخل وقد تغير حالها ، وانتابتها رعدة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، وألقت على أسماعهن أكثر الكلام غرابة :

– طردتنى .

– طردتك ؟ كيف طردتك ؟ وضحى. ولم تدل ماريغو أول الأمر بأى إيضاح ، بل دخلت وخرجت منفعلة ، وتناولت ملعقة من المربى ، وشربت جرعة من الماء ، ليهدأ اضطرابها. ثم مضت تحكى مغامرتها .

كانت تقص قصتها – كما تفعل النساء – بطلاقة وإطناب معرجة إلى تلميحات عارضة ، مضيفة إلى حديثها حفنة من السخافات ، مدخلة الكثير من عندياتها فى روايتها .

بدأت قائلة :

– ماذا كنت أريد أن أقول ؟ .

ولم تنبس الجارات بشىء حتى لاينقطع الخيط ، وتضيع متهن جزئية مثيرة ، تركوها تتكلم ، كما لو كانت وحدها وأرادت أن تعيش ماحدث لها من جديد .

– قلت سأوفق باعتبارى امرأة. لكن أولئك الأجنبيات يعجبهن أن يخالطن الرجال فحسب. فتجت لى بنفسها بكل برود دون تحية أو أى شىء .

وجه جامد خال من كل إحساس. أنف سوى. ياله من أنف ذلك الذى لهذا الشعب ! الشىء الوحيد الذى أحسدها عليه هو الأنف ، ومع ذلك يجب ألا نهزأ بالأنف الدميم. لأنهم يقولون إن اللّه قد تعب كثيراً فى خلق أنف الإنسان .

وخيم الصمت من جديد. ثم أردفت ماريغو قائلة :

– ولما رأيتها أمامى باردة كالثلج ، لاحركة فيها ، واضعة يدها على مقبض الباب فكرت : ربما كان سبب الحالة التى بدت عليها حزنها على كلبها ، فلممت كل ما أعرفه من لغتها وشرحت لها الأمر .

وعندئذ أومأت لى أن أدخل دون أن تنبس بكلمة. هذا فضل منها على أى حال ، لأنى تذكرت فجأة أنك لو لم تعرف هؤلاء القوم بنفسك فإنهم لايكلمونك فانحنيت لها قائلة :

«أنا .. السيدة ماريا أرملة إيبا مينوندا .. جارتك بالطابق الأسفل .. أعمل كاتبة المراسلات بالغرفة التجارية. كيف حالك ؟ أحوالى أنا سائرة قدر الإمكان. الحمد للّه. عالية تارة .. ومنخفضة تارة. ماذا نفعل؟» .

امتلأت عيناها دهشة ، وتذكرت مرة أخرى أن على أن أردد كرجع الصدى : كيف حالك ؟ وألا أمضى فى الكلام ، بل أنتظر إجابة. ومن ثم سكت ، وأخذت أجول ببصرى فيما حوالى .

منذ أمد طويل والفضول يتملكنى أن أدخل بيتها ، فمن غير المعقول ألا يقرئك جارك تحية الصباح عشر سنوات. إننا نقول : ترى فى الصباح جارك ، قبل أن ترى الشمس .

كان الفضول مستحوذاً على حقا ، لأن الدخول إلى بيت المرأة هو السبيل لمعرفة أى صنف من النساء هى ، ولكنى أعترف بأنى لم أتبين شيئًا عندما دخلت بيتها. لا أنكر أن كل شىء كان نظيفًا مرتبًا ، إلا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى الخادم .

كان هذا واضحًا. إنها تنقده أجراً طيبًا ، كما تتغاضى عما يختلسه من المصروف ، أو ربما كانت غافلة حقًا عن ذلك. وهكذا تحصل على راحتها .

ويبذل الأسود قصارى جهده لإرضائها ، ويجعل من نفسه ترابًا تدوسه قدماها. يفعل المال كل شىء ، ويتكفل الخادم بكل المهام حتى إحضار الورد ، ورد مما يحتمل طويلاً ، يوضع فى آنيه نحاسية لا تتكسر ، فأولئك القوم يريدون كل شىء عمليًا ومتينًا .

كانت ميسمير التى التقيت بها في البيت غير تلك التى نعرفها ونراها كل يوم فى الشارع. كانت شخصاً آخر مضحكًا للغاية. أعنى ، حتى لانختلف ، لو كانت من بنات جنسنا لبدت مضحكة. أما هى فقد كان ماترتديه منسجمًا عليها. كان الثوب فى لون المشمش ، وقد عقدت رأسها بشريط أخضر. وكان شعرها لامعًا ذلك اللمعان الجميل الذى تتميز به الشقراوات. وثبتت باقة من البنفسج الصناعى على خصرها .. أما الحلى فكثيرة : أقراط وأساور وخواتم ودبابيس. وكانت ذراعاها عاريتين حتى الإبط .

وسألتها فى أدب :

– هل تتأهبين للخروج إلى حفلة راقصة ؟.

فأجابتنى بالنفى فى جفاء ، كما لو كنت قد أخجلتها ، ففكرت فى أنه ربما كان لديها ضيوف. وحتى لا أعطلها أوضحت لها أنهم قتلوا كلبها ، وأنى التقطت طوقه وأحضرته إليها .

فقالت لى بصوت خالٍ من الاكتراث :

– أرى ذلك. أرى ذلك .

ولم تبصرنى عيناها إلا عندما وضعت الطوق على المنضدة ، لأن تلك العينين كانتا تنظران إلىّ من قبل دون أن تبصرانى. وانطلقت بخفة مثل صبى ، وأحضرت لى صورة عزيزها «بيلى» وكان «بيلى» اسم كلبها المقتول .

كانت الصورة تتدفق حيوية كما لو كانت ستتكلم. وكانت ميسمير جذابة وهى ممسكة بالصورة ، وتنظر إلىّ بعينين حلوتين مبللتين ، مثل نافذتين مفتوحتين على بحر بلادى .

وسألتها :

– أليس لك أحد فى الدنيا ، ياعزيزتى ؟

فأجابت غاضبة :

– ماذا ؟

وسرعان ما أغلقت النافذتان الحلوتان .

– لى إخوة ، وأهل ، وزوج .

– لك زوج ؟

– بالطبع ، لى زوج .

– لابد أنه فى ساحة القتال .

– أولاده فى ساحة القتال ، أما هو فقد تزوج مرة أخرى .

قـالت ذلك ببـسـاطة كـمـا لو أنه لم يكن فى الأمـر شـىء ذو بال. واستطردت موضحة :

– معيشتنا تختلف عن معيشتكم ، لسنا مثلكم. أنتم شرقيون ، كل منكم ملتصق بالآخرين ، والجميع ملتصقون بالأسرة. أما نحن فأحرار. رجال ونساء على السواء. يصنع كل منا حياته كما يشاء .

– أغنانى الله عن حرية من هذا القبيل ، تحرمنى الولد ، وكل قريب حبيب. وتنهدت رغماً عنى. ففهمت. ومهما قلت فهى امرأة .

ويخفتها السابقة مضت وأحضرت لى صورة أخرى. كانت هذه المرة صورة إنسان. شاب ذى أنف سوى وعلى غاية من الوسامة. وكانت الصورة عتيقة بالية .

– أهو ابنك ؟

واستـاءت من جديد ، كما لو كنت قد وجهت إليها إهانة. إنه نجل أحد أبناء عمومتها .

واستطردت تقول :

– ربما كان الآن فى ساحة القتال !!

واغرورقت عيناها بالدموع .

– هونى عليك ، ستنتهى الحرب وتزول .

– ولو مات ، فما الجدوى ؟!

واغرورقت عيناى أنا أيضاً بالدموع. كلا ، لاتقلن إنى تذكرت ابنى أنا إنى ماتألمت إلا لها . إنى امرأة ، وأعرف مايعنيه ذلك .

وتذكرت أننا عندما كنا نذهب إلى المخبأ ، كان فى صحبتنا أولادنا ، وهى فى صحبتها كلبها. وكنا كلنا تخاف على أولادنا ، بينما كانت هى تخاف على كلبها. وإذا سرت فينا الرعدة ، فخشية على من نحب. أما هى فقد كان لها كلب تحبه ، وهاهو الآن قد قتلوه .

ولهذا ذهبت تخرج صورة فوتوغرافية قديمة بالية لصبى قد يكون قد شب وصار رجلاً ، رجلا فى منتصف العمر. أو ربما فتك به مرض فمات صغيراً ، ولم تعرف هى بالخبر وظلت ترتعد خوفًا عليه ، لأنها كامرأة فى حاجة إلى أن ترتعد. أن ترتعد حباً حتى يكون لحياتها مبرر. ربما كان يحدوها أمل. فيم ؟ إنها لاتعرف. كلنا نشبه بعضنا بعضاً. إننا نأمل ونأمل أن ثمة من هو فى حاجة إلينا .

انجذبت نحوها ، وفاض قلبى بحبها ، وأردت أن أعبر لها عن شعورى ، أن أفعل شيئًا من أجلها ، شيئًا صغيراً ، شيئًا يفصح لها عن عواطفى نحوها. وخطر لى أول الأمر أن أقبلها. على أن من الخير أنى لم أفعل .

وتذكرت بغتة الحمص الذى كان معى فدسست يدى فى جيبى وأخرجت القرطاس :

– هل تسمحين لى أن أقدم لك شيئًا من هذا ؟

ولترين الآن ماذا حدث. هل تعتقدن أنها قالت لى كلمة شكر ، أو أنها أخذت منى الحمص ، ثم إذا لم يرق لها لفظته ؟!

كلا. لقد نحت القرطاس بيدها جانبًا ، وقالت مطبقة الأسنان :

– نحن لانألف هذه الأشياء .

استأت من ذلك ، لكنى لم أنبس ببنت شفة. وما لبثتْ أن أردفتْ قائلة :

– طابت ليلتك .

– ماذا ؟

– أقول طابت ليلتك. لا أستطيع أن أستقبلك وقتًا أطول من ذلك ، فقد حانت ساعة الجلوس إلى المائدة .

لم يكن عندها ضيوف ! كانت تطردنى ! كانت ستتناول العشاء بمفردها ! غارقة فى زينتها ووحدتها !

وقالت إحدى الجارات المغرورات :

– لعمرى ، إنها متعجرفة !

وصاحت جارة أخرى :

– العادة سجن. سجن هى العادة .

على أن ماريغو استرسلت فى خواطرها

– وذلك بدلا من أن تقولى لى : تفضلى ولو لمجرد المجاملة. وهل كنت أقبل أنا الدعوة ؟ لقد هممت أن أقول لها آنذاك : ونحن لم نألف هذه التصرفات عديمة الذوق .

– ولما لم تقولى لها ذلك ؟

– لاتكترثى بها. وطنها مجلل بالضباب ، معزول ، بيوته مغلقة ، إنه بلد شحيح .

أما نحن فقد نشأنا نشأة مختلفة فى فيض الشمس ، ورخاء الطبيعة ، عند ملتقى العالمين ... جو آخر .. وطباع أخرى .

وتمتمت السيدة ماريغو :

– وما الجدوى ؟ ألم أتلق أنا إهانتها ؟

الكسلان

يانيس مانجليس

كان أنطوناكيس خانوس رجلاً منكمشًا ، هادئ الطبع ، لين العريكة. لم يكن يعجبه الصياح والضحك والكلام الكثير. كان صموتًا. وربما كان صمته راجعًا إلى مزاجه أو ربما كان يعزى إلى تعاسته. كان متوسط القامة ، مترهل البدن ، خائر العزيمة ، ليس فيه من الرشاقة شيئًا ... عيناه بلون كستنائى فاتح ، ترتسم فيهما نظرة وجلة شاكية .

وكانت حرفته راكدة مثله. فى غرفة صغيرة عند طرف السوق ، فى مواجهة الميناء تماما ، على لافته برونزية صغيرة باهتة كتب : «خياط البلدة : أنطونيوس خانوس» لكنه لم يكن فى الواقع خياطًا ، بل مجرد مرقع ثياب ، يحيك من وقت لآخر سراويل للصيادين والعمال ، أو يقلب حلة على هدى من ذات خطوطها القديمة .

مسكين ، إذن أنطوناكيس خانوس ، مغلوب على أمره. أخنى عليه الحظ ، كما أخنت عليه الطبيعة .

ولكن مثل كل أهل الجزر ، كان له بيت صغير. فى الخارج عند طرف المدينة ، حيث تبدأ الحقول ، كان له بيت زوجته الذى ورثته أبًا عن جد .

كانت زوجته نحيلة قصيرة ، ذات عينين ملتهبتين موجوعتين ، وقد فوضت أمرها وأسندت كل آمالها إلى الله. لم تكن ترى المسكينة أن ثمة ملاذا غير ذلك. وكانت لها بنتان كبيرتان ناضجتان للزواج : لينيو ، شقراء ، ذات عينين زرقاوين ساذجتين ، فى الثالثة والعشرين من عمرها ، وأرغيرو ، وكانت تصغرها بسنتين ، شغالة فى حقول الغير ، حقول العنب والزيتون .

كانت الأم التعسة تدرك بكل جلاء أنه لارجاء لهم فى انصلاح الحال ، فقد كانوا يعملون جميعًا من الصباح الباكر إلى الليل من أجل لقمة من عيش الشعير. والبنتان ، ماذا سيكون مصيرهما ؟ هل ستبقيان شقيتين وحيدتين ، هكذا ؟

كانت الأم تقول لنفسها «هو المسئول عن ذلك ، هو الخائب الكسلان ، فاتر العزيمة. إنه لايتكلم ، ولايفكر. هذا الشقى تبلدت حواسه تمامًا . عليك ياقديستى ، يافانيروميني ، عليك عقدت الأمل» .

كانت تخطئ فى فهم الصمت الذى عقد لسان أنطوناكيس ، وتؤوله على أنه عدم اكتراث. لم تستطع النسوة الثلاثة أن يفهمن قط العذاب الأخرس الذى يعانيه ذلك الإنسان الوديع ، ولم يدركن أفكاره الخفية ، وخفقات قلبه .

أراد الله أن يخلقه فقيراً بائسًا ، وأن يعزله نفسيًا عن العالم كله ، مادام لم يشعر أحد بعذابه الحى .

ومع ذلك ، فقد شقى كثيراً . كان يمثل فقره أمام ناظريه بكل جلاء ، وتتجلى له تعاسة أسرته ، وبنتاه تكبران ، وتذبلان قبل الأوان .

كثيرا ما كان يقول أنطوناكيس دامي القلب محدثًا نفسه «آه ، لو أرفع لينيو عن كاهلي ، حتى تتنفس أسرتي الصعداء قليلا» لكن الآمال التي كان يعلقها على كفايته الشخصية كانت جد قليلة ، وكان يعرف ذلك. فكان مثل زوجته يعلق كل آماله على كنيسة القديسة العذراء فانيروميني القريبة من بيتهم .

على أنهم كانوا ينتظرون العون من هناك ، عبثا. وفي كثير من الأحيان كان أنطوناكيس خانوس في لحظات صمته يدرك ذلك .

كان يفكر في أن القديسين كلهم ، الذين اختارهم السيد الرب عاشوا جائعين ، مرضى ومشردين .

كان لابد إذا أراد أن يفلح ، ويؤمن بنتيه في غدوهما ورواحهما ، أن يفعل شيئًا ، أن يتحرك وينشط .

ولكن ماذا يفعل ؟ لم يكن يعرف حرفة أخرى. ولم يكن عنده مال. لو كان عنده مال ! إيه ، كان سيعرف بالطبع ماذا سيفعل. كان قد درس الأمر ، كان سيعطي فورا ميخاليس سكومبوروذاس السمكري العشرين ألفًا التي طلبها للزواج من لينيو ، ولفتح دكان بقالة صغيراً لأرغيرو التي كانت قادرة على تشغيله ، وتعرف قليلا من القراءة والكتابة ، وبذلك كانت ستجمع بائنتها رويداً رويداً تلك المسكينة ، بدورها .

هذا ماكان يفكر فيه أنطوناكيس خانوس طوال اليوم ، الآن وهو يضع الرقع على ما أبلاه البحر من سراويل ريتسينا. وبالليل كثيرا ما كان يستيقظ هذه الأيام ، ويقول لنفسه من أعماقه ، وقد غلبته المرارة «يجب أن تقتصد مالا ، يا أنطوناكيس. يجب أن تقتصد مالا. عليك

التزامات كبيرة ، يا أنطوناكيس ، قبل القديسة فانيرومينى العذراء ، وقبل أسرتك ».

وهكذا صارت هذه الفكرة قراراً استقر عزمه عليه. يجب أن يدبر مالا. لكن كيف ذلك؟ كان يفكر فى هذا الأمر ، ويفكر فى ذاك ، دون جدوى. لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة يعرفها . وسيلة واحدة ، وليس ثمة غيرها . لكنها كانت جد مخيفة ، حتى أن أنطوناكيس الوديع كان يقشعر من مجرد التفكير فيها .. وفى النهاية ، اتخذ قراره ، سيشتغل غطاساً ، وليحدث ماهو مكتوب له .

والحق أن هذه المهنة كانت تثير فيه الذعر منذ صغره. كان ينظر بخوف إلى الغطاسين السكارى ، الغطاسين البشوشين الوسيمين ، يملأون دروب الجزيرة الهادئة بظلالهم المتعانقة ، وقد احمرت وجوههم من الشراب ، يتصايحون ، ويتبادلون النكات الخارجة ، ويتدافعون بخشونة. ثم كانت تلك الخوذات الباردة المخيفة تجمد الدم فى عروقه .

أما الآن ، فما العمل ؟ ماذا كان بوسع الأب المسكين أن يفعل ؟

تنهد بمرارة . وقال «هذه مشيئة الله. لتكن مباركة مشيئته» ورسم علامة الصليب .

ثم فكر من جديد «سأذهب مع قافلة تصطاد فى المياه الضحلة على بعد عشر مسافات أو اثنتى عشرة مسافة. وهكذا لن أتعرض لمخاطر جسيمة ، وسأنجو بجلدى. وهكذا سنحصل حالا على العشرين ألفا . وفى أول صيف ، سنزوج لينيو. وفى الصيف التالى سنشترى دكان البقالة الصغير. ولكن ، إذا حدث لنا شىء ؟ إيه ، سيكون مكتوباً لنا

ذلك. ستأخذ البنتان التعويض. الأربعين ألفا. وبذلك أيضًا نزوج لينيو ونشترى الدكان الصغير. حمداً لك يارب» وضحك أنطوناكيس المسكين بمرارة .

قال ذلك ونفذ ماقال. كان فليفاريس فى أخرياته ، فانضم أنطوناكيس خانوس إلى فرقة القبطان ميخاليس زفيجوس ، وقبض مقدمًا ، بكل سماحة ، كما يقول صائدو الأسفنج ، خسمة آلاف ، أما الباقى فقد كان سيقبضه فى آخر الصيف .

وفى الليلة التى أبرم العقد ، بعد تناول العشاء ، رفع أنطوناكيس عينيه العذبتين المتألمين ، ونظر إلى زوجته وابنتيه وقال فى هدوء :

«اتفقت مع القبطان ميخاليس زفيجوس. فى منتصف الشهر القادم ، بإذن الله ، سنخرج إلى البحر» لم يفتح فمه بكلمة من قبل ، ولم يبح بأفكاره الحزينة .

نظرت إليه زوجته وابنتاه ، وارتسم الذعر فى عيونهن .

قالت الزوجة ، وهى تذرف الدموع الساخنة من عينيها الموجوعتين :

– لماذا فعلت هذا ، يا أنطوناكيس ؟ تريد أن تجعل منى أرملة وتيتم بنتيك ، وتتركنا ، ونحن نسوة ضعيفات على قارعة الطريق ؟

خيم الصمت على البنتين ، واستغرقتا فى التفكير .

تنهد أنطوناكيس من أعماق قلبه فى سكون الغرفة الحزين. ثم أردف يقول بعد هنيهة :

«هذه مشيئة الله. ماذا بإمكاننا نحن أن نفعل ؟ عندما يريد هو أمراً لايبقى لنا سوى أن نرسم علامة الصليب ، ونحنى الرأس صابرين ونقول حمدا لك يارب» .

ورسم علامة الصليب راضياً .

ورسمت زوجته بدورها علامة الصليب ، وقالت نائحة «أيتها العذراء ، مدى لنا يد النجاة. ألم تغفر ذنوبنا بعد ؟ إلى متى سنسام العذاب » .

ورسمت البنتان الوجلتان بدورهما علامة الصليب .

كانت الأيام تمر. واقترب شهر مارس من أخرياته. وذات ليلة تحدث ميخاليس زفيجوس إلى طاقم السفينة :

– أيها الفتيان ، فى الفجر عندما ستهب الريح المواتية ، سنقلع. كونوا جميعًا على أهبة الاستعداد عند المرسى. أفيقوا. حذار أن يأتى أحدكم ثملاً ، ويدنس مركبى لأننى سأهشم له جنبيه .

قال القبطان ذلك بصوت غرد ، وهو يلوح بذراعيه الغليظتين مهدداً .

عندما لاحت تباشير الصباح كانوا فى عرض البحر. كان أنطوناكيس هو الوحيد بين أفراد الطاقم الذى كان متمالكًا حواسه أما الباقون فقد كانوا لايكادون يفيقون من فرط سكرهم. مضى القبطان يصيح فيهم غاضبًا «أيها القذرون ، الكسالى ، الجاحدون سأخرجكم من الماء مثل بالات القماش .. سترون عندما نبدأ العمل» وصار يركلهم فى بطونهم بلا رحمة .

كان أنطوناكيس يسمع ذلك ، ويتملكه الخوف ، كان يقول لنفسه : انظر ، يالها من قسوة ! بأى احتقار يتكلم عن حياة الإنسان. هذا القبطان الذى لايستحق ماكان يوليه له من احترام. وجرأ أنطوناكيس أن يقول له :

– إيه ، خل عنك أيها القبطان ميخاليس. هذه ألاعيب صبيان. هم فتيان لم ينضجوا بعد. دعهم يستمتعون بحياتهم ، هؤلاء المساكين. من يدرى كم منهم سيعودون أحياء سالمين ؟

أجابه القبطان بلهجة ضارية :

– اسكت أنت ، يا أنطوناكيس وفر وصاياك لدكانك. أما هنا فأنا الذى آمر .

وفى غمرة غضبه ضغط بشدة على دفة القيادة .

من أغوار الأفق ، كان يفد ضوء شاحب ضعيف يكسو الأرض بجمال عذرى. ورويداً رويداً ، كان الضوء يزداد سطوعًا ، ويعلو ، ويصبغ بلون قرمزى ولؤلؤى كل الأرجاء القريبة والبعيدة ، ويضفى جماله على الطبيعة كلها ، وعلى البشر جميعًا .

كانوا قد خلفوا الجزيرة بعيداً وراءهم ، واقتربوا الآن من بعض الجزر الصغيرة الجرداء ، غير المسكونة .

رطبت برودة البحر فى الصباح جباه السكارى ، فأفاقوا أو كادوا من غيبوبتهم ، وجلسوا شعث الشعور على سطح السفينة الشراعية بقمصانهم الصوفية السميكة المبرقشة ، يحملقون صامتين إلى البحر ، بعيون معتمة .

تعالى صوت القبطان فجأة ، بلهجة آمرة :

– القوا المرساة ، حتى نبدأ العمل .

ثم استدار بغتة إلى أنطوناكيس :

– هيا يا أنطوناكيس ، ارسم علامة الصليب. إن هؤلاء الأوغاد لايبصرون ماحولهم من فرط سكرهم .

نهض أنطوناكيس وجلا ، وألقى بنظرته الوديعة إلى البحر .

يا إلهى ، كم كان البحر مظلماً ! كم كان عميقاً ! اقشعر بدنه. كيف سينزل إلى هناك ؟

أصاب الدوار رأسه. ضغطت على قلبه قبضة جليدية صارمة ، وطردت الدماء من عروقه. ساعده رجلان فى ارتداء الرداء المشمعى الجاف. شدا السيور على يديه وقدميه ، حتى لاتتسرب مياه البحر وتخنقه. ربطا الحبل حول وسطه ، وأحكما وثاقه حتى لايتسلل الهواء إلى ساقيه فيملأ الرداء ويقلبه. وألبساه الحذاء الثقيل المصنوع من الخشب والحديد. طوقا رقبته بالطوق الحديدى ذى الاثنى عشر مسماراً الذى يركب عليه غطاء الرأس. ووضعا على كتفيه كتلتين من الرصاص السميك. وبعد أن تمت هذه الطقوس، علقا فى يده اليسرى الشبكة الطويلة التى سيودع فيها الأسفنج. كان غطاء الرأس أمامه ، على الأرض وكان بارداً مخيفاً .

وما أن انتهى من الارتداء ، نادى القبطان غطاساً آخر :

– ميتسو ، ارفع غطاء الرأس .

أمسك الميكانيكي به بين يديه القويتين ، وأخذ القبطان يلقى تعليماته بصوت هادئ خفيض :

– انظر إلى هنا ، يا أنطوناكيس ، وانتبه أيها الشقى ، حتى تفهم ما أقوله ، إنك خائب. انظر. أترى ما فى الجانب الأيسر من غطاء الرأس ، هذا الصمام ؟ من هنا ينزل إليك الهواء النقى ، كثيراً نظيفًا. وسيمضى الميكانيكى يضخ لك الهواء بانتظام وبلا صعوبة ، وستحس كأنك على اليابسة تماماً .

ولكن إذا امتلأ غطاء الرأس بالهواء وانتفخ الرداء ، فإن الهواء الذى هو أخف من ماء البحر سيدفعك ويرفعك إلى أعلى. ولن يصيبك من ذلك ضرر ، طالما كنا بالقرب منك ، ولم يكن ضغط الماء شديداً. لاتضيع وقتك فى هذه الأمور. كما تفتق ذهن صانع هذا الغطاء أن يزوده بصمام آخر. ها هو ذا. إذا ضغطت عليه خرج الهواء الفاسد والزائد عن الحاجة تواً .

والآن ، سأربط فى يدك حبلاً. وإذا عثرت على صيد وفير شددت بقوة الحبل ثلاثاً ، وسنفهم نحن ، ونلقى العلامة حتى لاتفقد المكان .

أما إذا شددت الحبل مرة بقوة ثم أعقبتها بثلاث شدات متتاليات ، فسيعنى ذلك : ملأت الشبكة. أرسلوا إلىّ غيرها. وإذا رأيت سمكة تهددك بالخطر شد الحبل تباعًا مرات عديدة .

هيه ، هذا كل شىء. هيا ، تصحبك السلامة الآن. ارسم علامة الصليب ، ولاتخف ، وتذكر : إذا وجدت صيداً وفيراً شد الحبل ثلاثاً .

ورفع القبطان غطاء الرأس ليلبسه لأنطوناكيس ، لكنه قال :

- انتظر ، نسيت أن أخبرك عندما ستنزل البحر. حذار. سر بخطوات وئيدة. لاتقفز من صخرة. فالقفز المفاجئ خطر للغاية ، قد يودى بحياتك ، وقد يحطم عظمك، فتصاب بالشلل طول حياتك. هيه ! هيا ، الآن ، وسر بخطوات وئيدة .

أصغى أنطوناكيس لما يقال. كانت كلمات القبطان تطن فى رأسه كخلية من النحل. وقد وعى بعضها ، ولكنه لم يع أغلبها .

وقد جعلته ضربات قلبه يسمع ويفهم غير مايقال له. رفع يده المرتعشة ، ورسم علامة الصليب. وأخذ فكه يرتعد فى نوبة عصبية .

رآه القبطان وهو يرتعد لكنه صمت ، وقال لنفسه «إنه مبتدئ. عندما سيغطس بضع مرات سيألف الأمر وينصلح حاله». رفع الغطاء وأدخل فيه رأس أنطوناكيس ثم أخذ يدير الغطاء نحو اليمين كى يلف المسامير ويربطها .

وبين الفينة والفينة ، كان الغطاء يئن من ضغط المسامير فيبعث القشعريرة فى نفس أنطوناكيس الذى أحس بسكين يقطع قلبه .

وعندما انتهت كل هذه العملية ، رفع القبطان عقيرته حتى يسمعه أنطوناكيس :

- هيه ! مبروك ، يا أنطوناكيس ، واملأ لنا الشبكة أسفنجًا .

دار سير المضخة فجأة دورات منتظمة ، وعلا صوتها فى ضربات منتظمة ، مرسلة الهواء إلى لباس الغطس. جذب أنطوناكيس إلى أسفل من ثقل الرداء الذى يحوطه ، وقد شل من شدة الخوف الذى ركبه.

جـر قدميـه ببـطء علـى أرض السـفـينة ، وأمـسك بالسلم الصـغـير متأهباً للنزول .

ومـن خـلال منظار الغطاء ، رأى أنطـوناكيس البحـر العمـيـق مرة أخرى ، وأحس بالعرق يتصبب من جسده كله .

تمتـهم قـائلا «يا إلهى ، لاتأخـذنى ، دعنى أعـيش قليلاً» ولكن هذه الكلمات ترددت في أعماقه كدقات طبل أجوف ، ولم تزوده بأدنى قوة. ومن شدة خوفه ، ظل متشبثًا بالسلم لايريد أن يفارقه .

انطلقت الشتائم من فم القبطان بصوت هادر : «أيها الكلب القذر ، لم تمانع عندما قبضت نقودك مقدماً ».

انبطح أرضًـا في غمـضة عين عند حـافة السفينة ، وأمـسك بعنف يدى أنطوناكيس ، وألقى به إلى البحر .

أخذ الهواء يخرج من الصمام الأيسر ، وبدأ الغطاس يغوص فى اللجة .

وكلما أوغل فى الغوص غطى وجهه البحر بفقاقيع صغيرة ، لاتلبث أن تتكسر هائجة عند السطح .

وفوق ، كانت المضخة تعمل بلا انقطاع ، وكان سيرها الجلدى يدور دورانًا شيطانيًا ، مزوداً الغطاس بالهواء. وعند حافة السفينة وقف أحد العمال يرخى الحبل بحذر كلما شد الحبل .

أما صبـى السفينة فقد جلس متربعـاً ، ومـضى يرخى الخرطوم بلا انقطاع وهو يرقب الساعة ، ويصيح بلهجة منغمة مشيراً إلى الثوانى التى انقضت على نزول الغطاس إلى أعماق البحر :

ثانية ، ثانيتان ، ثلاث ثوان ، أربع ثوان ...

وشاركه عامل آخر ، ومضى فى الصياح بدوره فى لهجة غنائية ، وقد انعكست فى صوته المعاناة التى يلقاها زميله حيثما نزل .

عشر ، إحدى عشرة ، إحدى عشرة ، إحدى عشرة .

مضت عشر دقائق ثم إحدى عشرة دقيقة ، ثم اثنتا عشرة ، ثم ثلاث عشرة. ومن تحت من أعماق البحر لم يرد نبأ ، ولم يشد الحبل قط. رفع العامل المنظار الزجاجى. غسله بما البحر ، رجه بشدة ، ونظفه جيداً. ثم وضعه على سطح البحر ، ودس رأسه فيه ، ودقق النظر منه .

كانت شمس الصباح مازالت واهنة ، تلاطف أشعتها الجذلة وجه البحر. وقد بدأت تكتسى بالقوة على التسلل إليه وإضاءة جوانبه .

وتحت ، كان قاع البحر مليئا بالطحالب الكثيفة الطويلة ، مما كان يزيد القاع قتامة وسواداً. ولهذا لم يتمكن العامل من أن يبصر الأعماق بجلاء. فرفع رأسه ، وقال بصوت ثقيل : الظلمة حالكة تحت ، أيها القبطان. لم يشتد نور الصباح بعد. وجذب المنظار خارج الماء. واصل الصبى العد بلاتوقف :

أربع عشرة ثانية ، أربع عشرة ثانية ، أربع عشرة ثانية ... وفى لحظة قال القبطان آمراً :

– اجذبوه ، لنخرجه ، فهو مبتدئ .

عقب العامل قائلا :

– مبتدئ ، لكنه إنسان عزيز النفس .

أمسك الميكانيكيان بالخرطوم والحبل وشرعا يشدانهما .

قال القبطان :

– لو ملأ هذا الأحمق رداءه بالهواء رويداً رويداً ، لقذف به إلى أعلى ، على مايرام ...

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق أخرجوه إلى سطح البحر ، لكن أنطوناكيس لم يمد ذراعيه ليمسك بالسلم الصغير ، ويصعد .

ظهر للعيان مثل لفافة كئيبة ، طويلة أحكم وثاقها .

قال القبطان بصوت شرس .

– لعنة اللّه عليه. ماذا حدث له ؟

انكفأ على الأرض وانقض عليه. ممسكا به. تلقفه اثنان أو ثلاثة من الآخرين وجذبوه .

لم يقف أنطوناكيس على قدميه. مال رأسه جانبًا داخل الغطاء. واصطبغ وجهه بلون أسود مخضر وتناثرت عليه بقع حمراء ، هنا وهناك. واختفى من عينيه اللتين كانتا نصف مفتوحتين كل أثر للسواد .

صاح القبطان :

– أوكسيچين .. حالاً .. أوكسيچين ... حتى لايضيع الرجل .

حملوه وألقوا به إلى البحر من جديد. أنزلوه إلى نصف قامته ، وعلقوه هكذا. كان السير يدور الآن بسرعة أكبر ، فيزيد عدد دوراته. كان الهواء يمر فى الخرطوم نقيًا متدفقًا .

وبفضل هذا الذى يسميه الميكانكيون «أوكسيچينا» يشفى كثير من المقعدين، وأنصاف المشلولين تماماً ، وآخرون أيضاً يتحسنون إلى الحد الذى يمكنهم أن يحركوا أيديهم ويجروا أقدامهم ، ورويدا رويدا على مر السنين ، ينفض عنها الخمول حتى يصير باستطاعاتهم أن يتنقلوا بطلاقة لابأس بها ، وإن كانوا يعرجون فى سيرهم أو يجرجرون خطواتهم .

استبد القلق بكل الذين على السفينة . وكان القبطان يتأجج حنقاً ، وتقدح عيناه شرراً. وكان يبدو بذراعيه الغليظتين المفتوحتين اللتين يلوح بهما يمنة ويسرة مثل وحش ضار .

كان الوقت يمر. نصف ساعة ، ثلاثة أربع ساعة .

صاح القبطان من جديد :

– هيا ، اجذبوه .

اندفع الطاقم كله إلى الخراطيم والحبال .

عندما رفعوه ، لم يقف أنطوناكيس على قدميه ، وصار الآن أسود مثل مسوح الرهبان. سنده اثنان من البحارة ممسكين به من إبطيه ، وشرع القبطان يفك غطاء الرأس. وعندما تحرر الرأس مال وسقط جانباً. تناول القبطان الوجه بين يديه. وقال :

– ياللعنة ، مازال دافئاً. لابد أنه حى. املأوا الدلاء من البحر حتى نجعله يفيق .

لكن إلى أن يخلعوا عنه الرداء المطاطى ، دبت البرودة فى جسد أنطوناكيس ، وتخشب. وفجأة توقفت المحاولات وماتت الآمال .

وقال أحد الحاضرين ، وهو يرسم علامة الصليب :

– فليرحمه الله .

رسم الجميع علامة الصليب منكسى الرءوس. لم يتحرك أحد فى المركب. ارتسمت الرهبة على قسمات الرجال، وتسمرت عيونهم على الجسد الذى دبت فيه زرقة الموت .

همس أحد الموجودين قائلا :

– مسكين ، يا أنطوناكيس ، ماذا كان فى انتظارك .

وخيم الذعر على الجميع. مضوا يهزون رءوسهم فى حزن ، وينظرون إلى الجسد المسجى ، ويتفكرون أن المصير ذاته بكل قسوته لهم بالمرصاد أيضاً .

مزق صوت القبطان السكون الحزين ، قائلا بقوة :

– هيا ، رأساً إلى الميناء ننقل الجثمان .

أداروا المحرك. مضى المركب يشق المياه الساكنة بمضاء. صعدت الشمس فى السماء ، واتقدت حرارتها . وأصبحت أشعتها المتكاثرة تشق غلالة البحر الشفافة .

شردت أنظار الجميع صوب الجزيرة ، وسرحت أفكارهم بعيداً ، بعيداً ، لايدرى أحد إلى أين .

وفى لحظة ، ألقى القبطان على الجثمان نظرة تقطر كراهية. وتمتم قائلاً :

– لعنة الله عليك ، أيها النكد المنحوس. دنست مركبي. وناهيك عما ستسببه لي من متاعب ، وما ستحملني به من تعويضات .

تسللت هذه الأفكار إلى خاطره ، فصعد الدم إلى عينيه .

مضى المركب يداعب المياه الزرقاء الخضراء ، ويجري خلي البال ، مقتربا من الجزيرة .

أما الشمس التي تزايد دفئها فكانت تلاطف برقة البحر الراقد ، فينتشي وتسري الرعشة في مياهه .

العودة إلى الميدان الصغير

بيتروس خاريس

كان قد وصل إلى الميناء على السفينة الإيطالية التى تعمل على الخط الملاحى قبيل التاسعة. لكن لم يفده شيئًا سعيه الحثيث لكى يكون فى مقدمة النازلين من السلم الذى ألقى به من السفينة. فعندما انتهى موظف الجوازات من فحص أوراقه ، وفتشت حقيبتاه فى الجمرك ، دقت الساعة الثانية عشرة ظهراً. ثم مضت نصف ساعة أخرى وأبوه وأخته الكبيرة يذرعان بخطى قصيرة متلهفة الرصيف الذى كان ينتظره عليه أقارب آخرون وأصدقاء من الخارج. ولم يصعد الدرجات إلى بيته إلا ساعة القيلولة ، وقد غرق أهل أثينا فى نومهم المتعب ، وتصببوا عرقًا من شدة الحر الذى عرف به شهر يوليو .

عاد الشاب من فيينا ، وكان ينظر إلى أهله فخورا. قضى أربع سنوات فى العاصمة الكبيرة ، التى ولئن كان قد ولى مجدها الغابر ، إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ بمكانتها فى بعض فروع الطب. وقد جلب الشاب خبرة كافية ستجعل الناس فى أثينا يقبلون على طلبها كلما مرت الأيام. كان جده وأبوه من بعده طبيبين معروفين ولهما زبائنهما.

وقد قدما الكثير من الخدمات لثلاثة أجيال متلاحقة فى أثينا القديمة ، ولكنهما لم يزورا أية عاصمة من العواصم الأجنبية ، رغم أنهما استشعرا فى بعض اللحظات الحاجة إلى مثل هذه الزيارات. وقد لمح أبوه على الأخص فى عيون بعض مرضاه أنهم كانوا يفضلون لو أنه كان قد قام برحلات إلى الخارج ، ويتابع تطورات «العلم»! ولهذا ، ما أن نال الابن شهادته ، حتى أرسلته أسرته إلى ڤيينا ، ولم تستعجل عودته فى أى خطاب من خطابتها إليه. «عليك بالمعرفة كلها، لاتكتف بمعرفة مبتسرة مثل أولئك الذين يثيرون سخريتنا » .

استغرقت الأسئلة الأولية ساعتين ونصف. أفراد الأسرة كلهم من حوله ، يستفسرون ويشبعون فضلوهم ، منصتين إليه كل الإنصات. وقد روى لهم عن حياته العصرية فى ڤيينا. أما هم فلم يكن لديهم الكثير يقولونه له. والقليل الذى حكوه له كان ترديداً لأحداث ليس فيها جديد ، لا فى بيته ولا فى أثينا كلها ، وهكذا كان هو أول من كف عن توجيه الأسئلة فقد أحس بأنه يقف على الأرض ذاتها ، على الأرض التى عرفها ، وسكت. ولم يلبث أفراد الأسرة أن سكتوا بدورهم. كانوا قد دققوا النظر فى عينيه ، فلم يطرف له جفن ، وتأكدوا من أنه لم يكن يخفى عنهم أخبار التردى فى مغامرة غرامية أو فتنة من آلاف الفتن ، تلك الأخبار التى يحذر الشباب البوح بها فى الأيام الأولى بعد عودتهم من العواصم الأوروبية. قرعت الأسرة الكئوس مرة أخرى ، وهم أفرادها بالانصراف عن المائدة. وعندئذ قال الأب :

– انتظرونى لحظة .

وخرج من غرفة الطعام .

وصاحت الأخت الصغرى ضاحكة :

– اللافتة ! سيحضر اللافتة !

نهرتها أمها قائلة :

– اسكتى !

وانسكبت فى وجهها ألوان تتدفق حيوية وتأثراً شديداً .

لمح الابن التغير الذى طرأ تواً ، وسأل فى قلق .

– هل حدث شيء ؟

وأجال بصره فيمن حوله جميعاً .

بدا عليهم أن ثمة أمراً يعرفون ويترقبونه .

– لا شيء. سترى ، الآن .

لم يتسع الوقت حتى يقولوا له المزيد. فقد عاد الطبيب العجوز يحمل لافتة صغيرة من ذلك النوع الذى يضعه الأطباء والمحامون والمهندسون على أبوابهم .

اقترب أبوه منه ، وأراه إياها ، ونظر إليها بوقار. أخفى بصعوبة بعض الانفعال ، وقال له :

– كلفت بصنعها عندما كتبت لى تنبئنى بعودتك. انزع اللافتة القديمة التى تحمل اسمى وحده ، وضع هذه مكانها .

وأعطاها له. كانت لوحة من المعدن الرقيق حفر عليها اسمان. اسم الأب أولا ويليه اسم الابن. وتحت الاسمين كتبت مهنتهما : الطبيبان .

تابعت الأسرة كلها المشهد بتأثر مكبوت. كان الأب يعرف أن هذه اللحظة آتية ، وكان يعد لها. كان الجميع ينتظرونها بدورهم ، وهاهم يحيونها فى النهاية ، كما لو كانت حدثاً يمثل نقطة تحول فى تاريخ الأسرة .

أخذ الطبيب الشاب اللوحة المعدنية بين يديه ، وتأملها بضع لحظات ، ونظر فى عينى أبيه ، ولم يقل شيئاً. ثم انحنى وقبل يديه .

عندما انتهى الحفل ، كانت ساعات الظهيرة الحارة قد انصرمت ، فبدأ الجيران يستيقظون من نومهم الثقيل الذى يحتمه شهر يوليو ، ويفتحون نوافذهم التى ماعادت الشمس تسلط سياطها عليها .

وعندما وجد الشاب العائد نفسه وحيداً فى غرفته ، أخذت الذكريات تصحو فى قلبه من جديد. كل شىء فى مكانه ، كما لو كان هذا المكان الذى أمضى فيه طفولته وصباه قد أصبح متحفا ، فلم يسمح أهل البيت بنقل أى شىء من موضعه. هاهى المرآة المربعة الصغيرة معلقة أيضاً فى مكانها القديم ، الذى احتلته منذ أن بدأ يحلق ذقنه أمامها عند بلوغه السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمره. وعندما وقف أمامها تحولت إلى مرآة سحرية ، مرآة الحواديت والحكايات الخرافية. تدافعت فى هذا الإطار المربع حياة بأسرها. كانت تبتسم وتثرثر ، ومن فرط عنفوانها بدت كما لو كات ستكسر اللوح المصقول. ولم يكن الشاب ليبتعد عن المرآه، ولم يكن ليشيح ببصره عن الحياة التى كان يراها تترى أمامه. حاول أن يحلق ذقنه ، لكنه لم ير فى المرآة وجهه وحده. كم من أشياء اتسع لها ذلك المربع الصغير ، وكم من أشياء كانت فى طريقها إليه. صبيان ، بنات ، صداقات ، أولئك الذين أحبهم

وأولئك الذين نفر منهم ، ألعاب مجنونة ، الرحلات الأولى إلى خارج المدينة ، ويمنأى عن سيطرة الكبار ، وكل ماصاحب تلك الرحلات من لهفات كبيرة. انصرف الأولاد ، والفتيان ، والصبايا من أمامه ، وجاءت وجوه أخرى فرحة ، غاضبة ، حزينة ، ثم زالت هذه الوجوه بدورها لتظهر غيرها أيضاً محلها مثل دوامة من الرقص لاتهمد حركاتها. على أن ثمة منظراً واحداً تسمر فى مكانه ، ولم ينمح من لوحة المرآة. اكتسى بألوان عديدة ، لكن شكله لم يكن يتغير. منظر ميدان صغير ، ينبض بحياة خفية ، رغم مساحته الضيقة ، بل كان يبدو أكثر انحصارا بسبب الأشجار التى تحيط به ، وتفيء عليه بظلها الظليل .

لم تستغرق الحلاقة منه كل هذا الوقت قط. ومع ذلك فقد كان يريد أن يفرغ منها سريعًا ، كى ينزل إلى الشارع ، ويسير فيه ثلاثمائة أو ثلاثمائة وخمسين متراً ليصل إلى المكان الذى ظل منظره منطبعاً على الدوام فى مرآته الصغيرة المربعة. كان يبدو أنه حقيقى أحياناً ، ويبدو أنه لوحة من «الأكواريل» أحيانا. كانت لاتفارقه الحياة تارة ، وكانت تضيئه الذكرى تارة أخرى. كانت هذه الذكرى تشتد ، ويزداد نورها. وتصير كتلة خالصة النقاء ، على مر الأيام. أصبح يرى الآن الميدان الصغير ، وقد ارتسم أمامه فى المرآة بوضوح. كان ميداناً مستديراً كما لو كان قد رسم بالبرجل. يحوطه كثير من أشجار الصنوبر والفلفل الباسقة. وفى وسطه أحواض منسقة حافلة بأزهار معتنى بها ، لاتشكو عطشاً. وقد تناثر فى الميدان بعض الأرائك هنا وهناك ، وعدد من أعمدة التليفون ، أغلبها من الخشب ، وقليلها من الحديد ، هى من بقايا نظام

الإضاءة القديم فى العاصمة. وفى أحد الأطراف مقهى صغير ويضع مناضد. ميدان عادى بسيط ، هو متنزه الحى المحيط به كله .

تذكر الطبيب الشاب أن ميدانهم كان يصيبه التشويه فى بعض الأوقات. فقد كان إلى جوار المقهى أرض فضاء غير مزروعة. وكان رجال البلدية يكدسون فيها رمالاً وحصى كلما جاءوا ليعبِّدوا واحداً من الشوارع المجاورة. عندئذ كان أهل الحى يبعثون بشكاواهم إلى المحافظ ، ويدبجون عرائض ضافية يثقلونها بالعديد من التوقيعات. وكان من نتيجة ذلك عدم بقاء الرمل والحصى أيامًا عديدة. كانوا يريدون ميدانهم نظيفًا ومعتنى به. وكان الجميع يذودون عنه ، ويسهرون عليه ، ويحمونه من الأخطار المتنوعة التى كانت تتهدده. كان الميدان منذ سنوات عديدة مقفلا هادئا مثل قلب بيت عتيق لايحتمل إدخال تعديلات عليه. وكان يحمل اسم حاكم من الحكام القدامى .

ولكل من الرجال ، بل ومن صبيان الأمس ، قصة مع هذا الميدان. ففيه تم أول لقاء بين أغلب فتيان الشوارع المحيطة وفتياتها . وكل منهم عند مروره بالميدان وحيداً ذات ليلة من ليالى الأسبوع أو الشهر أو السنة فى أوبته إلى بيته يذكر ناحية لم يكن بالإمكان أن يجد مثلها فى وقت ومن الأوقات بأى شارع ، أو ميدان ، أو مدينة ، لم يكن يجد مثلها فى غير هذا الميدان. ولقد وجد الطبيب الشاب فوراً على صفحة المرآة المربعة ساعته ومكانه هو. رأى مكانه تحت شجرة ضخمة من أشجار الصنوبر فى الجانب الشرقى من الميدان ، فى ليلة من ليالى الخريف. إنها الآن قد تزوجت ، ورحلت بعيداً عن الميدان ، وعن شجرة الصنوبر ،

ومضى بها الزمن بعيداً عن تلك الليلة ، لكن ربما لم تكن تلك الحبيبة نائية إلى هذا الحد ، ربما لم تكن قد بعدت خطوة واحدة .

صاحت به والدته من المشى :

– عجبًا ! أمازلت تحلق ذقنك ؟ كان الله فى عونك .

فرغ الآن من الحلاقة. لكن هذه الحلاقة قد استغرقت خمساً أو ستًا أو سبعاً من السنوات ، استغرقت صباه كله .

نزل إلى الشارع وأخذ يسير على غير هدى. كان يريد أن يستنشق بعض الهواء قبل أن تبدأ الزيارات التى لاتنتهى. فعندما أمر أبوه بعمل اللافتة الجديدة ، أبلغت أمه الخبر إلى الأقارب والأصدقاء. وسيغص البيت الليلة بالقبلات والاستفسارات وإمارات الفضول والسخافات الصغيرة ، من تلك اللاتى يحطن كل من يعود من الخارج بعد سنوات من الدراسة أو المغامرات. بعد قليل ستملأ الظلال الميدان المجاور الذى مالبث أن عاد إلى المثول فى مخيلته من جديد. هاهو الآن خارج غرفة طفولته وصباه ، وخارج مرآته السحرية ، وها هو ذا الميدان يغريه بقوة للذهاب إليه. أوسع خطاه وانفتح قلبه برجاء حار. لايريد أن يلتقى ولابأعز أحبائه ، ولا بأجمل فتاة فى أثينا ، حتى يصل إلى هناك حراً وحيداً .

بعد قليل سمع امرأتين يتمتمان بشىء ، وتناهى إلى سمعه :

– انه ابن الطبيب ياشيخة !

تظاهر بأنه لم يسمع. ومضى قدماً ، حتى وصل إلى نهاية الشارع. وقف هناك ، دون أن يدرك ماحوله. أين هو ؟ أين الميدان ؟ بل وأين كان

ذلك المكان وتلك الساعة ، وذلك الخريف ؟ أجال بصره من حوله ، وتردد. قدح ذهنه ، حاول ، لكنه لم يتعرف إلا بصعوبة ، كما نتعرف على صديق قديم. تغيرت قسمات وجهه وعلاها التعب .

ربما لم تنقص أشجار الصنوبر واحدة. كما كانت غالبية أشجار الفلفل فى مكانها. أما الأحواض الصغيرة ، فقد بدت كما لو كانت قد ولت هاربة أمام خطر داهم ، فلم تخلف وراءها سوى آثار باهتة : بعض من شباك الأسلاك ، وبعض الخطوط الشاحبة جعلت من الميدان سهلاً مقسمًا إلى حقول جرداء. وعند الطرف فى مكان المقهى الصغير ، قام الآن مبنى أبيض صغير ، هو محطة للبنزين ، ألحقت بها «ورشة» ضخمة للسيارات. وتناثرت من حولها سيارات للنقل ، بعضها كبير والآخر صغير ، بعضها جديد والآخر خرب. فقد استخدم المكان «جراجا» مكشوفًا للعربات .

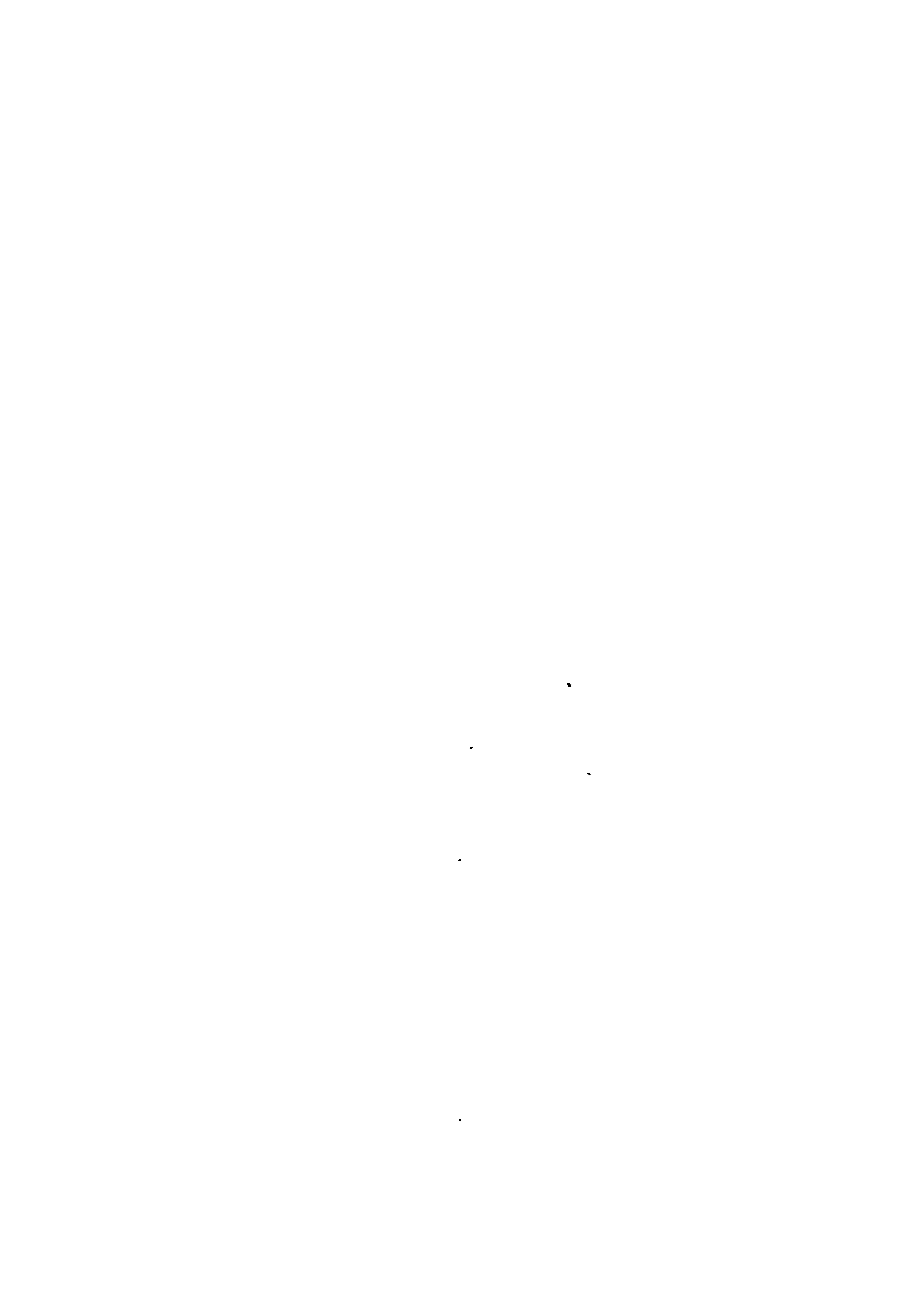
تسمر الطبيب الشاب فى مكانه. وجال بصره وجال ، وبعد قليل تذكر أن ميدانًا آخر فى جهة منعزلة كان قد استحال قبل سفره إلى موقف لعربات «الكارو» لكن هذا الخاطر لم يدخل شيئًا من العزاء إلى نفسه. وجاب الميدان بخطوات بطيئة حزينة ، تلاحقه همسات لايسمعها إلا قلبه .

السيارات ورائحة البنزين فى كل مكان. وشعار الورشة فى كل الأنحاء. كان مثل ديك على السطح ، فوق المبنى الأبيض ، يأمر ، ويصيح ، وينفر ، ويطرد كل من يجىء بخطوات بطيئة ، وكل من تصيبه رائحة البنزين بالدوار .

أخذ الليل يرخي سدوله. وبدأت تفد عربات نقل أخرى ، وآلات أخرى كانت تزفر وتتنهد بمجرد أن تقف ، عجلات أخرى كانت تئن وتولول بمجرد أن تكف عن الدوران. كانت الظلال تتكاثف، لكن الطبيب الشاب لم يبرح المكان. بقى إلى أن همدت كل الآلات ، وخيم الصمت على الميدان الصغير. وكان سيبقى وقتًا أطول ، لكن ضوءًا قويًا أيقظه ، وبدل حاله ، أمسى شعار الورشة الآن عينًا كبيرة شديدة الحمرة ، تلقى ضوءًا قويًا ، وتصب عليه لهبًا .

سار بضع خطوات بطيئة أخرى ، بضع خطوات قليلة ، قليلة جداً. استدار. ورأى من جديد العين الحمراء الضخمة ، وانتابه الذعر. رأى هذه العين ، لم ير شيئًا غيرها .

كان قد ابتعد الآن ، عندما استدار ليلقى نظرة أخرى. لكنه لم ير شيئًا جديداً. كان الميدان الصغير قد اختفى. كان قد مات .



النورس

إيليا فينيزى

الجزيرة الصغيرة فى شمال «ليزفو» الواقعة بين «بيترا» و «مواليفو» جرداء ومهجورة. ليس لها اسم ، والصيادون الذين يعملون فى مياه تلك النواحى يطلقون عليها «الجزيرة» فحسب دون أدنى إضافة. وباستثناء شجيرات الحسك والشوك التى تغطى أديمها ليس بالجزيرة شجرة واحدة. تلوح على بعد ثلاثة أميال جبال «ليزفو» وادعة متآلفة الخطوط والألوان والحركة. وبإزاء تلك الوفرة التى تكتسى بها الأرض المقابلة تبدو الجزيرة العارية بخطوطها الصارمة أكثر عزلة ووحشة .

ولكن من جزيرة الأرض المستطيلة هذه ، بإمكانك فى الصيف أن ترى الشمس تسقط فى رحاب اليم المترامى الأطراف. وعندئذ تصطبغ المياه بشتى الألوان ، وتمضى متغيرة فى كل لحظة كما لو كانت تذوب فى الأمواج الزاهية. وعندما تكون الأمسيات صحوة والسماء صافية ، يمكنك أن تميز جبال آثور تبزغ من البحر الرحيب ، على أنها لاتلبث أيضاً أن تخبو مع الليل الذى يخطو قدماً . فى هذه الساعة ، سوف يأتى العم ديمترى قاطن الجزيرة المهجورة الوحيد ، سوف يأتى بالحركة

الأخيـرة التى تربطه بالبـشـر والحـيـاة ، سـوف يوقـد النور فى الفنار. وسـوف يبـدأ هذا النور يضـىء وينطفئ ، ثم يمضى يضـىء وينطفئ فى الفترات المتقطعة ذاتها بصرامة وحتمية ، مثل القوى الغامضة فى الحياة ، مثل قدر الإنسان ، ومثل الموت .

جذب حارس الفنار العجوز القارب على الرمال ، ووضـعه فى مكان أمين ، فقد ينقلب الجو بالليل فتمتد إليه المياه. ثم ألقى عليه نظرة أخيرة قبل أن يمضى فى طريقه إلى الفنار .

– إذن ، انتهت هذه الرحلة أيضاً .

قال ذلك بصوت خفيض .

قـال ذلك لنفسه وسكت. هذه الرحلة إلى الشـاطئ المقابل يقوم بها مرة كل شهر. يذهب إلى هناك من أجل مؤنته ، من أجل الدقيق والزيت ، ومن أجل سـائر لوازمـه. فى أول الأمـر ، كـان فى كل رحلة يقـضى فى القرية اليوم كله ، يتجـاذب أطراف الحديث مع أصدقـاء قدامى ، يعرف أخبـاراً عن البلد ، وعن البشـر ، يعرف ما إذا كـان الناس فى حرب أم فى سلام .

كان صرّاف الجمارك ينقده مرتبه قائلا :

– كل شهر وأنت طيبّ ، ياعم ديمترى ..!

كان العجوز يهز رأسه شاكراً ، يقول له :

– أراك بخير ، يابنى ، إن كان لنا عمر .

في الساعات الباقية إلى أن يحين أوان عودته إلى «الجزيرة» كان يصعد إلى كنيسة العذراء الصغيرة ، متسلقًا درجاتها المائة المنحوتة في الصخر ، كي يؤدي صلاته. كان يشبك ذراعيه أمام الأيقونة القديمة ، ويخفض رأسه ويصلي من أجل ولديه اللذين فقدا في «نكبة الأناضول» ، ومن أجل سائر البشر ، وأخيراً من أجل نفسه .

– لو كانا على قيد الحياة ، يا إلهي ، احفظهما .

هكذا كان يبتهل من أجل ولديه .

– احفظهما من ثورات الغضب ومن شرور الزمن ، ومن الشجار وحد السكين .

ثم كان يتمتم بالصلاة ، وبما كان يعرفه من تراتيل. وتدب الرعشة في ساقيه الهرمتين .

كان يقول :

– آن أواني كي أستريح بدوري .

وتغرورق عيناه بالدموع .

كل مرة ، كان ينزل الدرجات المائة ، وقد زاد قلبه ارتياحا . في الشارع ، كان يقف ويتابع الأولاد وهي تلعب. جميعا يعرفونه فإذا ما رأوه صاحوا به :

– عم ديمتري ! عم ديمتري !

كان يشتري لهم بندقًا ويوزعه عليهم ، فيهللون فرحين .

- لا تتأخر فى العودة إلينا ، أيها الجد العزيز ! لا تتأخر !

هذا ماكان يحدث فى كل رحلة. كل مرة. ولكن كلما ولت السنوات قلت ألفته بالناس ، وازدادت العزلة استحواذاً عليه يوم بعد يوم. كانت تمتصه ، كما لو كانت تقطر فى كيانه سطوتها المخيفة. مضى فى كل رحلة يقلل قدر إمكانه من الوقت الواجب قضاؤه فى القرية من أجل أعماله .

ثم كف أيضاً عن الصعود إلى كنيسة الصخرة .

- سامحنى لأننى ماعدت أستطيع .

هكذا كان يخاطب الرب. ثم يردف قائلاً :

- أينما كنت أستطيع أن أصلى إليك ، لترى مبلغ ضعفى .

وعندما يعود إلى جزيرته بعد كل رحلة ، يظل ردحًا طويلا من الليل يصلى .

ماعاد يسأل عن أخبار ، ماعاد يسأل عما يجرى فى الدنيا. لم يعد يعرف عن ذلك شيئًا. مع فوات النهار ينحسر العالم من حول الجزيرة المهجورة ، وتنغلق على نفسها ومن حولها البحر العميق ، تتراقص على صفحته الألوان والشمس فى طريقها إلى المغيب .

آخر الصحاب الذين تبادل معهم الحديث ، كانوا بعضًا من الصيادين الذين يرسون بالجزيرة مليًا ، وقد وجدوا لديهم من الوقت فسحة ليحطوا بها الترحال. كانوا يبقون على الشط حيث تخمد حركة الموج ، ويتحدثون عن شقائهم وقدرهم. فى كثير من الأحيان يمضون

الليل هناك. وعندئذ ، فى الساعات الطوال إلى أن تشرق الشمس ، كانت تفرغ أحاديث الآخرين فتجىء الساعة المهيبة ليتحدث بدوره عن ولديه أيضاً .

كان الصيادون يقولون له :

– من يدرى ؟ ربما كانا على قيد الحياة ، ويجيئان ، ياعم ديمترى ، هكذا مثل نورسيك اللذين عادا إليك .

لم يكن ينطق بكلمة ، لم تكن تصدر عنه نأمة. عيناه الساكنتان مثبتتان على أعماق الليل .

– أجل ، ياعم ديمترى ، مثل نورسيك هكذا يمكن أن يجيئا ويعودا إليك ، لاتيأس

وعندئذ كان الصيادون ، يذكرون – بهذه المناسبة – نورسى عم ديمترى. يقولون له :

– حقا ، كيف أمكنك أن تستأنسهما ، ياعم ديمترى. لم يسمع قط بأن طيور النورس تستأنس .

ويتمتم العجوز قائلا :

– هذا ما حدث ، يا أبنائى. الوداعة تسود هنا ، على الأرض ، تسود كل شىء ، عدا الإنسان الذى يظل ضارياً .

كانوا يسألونه أن يحكى لهم مرة أخرى حكاية الطائرين ، على الرغم من أنهم كانوا يعرفونها كما يعرفها كل قاطنى اليابسة المواجهة. وجدهما صغيرين بين الصخور ، فرخين لم يغط الريش جسميهما بعد. كان الوقت شتاء آنذاك. أشفق عليهما ، وحملهما إلى كوخه بالقرب من

الفنار. احتفظ بهما ورباهما ، مطعما إياهما صغار السمك الذى يعلق بشبكته. ذات يوم ، خطر له أن يطلق على كل منهما اسماً .

– إيه ، أنت ، ستناديك ...

فى ذكرياته ، فى قلبه ، تلك الساعات المفعمة بالسكينة ، حوم وجها الطفلين عندما كان يناديهما وهما جد صغيرين :

قال لأحد الطائرين :

– إذن ، أنت ستناديك فاسيلاكي. وأنت أيها الآخر سنسميك أرغيرى .

وهكذا بدأ يناديهما منذ ذلك الحين باسمى ولديه. ورويداً رويداً ألف النورسان هذين الاسمين .

عندما كبرا ، وجاء الربيع ، فكر العجوز ذات صباح أنه ليس من الجائز أن يبقى الطائرين فى الأسر. وقرر أن يطلق سراحهما. فتح القفص الكبير المصنوع من الغاب ، وأمسك بأحد الطائرين. أمسك به بين يديه ، وربت عليه. أحس بقلبه خفيفاً .

قال للطائر :

– هيا ، إذن يافاسيلى .

وفتح يديه كى يتركه يطير .

طار النورس ورحل .

أخرج الآخر أيضاً. لاطفه مثلما لاطف الأول. وتركه بدوره. كان كل شىء وديعاً ذلك النهار ، وكذلك الليل عندما أقبل كان حانياً وديعاً. كل ما هناك ، أن العجوز أحس بأنه ازداد وحشة وعزلة .

تلك الليلة ذاتها ، آوى إلى كوخه مبكراً ، فسمع على شباكه الصغير دقات خفيفة. دنا منه وألقى نظرة. لم يصدق. طار من شدة الفرح كما لو كان ابناه قد رجعا .

فتح الباب ليدخل النورسان .

ومن ذلك الحين ، يحدث هذا كل يوم. يخرج الطائران في الصباح. يسافران إلى أرض الأناضول المقابلة ، يبلغان «زيغرى» يرفرفان عليها بأجنحتهما، وبالليل يعودان. في مرات عديدة كانا ينضمان إلى أسراب من نوارس أخرى. وتطير جميعًا في سماء الجزيرة المهجورة. فإذا طارت على ارتفاع خفيض ، أمكن للعجوز أن يميزهما بفضل ما كان لهما من نقط رمادية تحت الجناحين. وإذا ماخرج بقاربه كان الطائرين بدورهما يحومان هناك قريبًا منه. يهبطان من ارتفاعهما ويزقزقان فوقه. كان الصيادون الآخرون في تلك النواحي قد عرفوهما أيضًا. فإذا رأوهما صاحوا ضاحكين :

– هيه ، ياقاسيلي ، هيه ، ياأرغيرى !.

هكذا مضت الأيام في الجزيرة الموحشة. يتوالى الأمس واليوم والغد ، على ذات الوتيرة. سلسلة من الأيام الهامدة ، أنهر وليال ليس فيها ماينتظر سوى الموت .

ذات أمسية من أمسيات الصيف حدث أمر غير مألوف. لم يعد النورسان ، ولا ظهرا في اليوم التالي. انقضت الليلة أيضًا دون أن يبدو لهما أثر .

– ربما سافرا بعيداً .

هكذا فكر العجوز متحايلاً على قلقه .

وفي صبيحة اليوم التالي جلس - كما اعتاد أن يفعل - على رصيف الفنار. نظر إلى البحر الرحيب. في لحظة ، خيل إليه أن أديم اليم تماوج ، على مبعدة ميل أوزهاء ، كما لو كان ثمة دلافين تمر وتلعب. مرات كثيرة ، رأى على بعد في البحر الفسيح ، الدلافين تمر. تابعها وهي تخط حركتها المتماسكة خارج الماء ، ثم تعود وتغطس في اللجة .

قال :

- دلافين هي ، هذه المرة أيضًا .

ولكن بعد هنيهة رأى أنها لم تكن كذلك .

قال مجفلاً :

- إنهم بشر .

نزل إلى الشاطئ ، وراح ينتظر. بعد قليل تبين أنهما ولد وبنت ، يسبحان جنبًا إلى جنب ، بحركات بطيئة واثقة. ومن ورائهما الأمواج الصغيرة تطمس الأخاديد التي يشقها في الماء جسداهما .

عاد يفكر قائلا :

- ترى ، ماذا يريدان ؟

لايذكر أن جاء إلى هنا أحد من قبل لممارسة السباحة. فضلاً عن أنه لايبدو من حولهما أي قارب يمكن أن يكونا قد قفزا منه .

بعد قليل ، وصلا .

اندفع الجسمان المبللان من البحر إلى الشاطئ .

نظر الفتى إلى عينى الفتاة ، ومد ذراعيه عالياً .

قال وهو يستنشق الهواء بقوة :

- آه ! كم كان الأمر جميلاً .

أتت الفتاة بذراعيها ذات الحركة ، ولكنها كانت أكثر بطئًا. ثم قالت مؤكدة :

- كم كان الأمر جميلاً حقا !

بعد ذلك ، جريا نحو حارس الفنار .

قال الفتى :

- أنت عم ديمترى ، حارس الفنار ؟

وقف العجوز مطرق الرأس ، وقد امتلأ خشوعا أمام جسد الفتاة العارى ، يلمع فى ضوء الشمس الحارقة .

أجاب مرتبكا :

- إنى أنا . هل أصابكما مكروه ؟

سارع الفتى قائلا :

- آه ، كلا ! قررنا أمس أن نقوم بهذه الرحلة ، أنا وصديقتى ، وها نحن قد جئنا .

سأل العجوز دهشا :

- من أين ؟

- من الشاطئ المقابل. من «بيترا»

لم يعرف العجوز ديمترى ماذا يقول. تمتم فحسب بأنه لايذكر أن أحدًا جاء إليه من قبل ، فى رحلة مثل هذه .

سألته الفتاة :

- هل ذهبت إلى أثينا ذات مرة ، ياجداه ؟

قال : كلا ، ولا مرة .

- هل تتمنى أن تذهب إليها ؟

بصوت خفيض ، يكاد لايسمع ، قال :

- كلا ، يابنيتى. فات الأوان ، الآن .

- لابد من أنك فى غاية العزلة هنا ، ياجداه .

- إنى فى غاية العزلة ، يابنيتى .

صمتوا. مضى بعض الوقت. عاليا مر سرب من النورس. ينهض العجوز ، ويدخل إلى الكوخ ليحضر لهما قليلا من المربى. من الشباك الصغير بإمكانه أن يرى الولدين وهما مستلقيان على وجهيهما ، وجسداهما لازالت ترتعش عليهما قطرات من ماء البحر. لوحتهما الشمس بلا رحمة. إنهما هناك مثل تمثالين من البرونز ، فجرهما البحر ، من صنع آلهة للصحة ،آلهة للجمال أيضًا. يتهدل شعر الفتاة الفاحم

على كتفيها ، وفي عينيها السوداوين يتألق نور عميق. ينهض الفتى قليلا ، ويميل على هذا الوجه الذي يغمره الضياء بالقداسة. يتطلع إليه منتشياً، ثم يمد يده ببطء ويتحسسه ملاطفاً .

لايقول شيئًا ، يتمتم باسمها مرتعد الشفتين فحسب :

– خريسولا .

ترتفع العينان الواسعتان السوداوان ، وتظلان برهة قصيرة ساكنتين ، مثبتتين على وجه الفتى. ثم تعقد الفتاة يديها خلف رأسه ، وتطبع على ثغره قبلة .

هكذا ، كل شيء في هذه الساعة المباركة ، بسيط وبديع في الجزيرة المهجورة. وفي قلب الرجل العجوز تسود الوداعة ذاتها. فاضت مشاعره هذه الصباح من أصبحة الصيف ، وترقرقت. هذا الحنان غير المتوقع الذي جاء يزلزل وحشته ، حرك المياه الراكدة .

صاحت الفتاة من الخارج :

– جداه ، هل نأتي بدورنا إلى الداخل ؟

يجيب مرتعدا :

– قادم أنا. قادم .

أحضر لهما مربى لوز ، وماءً بارداً .

يتمتم قائلاً كما لو كان يريدهما أن يسامحاه :

– ليس عندي شيء آخر .

تمسك به الفتاة من يده ، كى يجلس إلى جوارها :

- اجلس ، اجلس ، ياجداه .

جلس ..

قال لهما وجلاً :

- تعاليا غداً أيضاً. بالليل ، سأصطاد لكما سمكاً .

تجيب الفتاة بحزن :

- إننا نرحل غداً. ياللخسارة إننا لم نحضر كل هذه الأيام التى كنا فيها هنا. هل أنت فى هذه الوحشة على الدوام ، ياجداه ؟

- على الدوام ، يابنيتى .

يتمتم الفتى قائلاً :

- آه ، الآن فهمت ماذا كان يعنى الطائران بالنسبة لك .

- أجل ، يابنى. هذا هو الأمر. إنها العزلة .

ثم عاد الفتى يقول ، بعد قليل :

- .. يجدر بك أن تغفر لهم يا جداه. لو كانوا يعرفون لما كانوا قد أقدموا على مافعلوه قط .

لايفهم العجوز. يقف مندهشا .

- عمن تتكلم ، يابنى ؟

- عن أولئك الذين قتلوا طائريك ، ياعم ديمترى. إنهم أصدقاء لى .

أحس بركبتيه ترتعدان ، وقلبه يدق .

بصوت خفيض يسأل :

– تقول قتلوهما ؟

– آه ... ألم تكن تعرف ذلك ؟

يعض الفتى شفتيه ، ولكن فات الأوان. يخبره بالقصة : إنهم صحبة من الشباب خرجوا للصيد . نزلوا إلى الشاطئ. انخفض النورسان عن مستوى بقية السرب. أطلق صديقهما الرصاص من أجل أن يجرب. وبعد ذلك ، تعرَّف بعض الصيادين الذين كانوا على مقربة من المكان على الجناحين الموشيين بالنقط الرمادية .

مضى العجوز يصغى ، ويصغى. ليس فى الأمر شىء ذو بال. كانا مجرد نورسين .

تقول الفتاة بصوت دافئ ، وقد استولى عليها الأسى بسبب الحزن الأخرس الذى تراه باديًا على الوجه الهرم :

– لم يكن يعرف ، ياجداه ، لم يكن يعرف .

مضت برهة صمت طويلة .

يقول الفتى :

– يجب أن نتصرف .

تنهض الفتاة .

– فلننصرف .

يمضيان في المقدمة ، ومن خلفهما بقليل يأتي العجوز .

وصلوا إلى الشاطئ .

بادرت الفتاة قائلة :

– سلامنا إليك ، يا جداه .

تتناول يده ، وتنحنى لتقبلها ، فيربت على شعرها الطويل .

يتمتم متأثراً :

– ليبارككما الله .

رحلا. أخذ يتابع وقتا طويلا الشق الذى يحدثه فى ماء البحر كل من جسديهما ، غابا عن أنظاره. وظل البحر أمامه دائم الوحشة ، مترامى الأطرف .

يهبط الليل. كان قد جلس إلى الرصيف ، والساعات تمر. كل شيء يتتابع أمام عينيه المعتمتين : سنوات صباه ، الولدان اللذان رباهما ثما ضاعا ، الناس الذين أذاقوه المرارة. كل شيء يخطر ، وكل شيء ينطفيء الوالدان اللذان تبدلا القبل هنا فى هذا المكان ذاته ، منذ بضع ساعات خلت. سرب من النورس يطير عاليا ، نورسان لهما جناحان على ريشهما بقع رمادية. وهذه تمر وتضيع أيضاً . ما من شيء يعود أبدا .

أطرق رأسه ، انحدرت دموعه إلى الأرض اليابسة ، من فوقه كان نور الفنار يومض وينطفئ ، مرة تلو مرة ، فى الفترة الزمنية ذاتها ، بصرامة وبدون أن يكون منه ثمة مفر ، مثل القوى المظلمة فى الحياة ، مثل قدر الإنسان ، ومثل الموت .

المغنى

يوانيس بانايوتوبولوس

اشتريناه ذات يوم مطير فى جنيف. قلنا فلنشترى أيضًا ديكًا نأخذه إلى البيت ، ليكون فوات الوقت ، أقل وطأة ، ويخفف عن القلوب السأم والرتابة ، لأن هذا النوع من الساعات ذات الديكة ، بطابعها البيتى الأثير تنسجم فورا مع الأشياء وتتصادق سريعا مع الأحداث ، ويصبح ديكها الرفيق الحبيب لكل لحظة. ينفث فى السكون المخيم صوتا ناعما صبورا ، فيضحى السكون لحظة مفعمة بالحنان والخشوع تدخل الأمان والهدوء إلى القلوب .

كم كان جميلا ذلك الكوكو. كان كله من الخشب الأبيض المنقوش ، يذكر بالغابة فى منتصف الشتاء. كانت الساعات مكتوبة بأحرف لاتينية بيضاء ، ولم يكن ذلك البياض شاحبا مثل بياض السكر أو اللبن ، بل كان بياضا طازجا مثل حبة اللوز النضرة. لون أبيض مثل بياضها. وحول ذلك إكليل من ورق الشجر الداكن ، وأوراق أخرى عالية فوق السقيفة ، يتوسطها طائر صغير. ومن الباب السفلى تتدلى ثلاث سلاسل طويلة نقشت على طرف كل منها حبات الصنوبر. وعندما

ينتصف النهار فى الظهيرة ، وعندما يتقدم الليل حتى منتصفه ، تتدلى هذه الحبات إلى الحد الذى يحتاج المرء أن يجذب السلاسل من طرفها الآخر حتى يعمل الكوكو .

كانت جدران ذلك الدكان فى جنيف الذى دخلناه تحت وابل من المطر ، مغطاة بساعات كثيرة من هذا الصنف. كل منها عالم بذاته ، مختلف عن غيره. وباستطاعتك إذا كنت لمَّاحًا مفتوح العينين أن تختار منها عالمك. أشار الولدان إلى الساعة. جربناها ، تأكدنا من أنها تدق معلنة الساعات. وتحت السقيفة كلما اكتملت من الزمن ساعة ، أو نصف ساعة انفتحت نافذتان فى هدوء. من إحداهما يطل الطائر يصيح مؤذنا بالوقت. ومن الأخرى يخرج إنسان صغير ، إنه المغنى ، يشدو ببضع عبارات موجزة ، بأغنية قصيرة. وكان للأغنية اسمها المطبوع على الجانب الخلفى «طيور الروابى» .

وهكذا جاء الكوكو إلى أثينا ، إلى البيت ، فى صندوق كبير ، محاطًا بالكثير من لفائف الورق ونشارة الخشب خشية أن يصاب بالتلف فى رحلته الطويلة. وأصبح رفيق كل لحظة ، الحبيب إلى القلوب. فى أول الأمر ، كان الأولاد يهللون ويطربون أشد الطرب كلما سمعوا الكوكو الصداح مغردا ، وفى أعقابه المغنى يشدو بأغنيته. كان الأولاد يريدون أن يجذبوا السلاسل، وأن يمضوا فى جذبها بلا توقف. ولكنهم مالبثوا أن ملوا الأمر فى النهاية. وماعادوا يزعجون الكوكو أو المغنى. تركوهما يندمجان مع سائر أشياء البيت ويصبحان من علاماته المميزة ، ضمن سائر العلامات الأخرى .

إلى أن جاء ذات يوم خرج الكوكو فيه من نافذته وصدح ، لكنه صدح وحيداً ، ولمْ تنفتح النافذة المجاورة. فقد لزم المغنى الصمت. تبادل الجميع النظرات فجأة وتساءلوا :

- ماذا جرى للغناء ؟ ماذا أصاب المغنى ؟

كان الشيء المؤكد أن ثمة صوتا حبيبا قد صمت .

وتيتم البيت فجأة. أضحت الساعة تكمل دورتها بعد ذلك ، ويظل الديك يدعو جاره أن يفتح النافذة دون جدوى .

قلنا بأن نأخذ الساعة إلى مصلح الساعات. كان الأمر صعبا ! البيت بعيد ، بعيد جداً. قلنا لايليق أن نحمل الساعة إليه ، فلنحضره إلى البيت. صعب كل شيء وعسير ! ليس لدى صانع الساعات وقت أن يمضي مسافرا من بيت إلى بيت جريا وراء الساعات المريضة. وفي النهاية لم نفعل شيئاً. وربما كان المغنى في حجرته الضيقة يعتب علينا هذا الإهمال ، ولكن شواغل أخرى كثيرة طرأت علينا أيضا في تلك الأثناء ، كما تطرأ على الدوام في حياة الإنسان ومصيره ، ونسينا المغنى. أقبل الشتاء واشتد زمهريره ، والكوكو ذلك الطائر اليتيم يخرج في عزلته إلى نافذته يعلن الساعة ونصف الساعة. يدور نصف دائرة من هنا ونصف دائرة من هناك. وتتجمع الساعات إلى جوار الساعات ، ويتحول النهار ، وينقضي الليل ، وتتبدل الفصول. يأتي الربيع ثم الصيف ، ثم يقبل الخريف من جديد ومن بعده شتاء آخر. وهذا أمر على غاية من البساطة وعلى غاية من الجسامة معا. إنه زمن الإنسان ، ممزق ، خرافي ، مليء بالجمال والمرارة .

ذات ليلة وأنا سـهـران منكب على كـوم من الورق إذا بى أسـمع الغناء ينسكب في السكون المخيم ، وتفد إليّ «طيور الروابى» بكلماتها العذبة. من يستطيع أن يدرك مدى ماعاناه المغنى كى يتغلب على ركوده ويقوى على الخروج إلى نافذته ؟ وقلت لنفسى : «إن هذا الأمر رائع !» أجل ، إنه رائع ! الإنسان الخشبى الصغير بسترته الخضراء وصدريته الزاهية وسرواله القصير وقبعته التيرولية ذات الريشة النافرة ، والخدين المنتفخين ، الروح الطاهر فى البيت ، عاد إلى صـحبتنا من جديد. وباعتقادى أن لديه الكثير مما يريد أن يقوله لنا ، الكثير من الغرائب حقا . إن العزلة تملأ عقل الإنسان بالأفكار وتطلق العنان لأحلامه. ولكن المغنى المسكين لم يكن لديه سوى أغنية ، رتيبة ملتزمة. ووجب أن تتسع هذه الأغنية لكل شيء ! دار بخلدى هذا الخاطر ، وخواطر شبيهة أخرى أيضاً . ثم سمعت الشباك الصغير يغلق. فتركت كوم الورق وشأنه ، وانتظرت مجيء موعد إعلان انتصاف الساعة ، ثم موعد اكتمالها ثم موعد انتصافها وموعد اكتمالها من جديد. وشعرت بالليل يوغل من حولى ويزداد اتساعا ، دون أن يعود الشباك الصغير إلى الانفتاح حتى انتصف الليل ثم أقبلت خفيفة الخطا الساعات الأولى للنهار الذى أوشك أن ينضج على غصن الظلام العارى. وعندئذ عدت أقول لنفسى إننى ربما لم أسمع المغنى قط وإن كل هذا مجرد لعبة من ألاعيب الخيال .

جلست اليوم التالى ورويت الأمر للآخرين. فاندهش الجميع ، وعلق الأولاد أبصارهم بالشباك الصغير المغلق ، وقد أحسوا براحة جد عميقة عندما عرفوا أن المغنى لم يمت. كان الأمر مؤكدا ، إنه لم يمت. وتمنيت أن يخرج الإنسان الصغير البهيج بعد قليل ويغنى مرة أخرى. وقد وجد

الكوكو أيضًا أنيسه من جديد. ووجدنا نحن الصديق الحبيب. ومنذ ذلك الحين بقى الحال على ذلك المنوال. في اللحظة التى لايتوقعه أحد يفتح المغنى نافذته ويغنى. مرة ومرتين فى اليوم. ثم يلزم الصمت أياما عديدة ، أسبوعا وأسبوعين ، تخلص المغنى من الضرورة. تحلل من الالتزام وظفر بحريته. هذا كل مافى الأمر. إنه يغنى الآن بمزاجه. ولهذا تكتسى أغنيته بطابع متفرد فى كل مرة ، تصير صوتا غير خاضع ، طليًا متجددا على الدوام. لقد علَّم الصمت المغنى أشياء كثيرة ، ونفحة إرادة خاصة به ، جعلته أكثر إنسانية .

لاشك ، أننا فى كل وقت نستطيع أن نذهب به إلى مصلح الساعات ، ونخضعه لقانون الآلهة الصارم ، ونحكم عليه بأن يكرر نفسه بانتظام ونمطيه. ولكن من هذا الذى قسا قلبه حتى يقدم على عمل مثل هذا .

صورة فتاة

يوانيس بانايوتو بولوس

كانت القاعة رحبة ، مربعة الحجم تقريباً ، أربعة جدران لانهاية لها ، بالطابق الأول من البيت. تصعد الدرج الرخامى ، ثم تقابلك نخيلات الزينة فى الأصص على العتبة. نظم صاحب البيت فى هذه القاعة معرضاً تذكارياً للبورتريه. وفى كثير من الأحيان ، تتضمن هذه المعارض التذكارية قدراً كبيراً من الأشجان ، وذلك مثلما يحدث لك ، عندما يتصادف أن تجلس ، فى مساء شتائى خافت الضوء ، عليل ، وتنبش لفافة من الصور القديمة. أو مثلما يتصادف أن تجد نفسك وحيداً فى الطريق ، بالليل ، وتطالع النوافذ المضيئة مرهف السمع إلى الريح عبر صفوف الشجر. هناك تفاصيل صغيرة تظل ساكنة فى القلب ، ولعل فى هذه التفاصيل وحدها تتبلور الحياة الخاصة لكل إنسان .

القاعة رحبة ، مربعة تقريباً . كساها صاحبها بورق رمادى فاتح اللون ، كى تزداد الأطر الذهبية بريقًا . وقد جمع البورتريهات من بيوت عديدة، غنية وفقيرة ، ولم يرفض أحد إعطاءه مالديه ، لأن الجميع يعرفون كم كان هذا الرجل محبًا للفنون ، حريصًا ، مخلصًا لعمله ،

لاتحركه منافع مادية ، وهو الأمر الذى يصعب أن تجده فى هذا العالم. بل وطبع دعوات أنيقة للمعرض: «مائة عام من لوحات البورتريه» ورتب المصورين ترتيباً تاريخياً بحيث لايتسنى لأحد أن يتذمر. أشياء تقليدية ، ليس لها بطبيعة الحال مغزى ، ولكن يحدث فى كثير من الأحيان على أى حال ، أن يضفى عليها الجهد الإنسانى الفانى - أقصد السعى الإنسانى نحو المجد الزائل - يضفى عليها دلالة .

ذهبت إلى المعرض أمسية الافتتاح. كان الجو ممطراً ، والمظلات السوداء المفتوحة تملأ كل مكان . الخطوات على الأسفلت زلقة ، والأضواء عيون ناعسة ، والعربات - وقد كانت عديدة - تصعد وتنزل الطريق زاحفة ، فى المطر شحنة من قصائد الشعر جعلت كل قطرة من رخاته زهرة تفتحت. كانت الأنوار فى القاعة وضاءة. ذابت فى وهجها الأطر الذهبية وتلألأت ، ومنها خرجت الشخوص واختلطت بالمتفرجين. رجال عنوا باللحية والفودين. قبعات عالية ، حلل سهرة ، عصى زينت بنقوش محفورة ورءوس فضية. مآزر ملقاة على الأكتاف ، وشيلان ، ونظارات انحدرت إلى أطراف الأنوف. أزياء رسمية ومهاميز ، وريش ، وأوسمة عديدة. كانت هناك أيضاً نساء يلبسن أحذية حريرية وفساتين طويلة ، متماوجة موشاة مطرزة محلاة بالشرائط والخرز ، أكتاف بيضاء محاطة بأوشحة شفافة ، قفازات مديدة واصلة إلى الكوع أو إلى أعلى من ذلك ، قلائد وأساور وساعات صغيرة ذهبية تتدلى من عرى الثياب. أناس ذوو نفوذ وقواد معارك، أهل فن وثراء، نجوم مجتمع ، حكماء ، رجال مهذبون ، أسماء معروفة ، وأخرى منسية ، ومن حول هؤلاء جميعاً يحوم الموت على كل شىء. يذكرك مرآهم بالمقبرة. كانت

تشكل مجتمعاً غريباً تلك البورتريهات التى تتعدى أطرها فجأة وتنزل تندمج مع الأحياء وتنصت للمطر الودود الذى كان بدوره مفعماً بالحيوية ويغنى فى دروب الخريف. وبالأغوار ، وسط الحائط ، صورة فتاة شابة. وجه تغمره الشمس فى بستان ، وجه تضيئه أشعة مصفاة تخللت أغصاناً نضرة. أذكر الوجه والقوام ، والثوب الفضفاض المتماوج ، والقبعة العريضة ، والمظلة الكبيرة. أذكر العينين القطيفيتين الملاطفتين ، والشفتين دافئتى الرضاب ، متفتحتين كزهرة ، هكذا تحس بهما ، والنهدين تدرك من وراء الثوب مبلغ تماسكهما ، والذراعين اللتين خلقتا للعناق. كان الاحتمال بعيداً أن يكون قد وجد هذا الجسد ، وهذا الوجه الذى كان ومضة خيال أكثر منه حضوراً مادياً. ولم يكن الأمر راجعاً إلى فن المصور الذى بإمكانك أن تعتبره نموذجيا أيضاً ، بقدر ما رجع إلى شباب الفتاة الوامض ، الواثق المتفتح ، فهذا هو الذى كان يسحرك حقاً. اقترب منى صاحب البيت. كانت السعادة تغمره ، تلك الليلة ، وسط الجمهور الغفير ، والأحاديث، وعبارات الدهشة والإعجاب ، والتأثر ، وسط الأبناء والأحفاد .

قلت له :

– خبرنى عن اسمها .

– رجانى أهلها ألا أذكره لأحد أبداً .

– هل تعرفه ؟

– بلا شك ، أعرفه .

– ألا زالت موجودة أم لا ؟

أتى بحركة مبهمة ، وقال لى :

– ربما كانت موجودة .

عدت أقول له :

– من الشائع أن تسمى لوحة البورتريه بالأحرف الأولى من اسم صاحبتها .

رد علىّ قائلا :

– هل قرأت الكتالوج ؟ حتى هذه الأحرف الأولى لا وجود لها . لم يكن يريدون ذلك. اكتفوا للوحة بعنوان «فتاة الأيام الجميلة» .

– يعنون بذلك ماقبل الحرب الأولى .

– أجل ، قبل الحرب العالمية. لاتصر. سواء أكان الأمر كذلك أو لم يكن فهذه الصبية ماتت .

كان المعرض يفتح أبوابه فى التاسعة صباحًا. أمضيت ليلة لازمنى فيها الأرق. عينا الفتاة ، خداها ، شفتاها ، كل ذلك كان يلمع فى الظلام. جمال ممتلئ ، برىء ، غير مخدوش. جمال لم يكن بالإمكان أن تستوعبه كله فى صدرك ، فيغيض ويغمرك بضيائه .

أثينا تهدم ، ويعاد بناؤها، تفقد روحها القديمة ، وإلى أن تكتسب روحًا جديدة ستمضى ستين وسنين. وبين الحين والحين يصادف المرء بين الأطلال والأبنية الجديدة البيوت التى عاش فيها من طواهم الموت من الأجداد ، والسلمات ذات الدرجات العريضة اللولبية ، والعتبات التى صفت عليها الأصص الكبيرة ، حيث تفتحت أوراق نخيلات الزينة

النضرة ، وثبتت المرايا التى صنعت بڤينيسيا ، والثريات المدلاة من الأسقف الخشبية المزدانة بالرسوم ، واللوحات التى مضى عليها العديد من السنين فى أطرها الذهبية المعتمة. فى بيت مثل هذا كنت أرى الفتاة صاحبة الصورة ، وقد انفصلت عن إطارها ، ومضت تصعد السلم درجة درجة ، يتثنى قوامها فى دلال. لابد من أنها كانت الابنة الوحيدة لأبويها، تدرس الفرنسية ، وتتدرب على البيانو. كانت لديها مروحة كبيرة تُرَوِّحُ بها عن نفسها فى ليالى الصيف أثناء حضورها المسرح. فى تلك الأيام التى كانت تقدم مسرحية «كونت دى لوكسمبرج». تهوى الشعر ، ترتدى فساتين طويلة ، وحذاءً عاليًا ، وتتهامس مع صديقاتها عن الشباب المتأنقين الذين يمرون تحت شباكها ، يدقون بلاط الرصيف بعصيهم العصبية ، وتند منهم تنهدات عاطفية ، كان أبوها من كبار القضاة ، أو شىء من هذا القبيل بالطبع. يجلس فى كرسيه يربت على لحية ذقنه. يقرأ «الاستيا» يفتح كيس تبغه. يلف لنفسه سيجارة ، ويناقش أمور السياسة بحماس. أما الأم فهى ابنة أحد الضباط الكبار ، أو شىء من هذا القبيل بالطبع. تعد فى المطبخ بيديها الفطائر ، تضع لعصفور الكناريا ورق خس ، تغزل جوارب ، وتتصفح مجلة «نجمة الأسرة» ، إلى هذا العالم كانت تنتمى هذه الصورة. فى تلك الأيام، كان الرجال يشيخون فى الأربعين ، وكانت النساء يحملن فى حقائبهن زجاجات النوشادر ، لعلمهن بأن آداب السلوك توجب أن يغشى عليهن من وقت لآخر .

وكان يحدث أن يأتى الحب ، الحب الكبير ، الحب بلا أمل ، الحب المتغنى به فى أغنيات مثل «بنت علقت على صدرها صليبًا من ذهب» و «أين راحت تلك الأيام ، أيام الحب السعيد» وغير ذلك من أغانى الحب

فى الحياة والممات. الوقت متأخر فى الدرب الهادئ الساجى فى الضوء المرتعش المنسكب من مصباح غازى. أنغام قيثارة تعزف تحت شباكها الذى وورىت ضلفتاه. تتنهد مع رياح يناير الشتائية ، مع المطر ، مع قيظ الصيف. أزمان وأزمان ولت وما من أحد عاد يعير الأنغام التفاتا ، وهى لاتنوى السكوت. ثم درس عازف القيثارة فن التصوير. صار طوال اليوم يجلس يملأ الصفحات برسم وحيد ، لايستبدله بموضوع آخر ، وجهها هو الموضوع الوحيد. يجلس يملأ مساحات المشمع ألوانًا ، كى يتسنى له أن يمسك بشىء من ضيائها. وفى النهاية، وهو عائد ذات ليلة من معهد الموسيقى ، تلكأ عامداً ، والتقى بها فى الدرب الهادئ. إنه الفتى صاحب القيثارة الذى درس التصوير. التقى بها وجهًا لوجه ، وابتسم لها. هذا كل ماجرى بينهما حدث هذا فى العهد الذى قتل فيه ديليغاتى صاحب الياقة العريضة المرتفعة والسترة السوداء المحكمة الأزرار. هذا كل ماجرى بينهما. وبعد قليل ، بدأت الفتاة تتأخر فى العودة إلى البيت. وتمت اللقاءات المختلسة. ثم جاءت القبلة الأولى ، حافلة بالجزع والمعاناة . القبلة التى لاتنسى أبداً ، ويعجز الوصف عن الإحاطة بها. كم كانت ترتعد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ! كم سهرت مؤرقة بعد ذلك ، تفكر فيها بلا شبع ، فى تلك القبلة الأولى !

الأيام الأولى ، كانت أيام الشغف والنشوة ، ثم بعد ذلك جاءت أيام الإخلاص والإعزاز ، لم تعد هذه أيام العشق ، بل كانت أيام الحب. سعادة تفكر فيها وتملأك شجنًا .

منذ التاسعة صباحًا ، وقد أسكرتنى صحبة الملاك فى أرقى ، والحوار الخفى مع الجمال ، جلست أنظر إلى صورة الشابة ، كنت قد

صنعت قصتها ، على النحو الذى حاولت أن أرويه آنفًا. جلست أنظر إليها. كنت وحدى. ثم جاء صاحب البيت ، وقال لى :

– أحسنت صنعًا. فى ساعة مثل هذه ، يمكنك أن تتأمل كل ما تريد فى هدوء .

ثم جاء ت سيدة مسنة ، سيدة مسنة عادية لم أتنبه إليها. جلست على الأريكة الصغيرة وسط القاعة. وفى النهاية ، بدأ الجمهور يقبل. انصرفت ولكن ليس إلى غير رجعه. بعد الظهر ، كنت هناك من جديد. أفكر فى الوجه ، فى الجسد ، فى العديد من الأشياء. كنت أفكر. صارت صورة الفتاة ، فجأة ، قدرى. كان صاحب البيت غائبًا. أراحنى هذا. جاءت السيدة المسنة مرة أخرى. زدت من تأملى لها. كانت ترتدى قبعة سوداء قديمة وقفازًا تناثرت عليه البقع ، وحذاء أسود بال. كانت من ذوى الثراء وأخنى عليها الدهر. هكذا كانت تبدو. جلست على الأريكة الصغيرة بجوارها فى مواجهة الصورة. كنا ننظر إلى الوجه ذاته ، والجسد ذاته ، نحن الاثنان. يجب أن أنبه إلى أننى طبيب ، وفى ذلك الحين حصلت على إجازة من المستشفى كى أكتب رسالتى لنيل الدكتوراة فى موضوع نقص الفيتامينات عند العاملين بالبحر. ومن التزيد أن أقول إن البحر ماعاد يهمنى فى شىء. تركت جانبًا نقص الفيتامينات ، وصرت العاشق المتيم بصورة الفتاة. فى اليوم الثالث ، دققت النظر فى المرأة المسنة. كان وجهها مليئًا بالتجاعيد، وتكسوه طبقة من الشعر الخفيف مثل القسطل. كانت رقبتها مدفونة فى ياقة عالية ، وقد تغضنت مقلتاها ، وشفتاها يبستا. وتحت الرداء بإمكانك أن تتخيل

عظام هيكلها. وجود يكاد يكون عدمًا ، سيطر عليه الزمن وأوقعه في عبودية رهيبة. تبادلنا تحية الصباح. ويداخل كل منا نمت نحو الآخر مودة .

– تروق لك صورة الفتاة هذه ؟

– أسكرتني ! ياللخسارة أنها لاتباع !

– أجل ، ياللخسارة !

– ماكنت أتصور أن يستطيع مصور متوسط الكفاية أن يترك لنا مثل هذا الأثر .

– لم يكن متوسط الكفاية ! كان مصوراً كبيراً ؟

نظرت إليّ بوجه خال من التعبير. نهضت ، ومضت إلى أحد الأرفف بالحائط وقفت عنده. كل شيء كان يسقط عليها. الثياب ذاتها، القوام ذاته. وعلى أي حال ، صرنا صديقين مرة أخرى. وحدث أن جاء صاحب البيت أيضاً .

– أنت هنا ، من جديد ؟

– قادتني الطريق .

أحسست بأنني قد صرت أحمق. وما الحماقة ؟ شيء مثل هذا الذي أفعله. انصرفت السيدة المسنة. وبعد الظهيرة لم يكن صاحب البيت موجوداً. لكن السيدة كانت هناك. ابتسمت لي :

– ألا زلت تعتبره مصوراً عادياً ؟

كان صوتها مشروخًا مرتعدًا ، وقد جللها الحداد .

- لا أعرف ما إذا كان متوسط الكفاية ، هذا المصور. ماعدت أعرف شيئًا .

شرعت أدرس حالتى بعينى طبيب .

قلت فى هدوء :

- أحببت هذه المرأة .

أحسست أن المرأة المسنة إلى جوارى تنتفض ، مثلما يخفق جناح طائر. ثم قالت لى بحزم :

- لاتأت إلى هنا بعد الآن !

- أتعرفينها ؟

- أجل ، كنت أعرفها. أما الآن فهى ميتة. ماتت منذ وقت طويل .

- كان جمالها آسرًا ، خياليًا ، كما يبدو فى هذه اللوحة ؟

طفرت من عينيها الدموع .

- كانت صديقة ، صديقة لصيقة بى. نشأنا وكبرنا معا. أجل ، كان جمالها آسرًا. أما الآن ، فما عاد يوجد شىء .

كانت كلماتها الأخيرة هذه ، كما لو كانت تفد من أعماق بئر .

أصبحت متأكدًا من أن الحب صورة من صور الحماقة. عدت أسأل :

- هل ماتت شابة ؟

لم تجب. وفى النهاية قالت :

– ماتت يوماً بعد يوم ، رويداً رويداً. هكذا ، كما نموت جميعاً .

غربت عيناها. وانسحبت إلى صمت عميم. انصرفت من جوارها ، وأحسست بداخلي ضوءاً يومض. انتظرت صاحب البيت. انتحيت به جانباً. كان صوتي ممتلئاً بالانفعال ، وسألته :

– من هذه المرأة ؟

أشرت إلى السيدة المسنة ، وعدت أسأل :

– من هذه المرأة ؟ لماذا تأتي كل يوم إلى هنا. وفي ذات المكان تقف ، وإلى ذات الوجه تنظر ؟

ابتسم صاحب البيت ، ولم يقل شيئاً .

سألته مرة أخرى :

– أهي هذه ؟ لم تمت إذن ؟ أهي هذه ؟

أجاب صاحب البيت بهدوء :

– أجل . إنها هي .

أحسست بالخليقة تنهار بداخلي .

وقال صاحب البيت متسائلا :

– وما الموت في نظرك ؟ الموت هو هذا ؟

خجلت أن أبكي. لكنني أحسست بنهر من الدموع يشق أحشائي .. دموع من أجل المرأة ، من أجلي ، من أجل القدر الأسود ، من أجل الإنسان الذي يموت يوماً بعد يوم ، رويداً رويداً .

البحر

ألكيفياديس يانوبولوس

كان منقوشًا على البساط المجلوب من أوروبا ، فى وسطه ، ثلاث نخلات باسقات. وكان ساق النخلة الوسطى ، مستقيماً فارعًا وأطول من ساقى النخلتين الأخريين ، اللتين تشكلان قوسين ينحنيان بدقة تامة وتناسق محكم ، الأول ناحية اليمين والثانى ناحية اليسار. وينبثق من قمة كل نخلة سعف عريض مستو بديع التنسيق. كل ذلك مرسوم بألوان قوية ، خضراء ، وصفراء ، وبنفسجية. ويصور المنظر صحراء تكسوها رمال وردية. على أن طرافة هذا المنظر كانت تتمثل فى رجلين زنجيين. يقف أولهما وقفة جانبية إلى جوار النخيل ، عارى الجسم حتى الوسط. يتفجر اللون الأحمر من شفتيه ، وفتحتى أنفه ، وحدقتا عينيه شديدتا البياض ، أما الزنجى الثانى فيقف فى المواجهة بعمامة بيضاء وحزام مزركش. كان المشهد ينقصه حقا رقعة فسيحة من السماء ، أو حتى خطًا يمثل الأفق ، لكن السماء كانت تحجبها تلك الحلية عند الحافة ، وما كان يمكن أن يعتبر أفقًا ذلك الخط الضيق المرتفع باهت الزرقة .

كان الصغيران ، الولد وأخته ، يقولان آنذاك عن ذلك الخط إنه البحر. وقد مضت اليوم سنوات وسنوات ، وما عاد للبساط الطريف وجود. وقد كانت تبلى أطرافه يوما بعد يوم ، وتتآكل ويعتريها القدم ، فكان أهل البيت يقصونها ويرفوتها . ويبدلون مكانها فى البيت مرة بعد أخرى. وفى النهاية غمر النسيان ذلك البساط ، حتى قبل أن تضيع بقاياه الأخيرة. ومن ثم ، ربما كانت أوصافه التفصيلية الآن غير مطابقة للواقع تماما .

كانت الغرفة التى وضع بها البساط أول الأمر مخصصة للضيوف ، فكان محظوراً دخولها على الولدين الصغيرين. وإذا حدث أن تسللا إليها خلسة ، سارا فى حذر على أطراف أصابعهما . وعندما لم يكن فى البيت زوار كانت نوافذ الغرفة تغلق وتتدلى عليها ستائر ثقيلة جملية. وفى ساعات الأصيل تتسرب إلى الغرفة من خلال ثنايا الضلف الخشبية أشعة من الشمس تضيف إلى البساط زخارف متحركة ، عند سقوطها على المشهد الغريب على الأرض. على حوائط تلك الغرفة علقت الصور الكبيرة ذات الأطر الذهبية: صورة الأب بنظرته الصارمة المستغرقة فى التفكير ، والتى لاتفارقه حتى فى لحظات صفوه ، وصورة الأم بملامحها الوسيمة التى لازالت تحتفظ بحلاوتها حتى اليوم ، وصور الأجداد واحداً واحداً . ثم بعد ذلك ، كانت هناك صورة فتاة شابة تبتسم ابتسامة حزينة .

عن تلك الصبية – التى كانت جميلة حقًا – لم يكن الصغيران يعرفان سوى أنها سافرت ذات يوم «إلى أين ؟ لماذا ؟» وأن اسمها خريسى، لم يكونا قد رأياها قط ، وما كان أحد فى البيت يتحدث عنها

فى حضورهما. بل أن ثمة شيئًا آخر كان يحدث أيضًا ، وربما رجع ذلك إلى زاوية الحائط حيث كانت توجد الصورة ، أو ربما إلى طبيعة عينيها ، فقد كانت ثمة لحظات ، وعلى الأخص ، عندما كان يخفت الضوء فى الغروب ، تتعلق فيها نظراتها بالبساط على الأرض .

وقد كان أول من لاحظ ذلك هو الأخت الصغيرة – كانت آنذاك فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها – وقد أخبرت بذلك أخاها الذى يكبرها بقليل قائلة :

– أرأيت ، ياستيليو ، كيف تنظر خريسى إلى البحر ؟

– ولماذا تنظر إلى البحر ؟

– هاهى ، تطل إلى حيث يوجد البحر ، هناك .

ويلمع فى عينيها المنبهرتين ، وهى تنطق بكلمة البحر ، يلمع حقًا الخط الضيق ذو اللون الأزرق الباهت المرتسم على السجادة. ثم يتسع وينبسط على مساحة خيالية ، مطفئًا تمامًا حيز الغرفة المغلقة ، ومنطلقًا إلى ضياء سماء شفافة ، إلى عالم مجهول يغمره نور صاف .

عالم مجهول .. رؤيا عن سفن بيضاء ، تكاد تتمايل ، كما لو كانت مهودًا تهدهدها يد خفية ، وقد رفرفت السكينة على تلك المهود الوديعة. وغمر الأرجاء إحساس بالاتساق والتآلف وبرصانة حلوة .

يقول ستيليو : السفن تمضى إلى مدن تشبه فيها العمائر قلاعًا ، نوافذها فتحات مربعة لاحصر لها ولا عدد. ثم يردف قائلًا: «ولكن أليس للشطآن هناك وجود ؟ تنتصب هناك أشجار النخيل ، مثل تلك التى على

البساط ، ويرتفع سعفها حتى تلمس أطرافه أديم السماء .. ثم هناك الشوارع .. خطوطها على الجانبين تجرى ، تجرى كى تلتقى فى ركن بعيد ، بعيد ، هناك. يجب أن تغمض عينيك حتى ترى كل ذلك» ثم يمضى ستيليو ، فيقول مؤكداً : «الناس فى المدن ليس لديهم وقت لمثل هذه الأمور ، ولا هم أيضًا يحلمون». وتسأل الأخت الصغيرة قائلة : «حسنًا .. لكن أين تذهب الصبايا الجميلات مثل التصاوير ، الباسمات فى حزن ؟» .

إن خريسى حتى فى الخيال مقصية. وهى ، هنا فى البيت ، غريبة. لهذا فهى خفيضة العينين تتثبت نظراتها بالبحر الأزرق الساكن ، المسجى على الأرض قبالتها ...

هذا ماكان يحدث عندما تكون النوافذ موصدة. لكن الأمر كان يختلف عندما تنتقى الضيفة مقعداً وتجلس. كانت المقاعد مثبتة فى أماكنها التى لاتتغير. الأشياء كلها يسودها ذلك النظام الهندسى المقدر أن يوجد فى «غرف الاستقبال » وفى جانب من الغرفة ، ليس فى الوسط تماما ، المنضدة الصغيرة ، وهناك أيضًا المقاعد الأخرى ، والكراسى الثلاثة الواطئة بلا مساند ، والدولاب الزجاجى الذى يحتوى على الآنية المفضضة ، وهناك الخزانتان المكشوفتان ، كل منهما فى ركن بالغرفة. فى الأولى التحف المنمنمة والعلب الصغيرة وطرائف أخرى منوعة. أما فى الخزانة الأخرى فتعرض المحارة الوردية الكبيرة «أتسمعين البحر ، يانينا ؟» – كان نينا اسم الأخت الصغيرة – وإناء الزهور الأخضر القيم ، وبه الزهور الصناعية ، وكأنها زهور حقيقية .

تقول السيدة فلانة مؤكدة :

– لن أبقى طويلاً ، ياعزيزتى إيرينى ...

فتجيب الأم محتجة :

– لم أرك منذ أمد طويل ، يا امرأة ! وأنا لا أخرج إلا نادراً ..

– ولما ذلك ، بالله عليك ؟ ليس هذا تصرفًا طيبًا من جانبك .

فتقول الأم :

– سأخبرك .. سأخبرك ..

ثم تنادى الخادمة ، وتقول لها : النافذة ، ياماريكا .

ولم يتسن قط لماريكا أن تفتح النافذة في الوقت المناسب. فقد كانت مشغولة البال للغاية. وتصيح فيها سيدتها :

– ماريكا ! لاتنسى أن ترتدى ميدعتك البيضاء !

فتهرول الخادمة ، وتجوس بين قطع الأثاث مسرعة. وما أن تلمس أناملها الستائر الثقيلة المسدلة ، تقول الضيفة :

– لاداعى لذلك ، يا إيرينى. إن الرؤية ميسورة بهذا الضوء أيضًا ...

ولايلبث أن يغمر الضوء الأشياء كلها دفعة واحدة. الستائر ناصعة البياض كالثلج ، منشاة ومدلاة على النوافذ ، نظيفة وغير مجعدة ، خطوط كوائها مستقيمة ، وتسرى فى النسيج اهتزازة خفيفة .

يكاد يكون الحديث المتبادل بين المرأتين مرحًا أول الأمر ، ويدور حول موضوعات سارة. ولكن رويداً رويداً وكلما ازداد تدفقًا واكتسى

أهمية ، انخفضت نبرات الصوت. وكان من الجلى عندئذ أن كل كلمة أصبح لها معنى تنفرد به .

يدخل «الولدان» إلى «غرفة الاستقبال» .

– تعالى هنا ، يانينا ، ياعصفورتى العزيزة ! كم كبرت! .. يا لهاتين العينين الجميلتين ! .

كان الولدان يردان التحية بأدب .

– اعتن بدروسك ، ياستيليو! .. إن أباكما وأمكما يشقيان من أجلكما .

– إنى أعتنى بها ، ياسيدتى !

ثم يعود الحديث فى حذر وارتياب ، وبكلمات متقطعة إلى الموضوع الذى انفرط عقده .

– ولماذا ... ألم تكتبى بعد ذلك ، يا إيرينى ؟

تعاود الأم كلامها بحزن قائلة :

– كلا ..

كانت بالطبع قصة مجهولة ، ولكن الولدين على أى حال كانا يشعران بأن ثمة ما يثقل قلوب أهل البيت. قلق ما ، توجس ما ، شىء يكبل الأفكار بالأغلال .

ومن وقت لآخر كانت السيدة تقاطع الأم قائلة :

– سبق أن قلت لك ذلك يا إيرينى ، ياحبيبتى .

وترد الأم قائلة :

- أجل ، ولكن .

ثم تنهر الولدين بغضب مكبوت :

- نينا ، ستيليو ! لاتقفا هنا ، اذهبا إلى غرفة الطعام !

للأسرار حرمتها. على أنه قد تصادف ذات يوم أن رأى الولدان مشهداً غير مألوف. وقفت الضيفة أمام صورة خريسى، وكما لو كانت توجه خطاباً إليها أومأت برأسها ، كانت هذه الإيماءة جد فريدة وغير متوقعة ، حتى أن الولدين ظنا أن خريسى قد عادت ، وأن ذلك الوجه وجه فتاة حقيقية ، تقف هناك بالقرب منهم ، بنظراتها القلقة التى تبدو كأنها خائفة .

وقد جعل دبيب الحياة هذا فى الصورة ، وجود الفتاة بعد ذلك أكثر تجسما فى الغرفة الساكتة المغلقة .

ماعادت خريسى ، كما كانت من قبل ، شخصية من شخصيات الحواديت. صارت مرتبطة بالموجودات الأخرى المحيطة بها ، وأصبحت من الأسرة مثل الأجداد ، الذين وإن لم يكن أى من الولدين قد عرفهم أيضاً ، إلا أن انتماءهم إلى الحفيدين وشدة الشبه بالأب، وشعورهما بالقربى جعلهما ينظران إليهم على أنهم «موجودون» وليس الأمر بحاجة فى شأنهم إلى أى «تفكير» .

وإذا بعاطفة جديدة تتولد كلما عادت خريسى تطل من حكايات من فى البيت المتنوعة. وذات مساء ، وجد ستيليو فى الغرفة أخته نينا جالسة على البساط الذى رسمت عليه أشجار النخيل ، فسألها :

– أنت هنا ، ماذا تفعلين ؟

– لاشيء .

– تتامين ؟

– كلا ، إنى أنظر .

– فى الظلمة ؟ إلى ماتنتظرين ؟

– لا شىء .

ثم بعد برهة تردد قصيرة تقول :

– هل صحيح إننى أشبهها ؟

– تشبهين من ؟

– أشبه خريسى .

– أنت ؟! .. من قال ذلك ؟

– ماريكا .

– ماريكا بلهاء .

ثم بعد برهة بإصرار :

– كما أن خريسى جميلة .. وليس ذلك فحسب. إن خريسى ما كانت تقبع فى الظلمة مثل شبح تحلم بتوافه .

بقيت تلك الصورة وقتاً قليلاً فى مكانها. وعندما انتقلت الأسرة إلى بيت آخر ، لم تعد الصورة تتبوأ مكانها فى غرفة الطعام «ولم يعد هناك غرفة استقبال» ولم يصبح المكان يتسع لأية صورة من الصور السابقة. فقد كانت الشقة الجديدة أصغر ، وأكثر تواضعاً ، وفى حى أقل صخباً. وهكذا ، مع أشياء أخرى قديمة اختفت خريسى فى مكان ما هناك .

وبعد ذلك بكثير ، جاء دور البساط. فى أول الأمر شطر إلى شطرين ثم قسم إلى ثلاثة أجزاء وأصبح الآن يؤدى خدمات يومية أكثر تواضعاً. بل إنه رويداً رويداً نسى ماكان عليه من حال فى سالف عهده .

وفضلا عن ذلك ، فإنه مع مر السنين ، وكلما غيرت الأشياء من مواضعها واستعمالاتها ، كلما صارت أكثر بساطة وصراحة ووضوحاً. لم تعد تكتسى بأى مسحة من الغرابة. كان وجودها مرهوناً فحسب باستخداماتها المألوفة. وصار هذا هو أمر البشر أيضاً .

وإذا بخريسى تصبح شخصاً من الأقارب اللصيقين. كانت توجد فى الطرف الآخر من الدنيا، سنوات وسنوات مضت عليها هناك الآن ... كما كان ثمة مسألة تتعلق بميراث يخصها ، تفاصيله مكدرة ومثيرة للأشجان .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل ماهو عادى ومألوف إلى حد الرتابة ، كانت تعود إلى الذاكرة لحظات ، لحظات مثل غزال رشيق يخطو بخطوات أثيرية ، خيالات بعيّدة من أيام الطفولة : أسفار فى بحار لاوجود لها ، تشبه ذلك البحر الأزرق الباهت ، ذلك البحر الفسيح الساجى ، على البساط الذى طواه النسيان. ومع تلك اللحظات يخيم سكون ضبابى ، وإحساس بحلم مريح تنتشى به الذاكرة .

فى البحور الأخرى ، البحور الحقيقية ، السفن كتل تنساب فى بطء بأشكالها المعروفة ناشرة قلاعًا وصوارى ، وأبراج مراقبة ، ومداخن وكوات مستديرة .

تقطر المراسى ماءً أجاجًا. وليست السماء على الدوام صفحة ملساء صافية الزرقة. بل هى فى بعض الأحيان جهمة غائمة ووضاءة فى بعض الأحيان الأخرى ، وتتزين بين الفينة والفينة بأسمال أرجوانية وبنفسجية. ولكنها منذ الأزل تجاهد كى تجمع قدر إمكانها غشاوة معتمة حول الأفق ، تقف مثل سد يحتجز كل شىء هناك ، فلا يمكن اجتيازها ولا بالخيال ...

وتصل المراكب – التى تبدو ناصعة البياض ، من بعيد – إلى الموانئ مثل طيور منزوعة الريش. وتبين بلا حياء عن عددها المرتبكة وحبالها وأحمالها .. كلها أشياء نافعة مألوفة وحافلة بما يثير الاهتمام .

أما بحر البساط ، ذلك الخط الضيق المسحور ، فقد كان وحده يطوى بين جنباته سعادة الدنيا بأسرها ، بطلاوتها ونقائها المبرأ من كل شائبة. كانت خريسى تطل عليه بنظرات ملؤها الإصرار ، وكانت تحلم خريسى فى الأيام الخوالى ، تلك الفتاة الجميلة مثل التصاوير .

أين تذهب حقًا ، ساعات الأصيل الماضيات ؟ آنذاك ، لم يكن ثمة وجود للأحزان والمنغصات مثل خلافات الميراث. كانت نينا تنسج رؤى عن شواطئ تنمو فيها أشجار نخيل. وكان الولدان يرحلان مع خريسى ، فى رحلات على أطراف الأقدام «حتى لايحس بهم أحد» فوق ذلك البحر ذاته ، الذى أودع «اسمعى؟» هديره الذى لاينتهى فى المحارة الكبيرة الوردية .

تسوية ودية

ديمترى سياتوبولوس

القديس ديمترى بقعة من الأرض منزوية فى الشرق من يابسة اليونان بالقرب من بحر كثير الصخور ، ينبسط مثل سجادة زرقاء نسجت حديثًا ، ويمتد نحو الجنوب . يزينه هنا وهناك غزل من زهور بيضاء على مرمى البصر .

من حوله بضعة تلال تكومت قاحلة كئيبة ، تشبه أحجارها الجيرية الناتئة وجنات ضامرة لعمالقة أسطوريين دب الهزال فى أبدانهم .

وبعيداً عن الأفق العريض ، تلوح جبال إيقياس الوردية ساهمة ، كما لو كانت ظلال أحلام .

أما نعمة الله فى تلك البلد فقد انحصرت فى سهل صغير مستدير ذى زرع وفير ينبسط على أرض خفيفة عتيقة تحدها هضبة من حجارة جرداء تمتد فى الجنوب وفى الغرب .. فى هذه الضيعة الكنيسة أيضاً ، كنيسة القديس ديمترى ، محاطة بأشجار دفل كثيرة ، وزيتون دسم ، وصنوبريات مورقة ، وتين عسلى وآخر شوكى ، وأشجار بلوط ، أجيالا طوالا تبكى فى الشتاء هجران الناس لها ، وفى الصيف تشدو للنفر

القليل الذى يجىء من صائدى الطير والسمك وافداً من القرى المجاورة .
يأتون وأسرهم ، شهرا أو شهرين فى الصيف . يحطون الرحال ،
ويقيمون فى أكواخ صنعت على عجل من بوص أخضر وحبال ...

فى مثل ذلك الوقت ، يصبح القديس ديمترى خلية تعج بأولاد صغار فرحين ، يلعبون ويضحكون طوال النهار خليى البال ، وكم تبعث رؤيتهم البهجة فى القلوب حقًا .

هذا المكان بكنيسته الصغيرة والزروع المحيطة به ملك قديم من أملاك الأديرة . ولكن منذ العديد من السنين حتى اليوم لم يعرف المكان سوى عامل مقيم واحد ، هو العم ميترو كولاروس .

كان لايزال صبيًا ، هذا العجوز العم ميترو ، عندما ألحقه رئيس الدير إليسيوس بالعمل حارساً لهذه البقعة من الأرض ، وبمقتضى ذلك صار من واجبه ومن حقه أيضًا أن يرعى الزرع الذى كان آنذاك لايزال غضًا ، ويتعهد الكروم التى كانت قليلة . وبدلا من أن يتقاضى لقاء ذلك أجرًا كان له أن يجنى الثمار لنفسه . أشياء زهيدة ، لكنها جديرة باحترام فتى وحيد معرض عنه ، يتوجس الخيفة من الناس ومن أحوال الدنيا . لم تزهر على شفتيه أغنية فى ساعات شبابه الموحش سوى بضع ترانيم تدور حول محور حزين لا يتغير .

ثم مات إليسيوس رئيس الدير ، وتعاقب من بعده رؤساء آخرون عديدون ، دون أن يذكر أحدهم القديس ديمترى وحارسه المنسى من الناس ومن القدر . فأحب الفتى فى عزلته تلك البقعة من الأرض ، وارتبط بها حتى اليوم .

« بيدى عجنت هذه الأرض ... »

هذا ما كان يقوله لمن كانوا يمرون بتلك الناحية ، ويبدون إعجابهم بجهوده . ثم يردف قائلا :

– ليس لى أحد فى الدنيا ... هذه الأرض كانت بالنسبة لى أمًا وأخًا وكل شىء .. وفى الليل ، عندما تتوق نفسى إلى الإنسان أرتمى على الأرض ، وأتشبث بها . ألصق أذنى بأديمها ، وأسمع وجيب الناس من بعيد .

وتتابعت الفصول والأزمان ، بلا حدود تفصل بين أيام الشتاء وأيام الصيف ، بين الخريف والربيع .

ومن ساعات الضعف الإنسانى والمصالحات تراكم على كاهل العم ميترو خمسون من السنين الثقال ، صار فى هذه الناحية شبحاً حقًا . صار رجلاً جبليًا مديد القامة ، يصفر فى وجه الريح لا أنشودة بل ترنيمة حزينة . صار جذراً عتيقًا من جذور أشجار البلوط التى تضرب موغلة فى التربة ، تتشبث بها متلوية مثل ثعابين حجرية ، تظل هناك إلى الأبد ..

ولكن عندما تعيش خمسين عاماً كاملة فى بلد بعينه ، دون أن تغيب عنه حتى ساعة واحدة ، عندما تتحرك فى حيز مكانى بذاته ، فإنك تشعر بكل شىء من حولك . تعرفه حق المعرفة وتحبه ، ولو كان هذا المكان سجنًا ، فإن القضبان والأبواب الحديدية الثقيلة تصبح إخوة لك .

أمر من هذا القبيل حدث أيضًا للعجوز ميترو الأسود . كان يقول مشيراً إلى صف من أشجار الزيتون المتماسكة وقد أزهرت أغصانها :

– أجل ، أترى أشجار الزيتون ، تلك ؟ أنا الذى جعلت منها عرائس تزهو بزينتها .. كانت شجيرات برية نبتت هنا وهناك مبعثرة مثل صغار الأرانب الجبلية ... أنا الذى لمست شطها وزرعتها الواحدة إلى جوار الأخرى . وعندما ثبتت جذورها وحانت ساعتها المباركة ، أنا الذى زوجتها ... أنا الذى طعمتها وتعهدتها بالرعاية ... إنها – لعلمك – حية بدورها ... يبحث كل منها عن زوجه ، عندما يحين أوانها ...

وحتى فى عمره هذا ، كنت تراه من وقت لآخر ، وقد انحنى على جذور أشجاره ينبش التربة ، ويستأصل الحشائش الضارة . ثم يمسك بمكنسة من القش العطر يطوف بها المكان حتى البئر الرطيب الذى يفتح فمه متثائبًا تحت أشجار البلوط التليدة ، وينظف الأرض بحركات مباركة كما لو كان إلها كبيراً أحب مخلوقاته أكثر من نفسه .

وكثيراً ما كلف من التقى بهم أن يحضروا له من القرية المجاورة جيراً ، وعندئذ كانت تكتسى سفوح الهضبة الجرداء برداء ناصع البياض . كان يصلح ، هنا وهناك حجارة الأركان المهدمة ، ويضفى النشوة حتى على الأطر الحجرية المحيطة بسيقان أشجاره – النشوة التى بعثها معاينة الجهد والاهتمام بالعمل ، ومهما كنت مثقلاً بالهموم تدب فيك الفرحة ، وتشعر بصدرك يخفق وأنت ترى كل هذا .

– ولتعلم أن هذه هى حياتى أنا ... كل حجر ، كل غصن ، كل جذر هنا هو بالنسبة لى حكاية بأكملها .

كان يهز رأسه بألم ويردف قائلا :

– حكاية القلب . ما الذى بالإمكان أن تحب غير الطبيعة ؟ هل هناك ما هو أجمل ؟ ثم يقول ضاحكًا :

– هى بدورها أنثى ، هذه الطبيعة .. أنثى هى ، وإن لم تكن امرأة .

أشباح وعفاريت لا توجد على هذه الأرض ، فلو كان لها وجود لعرف العجوز ميترو أمرها ولرآها منذ العديد من السنين . آلاف الليالى الشتوية السوداء فكر فى هذا الأمر أيضًا ، عندما تشتد رياح الشمال وتدور حول عشته ، وتختطف روحه وتذهب بها بعيدًا إلى عوالم جد مختلفة ، إلى منحدرات مظلمة ، وهاوية لطمتها الأمطار والعواصف . إن العالم هلامى غير محدد المقدار .. إنه جد رحيب ، لعلمك ، بقدر عقل الإنسان ... ولكن المسكين ميترو كان يشعر بعض الأحيان أنه يموت فى غير أوانه ! .. فى بعض أمسيات مؤسية من مايو ومن أكتوبر يموت تحت أشجار البلوط ، تلك المخيفة ، ولازال فى شرخ شبابه ، بكرًا ، بلا تطلعات ، بلا مغامرة مثيرة تداعب خياله الفطرى ، ثم بعد ذلك ها هو يقترب من الموت فعلاً ، عجوزًا بلا أمجاد أو ذكرى .

وعندما كان يداعبه الصيادون الذين كانوا يحطون رحالهم هناك . كان يقول لهم :

– هذا ما يحدث لنا أيضًا نحن البشر أحيانًا . هكذا يحدث : فى دفء راحة اليد تذوب حياتنا مثل كرة الثلج البيضاء ، دون أن نكف عن الأمل .. دون أن نكف عن أن نترنم بأغنية الحياة ...

ذات يوم من أيام الربيع ، فى الوقت الذى كانت قد أزهرت زهور الدفلى ، ظهر فى القديس ديمترى رجل غريب يركب دراجة .

كانت الأشجار قد عادت إلى شدوها القديم ، وكل شىء من حولها قد دهن بالجير حديثًا وبدا لامعًا طليًا ، تماما مثل الروح الخفاقة فى

أعماق العم ميترو ، التى تزينت بحلل الأعياد بدورها ومضت تصلى مبتهجة برحيل الأشباح ...

أسند الرجل دراجته إلى ركن العشة ، وتمطى كى يطرد التصلب عن مفاصله . فقد كدح وقتًا طويلاً بعجلته عبر الطريق الوعر !

جرى العجوز ميترو يرحب به . رمقه الآخر بنظرات حادة .

– ديمتريو كولاروس ، أنت ؟

– أجل ، يا بنى ...

– احم ... هل أستطيع أن أشرب كوبًا من الماء ، أيها العجوز ؟

– بكل سرور ، وناول شيئًا أيضًا ...

كان أول إنسان يراه العم ميترو طوال أسبوعين ، فأراد أن يرحب به ، ويتجاذب معه أطراف الحديث ، عن ألف أمر وأمر ... عن دنيا البشر الذين حرم منهم طوال هذه السنين ، وعن أزهار الزيتون ونمو الكرمة ، وعن المحصول الوفير هذا العام ، وعن كل تلك الأشياء التى قالها فحسب لنسمات الربيع أيامًا وأيام .

لكن ذلك الرجل كان جد عبوس ، حتى يستمع إلى أغنية قلب .. تجرع الكأس الصغير التى قدمها له العجوز ، وشرب كوب الماء دفعة واحدة . ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق ، أخذ يقلبها بعناية .

مضى ميترو المسكين ينظر إليه دهشًا .

وفجأة ، انتزع الرجل من كومة أوراقه ورقة كبيرة ، وصوب إلى العجوز نظرة .

– ديمتريو كولاروس ، هيه ؟ حارس ضياع دير القديس يوائيل .

– أجل يا بنى ، أنا ...

– لك معى إنذار ، أيها العجوز .

جذب من الأوراق ورقة كتبت بحروف صغيرة ، وامتلأت بطوابع وأختام ، وناولها للعم ميترو . ثم بسط أمامه على حافة النافذة ورقة مماثلة مكتوبة على الآلة الكاتبة بدورها ، وأعطاه قلمه قائلا :

– خذ ، وقع هنا بالاستلام ...

فتش العجوز فى جيوبه عن النظارة .

– ما هذه الورقة ؟

طوى الآخر سائر أوراقه ودسها فى جيبه .

– إنهاء خدمة . « تسوية ودية لعقد العمل » ...

وقف العجوز ميترو ، ومضى ينظر إليه كما لو كان لا يفهم لغته .

– كيف قلت ذلك ، يا بنى ؟

– كما سمعته يا جدى .. إن الدير « وقد أصبح فى غير حاجة إلى خدماتك » – على حد قوله – يستغنى عنك ... من باكر عليك أن تجمع حاجياتك وترحل ... غداً صباحاً ، سيرسلون غيرك ليحل محلك ...

ترك أوراقه على حافة النافذة برهة ، ومضى يبحث فى جيوبه ، قائلا :

- ولك معى بعض النقود ستتسلمها .. تعويض .. أجرة ستة أشهر ...

أخرج من جيب سترته الداخلى لفافة من الأوراق المالية ووضعها فى يد العجوز .

- عدها .

مضى العجوز يحملق فيه تائها . هم أن يلفظ بكلمة . ولكنها ما أن انزلقت خارجة من شفتيه حتى سقطت أرضًا . ارتطمت بالحجارة وتهشمت آلاف القطع .

التفت إليه الرجل بشىء من العصبية :

- ماذا حدث ، يا جدى ؟ لماذا لا تضع توقيعك ؟

- وأنت .. أنت ، يا بنى .. من أنت ؟

قال له الآخر بصرامة :

- أنا المحضر القضائى .. عد نقودك ووقع ، لأن وقتى لا يتسع . يجب أن أنصرف ...

أخذ العم ميترو يرتعش .

- ماذا .. ماذا يعنى كل هذا ؟

- إنهم يطردونك ... تتظاهر بأنك لا تفهم ، أيها العجوز ...

- من القديس ديمترى ؟

- أجل ... إنه القانون .. طالما أنهم يدفعون لك تعويضًا ، فهم يملكون ذلك ... عد نقودك .. أجرة ستة أشهر ... لماذا تنظر إلىَّ هكذا ؟

– أنا .. يطردوننى أنا من هنا ؟ من القديس ديمترى ؟

– أجل .. ألم أقل لك ذلك ؟ .. تسوية ودية ...

تحجرت العبارة فى عقل العجوز الفقير .

« تسوية ودية ... »

جالت عيناه بنظرة مرتعبة فيما حوله ، فى كل تلك الأشياء التى أحبها أشد الحب طوال السنين العديدة . وفجأة ، خيل إليه أن الشجر والنبات وسفح الهضبة الجرداء والتلال المجاورة – خيل إليه أنها كلها قد اكتسبت دفعة واحدة الهيئة الإنسانية ، ومضت تنظر إليه بتساؤل كبير ، تنظر إليه كلها محدقة فى عينيه ...

– وأين .. أين أذهب ، يا بنى ؟

أتى المحضر حركة تنم عن الضجر .

– وهل أعرف أنا أين تذهب ؟ .. إنى أؤدى عملى فحسب ...

أشار إلى الورقة على حافة النافذة وقال له :

– وقع .. فقد أدركنى الليل هنا ...

انحنى كما لو كان منومًا ، ووضع توقيعًا مشوشًا فى المكان الذى أوضحه له الرجل المجهول . أخذ هذا الأخير الورقة ، وطواها مع غيرها من الأوراق .

– طاب مساؤك ، أيها العجوز ... ومن الغد ، هيه ، كما قلنا .. سوف يأتى الآخر .

استدار نحو الدراجة . دفعها صاعداً إلى الطريق الممهد ، قفز عليها ، ومضى بها مسرعاً . ثم غاب خلف الهضبة الحجرية البيضاء ...

ألقى العجوز نظرة على الورقة ذات الأختام ، ونظرة أخرى على النقود ، ثم سمر عينيه المبللتين على النقطة التى غاب عندها الرجل المجهول ، كما لو لم يكن قد أحس شيئاً من هذه الحكاية كلها ...

كان الوقت غروباً ، ومن جديد صبغت الشمس بصبغتها جبال إيفياس البعيدة .. ومضت تغيب أثيرية كعادتها ، وردية اللون ساهمة .

جزيرة يونانية

غالاتيا ساراندى

كانت الشمس على وشك أن تغيب .. السماء ذهبية ، والجو كله من ذهب ، الحقول وبساتين الكرم والأسوار ، بل وفيليباس أيضًا . كان فيليباس يجلس على غصن شجرة من أشجار الزيتون ، مدليًا قدميه الغليظتين الحافيتين ، ومحركًا إياهما فى حركات رتيبة ، متخيلاً أن بقع الشمس الصغيرة النافذة من خلال الأفنان المورقة إنما ترقص على جلده الخشن الضامر ، فيقول : « جنيه آخر ... وآخر .... »

وبين الفينة والفينة كان يرفع رأسه إلى أعلى ويختلس النظر من ثنايا أوراق شجرة الزيتون . لكن السماء كانت ذهبًا لا يتغير ، فانتاب الارتباك فيليباس . رفع يده مذعوراً إلى عينيه وحجبهما مطلقًا أنات خافتة . ثم عاد فأطرق رأسه وتابع من جديد قدميه ، محصيًا بقع الشمس ، مردداً بانتظام : « جنيه آخر وآخر ... »

بعد قليل وقف مستغرقًا فى التفكير ، وقال بصوت خفيض مشوب بالخجل ، كما لو كان يفضى إلى أحد بسر : « سأحيك كيسًا صغيراً أحمر ، وأضع من حوله شريطًا ذهبيًا ، وأجمع الجنيهات كلها .... »

قال من كان يقف وراءه ضاحكًا :

– وماذا ستعمل بها يا فيليباس ؟ ..

أجفل فيليباس . عض شفتيه . وضع يديه على فمه ، كما لو كان بذلك يكتم سره على نحو أفضل ، ثم انفجر فى الضحك ، مطلقًا قهقهة صاخبة . لكنه لم يعن على أى حال بالالتفات ليرى من أين يأتى الصوت . أخذ من جديد يحرك ساقيه بانتظام ، وسأل بلا اكتراث : « أنت هنا ؟ » .

لم يتلق فيليباس إجابة ، ولكنه التزم الجد .

خيم الصمت لحظات ، لحظات قصار للغاية ... بالقدر الذى تحتاج إليه السماء لتغير لونها . واصطبغ أديمها بلون أحمر ، أحمر دافئ وعميق .

عاد يسأل ، ولكن بلهجة جادة للغاية .

– ماذا تفعل ؟

ضحك الآخر . كان شابًا . وضع صندوقه خلف شجرة الزيتون التى جلس عليها فيليباس ومضى يرسم .

أجاب ضاحكًا :

– تعالى ، لترى .

– كلا ، خبرنى أنت !

– حسنًا ، أيها العنيد ، سأخبرك !

أغمض عينيه ونظر بانتباه إلى لوحته التى لم تكتمل بعد . أشجار زيتون ، شجرة سرو ، حائط مهدم ، ثم أشجار زيتون أخرى ، فى

وسطها قبة الكنيسة ، بيضاء ناصعة البياض مثل سحابة صيف فى الظهيرة . قطب جبينه وقد استبد به الانشغال . كل شىء صحيح ، الأشجار زاهية ، وحجارة الحائط تنبئ عن ثقلها . لكن كان ثمة شىء ناقص .. شىء ما .. عض شفتيه حتى كادتا تدميان . وفد من أعماقه البعيد صوت نسائى شبه منطفئ يقول : « لماذا تعذب نفسك ؟ لماذا تجهدها ؟ » ثم علا صوته عنيداً غاضباً : « لا تستطيعين أن تفهمى ... ليس باستطاعتك ذلك . كل ما أفعل يعوزه الضوء دائما ... الضوء ... »

وقالت الفتاة شاكية : « تطلب كل ما هو مستحيل .. تطلب ما هو وهم وخيال ... »

أغلق صندوقه حزيناً . ظهره يؤلمه ورأسه ثقيل ، ولكن إصراره على الدوام متقد . سأل نفسه : « أهو عناد هذا ؟ » وفى أعماقه كانت الثقة موجودة . وعلى الرغم من كل المثبطات يرفض الاستسلام . كلا .. كلا ... وعاد يسأل نفسه : أهو وهم أن أجرى وراء الضياء ؟ ومن جديد تتصدى ثقته ، وطيدة مثل قلقه ، بالإجابة : « كلا .. كلا ! »

قال فيليباس : « لماذا لا تخبرنى بما تفعله ؟ »

نظر المصور شارد اللب إلى شجرة الزيتون التى صورها : على مبعدة قليلة رأى شجرة شوك كبيرة مزدهية نبتت متقنة الخطوط ، وبدت مختالة تقف ممشوقة القوام ؛ وقد انبسطت أوراقها الذهبية ، وعندما التقت نظرة المصور بها أحس بقلبه يتخفف مما كان يعتصره منذ بعض الوقت . تناول كراسته وقلمه وشرع يرسمها بحركات سريعة متحررة قال :

– اعلم يا فيليباس ، إننى أرسم شجرة شوك ، وحذار عندما تنزل أن تكرمش أوراقى !

آخ ، ياله من شيء مضحك ! اسمعوا ، شجرة شوك . زلزل الضحك كيانه كله . تطاوحت ذراعاه وساقاه فوق شجرة الزيتون .

ها ... ها ... ها ... تكور مثل كرة ، وتدحرج نازلا . أخذ يأتى بقفزات عنيفة مرحة .

– اسمعوا ، اسمعوا ، إنه يرسم شجرة شوك !

فى ذلك الوقت ، كانت تمر فى الطريق السيدة مارينا . رأته يقفز ويصيح فسألته :

– ماذا حدث لك يا ولد يافيليباس ؟ أطبق عليك الجنون ، أيها المسكين .

كانت تسأله ، ولكنها كانت كما لو كانت تتشاجر معه أيضًا . السيدة مارينا امرأة صغيرة القد فى منتصف العمر . وجهها لوحته الشمس ، وشعرها فضى اللون . ولابد أنك سوف تقول عنها إنها عجوز لولا أن عينيها راقصتا النظرات ، عامرتان بالضياء ، عميقتا السواد .

أقبل عليها فيليباس بوجهه الساذج ، ومضى يشرح لها الأمر :

– اسمعى ، اسمعى ، إنه يرسم شجرة شوك !

ضحكت السيدة مارينا وقالت : إلزم الهدوء حتى يرسم صورتك أنت ، أيها الأحمق ! مادمت لا تلتزم الهدوء فحسنًا يصنع إذ يرسم شجيرات الشوك .

ومضت فى طريقها خفيفة الخطا .

ظل فيليباس جامداً فى مكانه برهة ، وقد استغرق فى التفكير . نكس رأسه كما لو كان قد أثقله التفكير . بإحدى يديه راح يحك رقبته ، وبالأخرى أتى بعض الحركات كما لو كان يريد أن يضرب شيئًا لا يراه يلفه ويعذبه . ثم فجأة انتفض ، واندفع يجرى فى أعقاب السيدة مارينا ، منادياً :

– إيه .. إيه ..

توقفت ونظرت إليه دهشة . ماذا من جديد ؟

عندما لحق بها ، كان الانشغال قد زال من قسماته . وقال لها كما لو كان يفضى لها بسر ، وهو يشير نحو المصور : إنه شيطان !

ابتسمت السيدة مارينا . ومضت فى طريقها على أنه مضى يهمس فى أعقابها كما لو كان يميط اللثام عن أمر كان خافياً . « إنه ينظر إليك ، ثم ينظر إلى الورقة يحرك يده فتخرج صورتك بحذافيرها ! إنه عمل شيطانى أليس كذلك ؟ إنى خائف . »

– ولم تخاف ؟

عادت رأس فيليباس تثقل من جديد . حقا لم يخاف ؟ انتابته الرغبة فى الضحك والقفز ، ولكنه تمالك نفسه .

سألها بلهجة مرحة :

– أين تذهبين ؟

أجابته ببساطة وهدوء ، كما لو لم يكن الذى إلى جوارها عبيط الجزيرة ، الذى يضحك منه الجميع . لم يخطر حتى ببالها أن تقول له وماذا يعنيك أنت ، أو أن تغضبه أو تنهره وتطرده ، وذلك لأن السيدة مارينا كانت قد فقدت أمها وتيتمت وهى صغيرة ، وإذ رأت أباها وقد هدته وطأة الحزن لشدة المصاب الذى ألم به . استيقظ قلبها مبكراً . تهشم وأدمى . ولهذا حملت يتم البيت كله على كاهلها . وتولت تربية إخوتها السبعة .

فى الحادية عشرة من عمرها كانت أمًا صغيرة تعرف كيف تتكلم عن الخير وعن الشر ، وكيف تنهر وتلاطف ، وكيف تواسى وتدخر من مصروف البيت ، ولا تنطق بكلام غير لائق . كل شىء كانت تعرفه ! وكما لو لم يكن ذلك كافيًا لتسديد دينها على الأرض ، تزوجت وأنجبت بدورها ثمانية أولاد ، شقيت فى تربيتهم . مات ثلاثة منهم وبقى لها خمسة ، ومنذ سنتين وأصغر أولادها فانجيلاكى يعانى من الدمل الخبيث على وجنته . ولهذا فقد امتلأ وجهها بالتجاعيد من فرط الهموم ، وابيضّ شعرها ، لكن قلبها أيضًا قد انشرخ من وقت جد مبكر ، ولذلك فما كان بالإمكان أن تقسو على أحد .

مضت تتأمل فى ألم جسد فيليباس الممسوخ . إنسان جد غريب هو . وحيد فى هذا العالم . يقتّرب من الشيخوخة ومع ذلك لازال عقله عقل طفل لا يكترث به أحد ، بل ويعذبه الناس والشياطين والضوء الباهر وظلمة الليل . بها رغبة ملحة فى البكاء من أجله إلا أن دموعها نضب معينها منذ أمد .. كل ما فى إمكانها نظرة إشفاق ومواساة فحسب .

– إنى ذاهبة ، إلى فيروبا ، يافيليباس . ذاهبة إلى الأب ستاماتى .. سأقيم صلاة بعد غد من أجل ابنى . نذرت نذراً .

قال فيليباس بعزم :

– سأحضر معك . سأحضر ، لأسأل الأب ستاماتى عما إذا كان هذا الرجل شيطاناً !

خمسة وأربعون عامًا أمضاها الأب ستاماتى ناسكًا فى ناحية فيروبا . تلاحقت السنين الخمسة والأربعون كما لو كانت حبات مسبحة بطيئة متتابعة . عندما جاء أول مرة كان شاباً يتدفق حيوية ، وطنين العالم يفد إلى أسماعه جائراً معذباً . أما الآن فقد أضحى عجوزاً ، وأرجاء المكان تخربت ، ظل الناسك وحيداً ، وكان هو فى فيروبا آخر من بقى .

ها هو يجلس على عتبة صومعته . ونظراته تائهة بين قمم أشجار السرو الباسقة ، تتمتم شفتاه بآيات من الكتب المقدسة ، مثلما كان يتغنى من قبل بأشعار الوجد والغرام . ذكريات بعيدة كل هذه الآن ، ومنطفئة ... جميلة هذه الساعة التى تغيب فيها الشمس ، وتطير الطيور فى السماء بعضها فى إثر بعض .

اقتربت منه السيدة مارينا دون أن تتعرف عليه . وقفت تتأمله ، وقد انتابتها الدهشة لتلك السعادة المرتسمة على وجهه الهرم .

نادته بصوت خفيض : « أيها الأب ستاماتى » ولكنه لم يسمعها . كان يبتسم للسماء ، ويغمغم بين الفينة والفينة قائلا : « كونوا مثل طيور السماء .. كونوا مثلها ... »

جلست بدورها على حجر مقابل ، وأومأت إلى فيليباس قائلة :

- صه ! صه ! إنه يتحدث إلى الملائكة !

انصاع فيليباس لها ، دون مناقشة . انزوى في ركن ، ومضى ينظر إلى العجوز بإعجاب . كيف يحتمل أن يتحدث إلى الملائكة دون أن يجن ! تسرى الرعشة في بدن فيليباس ، كلما خطرت بباله الفكرة ! يشعر بالأجنحة البيضاء الحريرية ترفرف في الهواء ، ويبدأ الخوف يدب في عظامه . الأجنحة من حولهم ، إنها تلمسهم ، وتكاد تربت عليهم . إنه يشعر بها ، ويضرب بدنه . ولكن لو رآها بعينيه ، فإنه يعرف أنه عندئذ لن يحتمل . يلكز السيدة مارينا فزعًا ، فترد عليه من جديد بإيماءة من إصبعها أن يسكت . ومن ثم يغمض فيليباس عينيه حتى لا يرى ، فعدم الرؤية حماية له ، وظل على هذا الحال ينتظر .

تنتظر السيدة مارينا وتفكر . يوم السبت يبدأ مانذرته . ستأخذ فانجيلاكى في حضنها ، وستصعد سيراً على قدميها إلى كنيسة القديس إيليا . إنها أبعد الكنائس والطريق إليها أشد الطرق وعورة . ستقطع حافية القدمين هذا الطريق المليء بالحصى الخشن ، وهي تعرف أن قدميها ستدميان . ولم تعر الأمر اهتمامًا قط . هذا ما يجب أن يحدث كي يشفى الولد . إنه آلام إكليل ثقيل وعبئه ملقى على الجميع . وستحمل هي على عاتقها ثقلا أزيد مما يحمله الآخرون ، من أجل أن يخف عن ابنها وطأة الداء الذي به . ستمضي الليلة معه في الكنيسة تصلي ، وفي الصباح سيقيم الأب ستاماتي قداسًا ، وهو ذلك الرجل الطاهر الذي انتزع نفسه من هذا العالم الدنس . وبعدئذ ستصعد بمفردها مرة كل شهر لتوقد قناديل الكنيسة . وذلك لمدة عشر سنوات !

وإذا شاء القديس سيصنع معجزته . سيكف نزف الصديد من الجرح ، وسيشرع الولد فى اللعب . سيجرى مثل سائر الأولاد . ولن تكون عيناه حزينتين ، وتنظران من حولهما كما لو كانتا تتوسلان قائلتين : أحبونى ! دمى قلبها، وتنهدت بصوت مسموع . صدرت عنها تنهيدة مديدة ومتعبة، استدار الأب ستاماتى نحوها مبهوتا :

– أنت هنا ، بارك الله فيك ، ولا تتكلمين ... وفيلييباس أيضًا هنا ... أهلا بكما ... أهلاً ...

كان الوقت ليلا عندما عاد فيليباس إلى البيت الذى يقيم فيه المصور . وجده عند باب الفناء وحيداً يتأمل النجوم . وقف بجواره وأخبره بالنبأ مبتهجاً :

– لست شيطانًا !

ضحك الآخر قائلاً :

– منذا الذى قال لك إننى لست شيطانًا ؟

– الأب ستاماتى ! كما قال لى أيضًا ألا أخاف ، وأن ترسمنى على الورق . وسأصعد يوم السبت مع السيدة مارينا وفانجيلاكى إلى القديس إيليا ليقيم لنا الأب ستاماتى قداسا . تعال معنا إذ أردت !

قال كل ذلك فى نفس واحد ، وهو يقف لاهثًا ، وعندما فرغ انفجر يضحك . فضحك المصور أيضا :

- حسنًا ، إذن ، سأرسمك .

قال فيليباس :

- أريد أن تفعل ذلك . الآن .

- الوقت ليل الآن يا فيليباس . ولا أرى جيداً ...

- تستطيع أن ترى على ضوء المصباح !

أصر على ذلك وأشار له إلى صاحبة البيت التى كانت تدعك زجاج المصباح .

- هيا إذن ، فلتتحقق رغبتك !

نهض جذلا ، ودخل الغرفة . أخذ ورقًا وقلمًا ، وجلس أمامه . ومضى يدقق النظر إليه .

قالت صاحبة البيت من مطبخها :

- سيرسمك إذن ، يا فيليباس ؟

ثم جاءت إلى الباب ونظرت منه .

نهرته قائلة :

- أين كنت طوال بعد الظهيرة ، أردتك أن تنقل لى ماء !

قال بتؤدة :

- كنت فى فيرويا ، عند العجوز .

وقف ينظر إليها نظرة جادة ، كما لو كان يزن ما إذا كانت أهلا أن تسمع ما سوف يستطرد إليه فى قوله ، لكنه لم يتمالك نفسه طويلاً وقال :

– كان يتحدث إلى الملائكة !

انتهره المصور قائلاً :

– لا تتحرك .

كانت رعشة العمل السحرى قد بدأت تستحوذ عليه . نظرة إلى الخارج ، نظرة إلى الورق وإلى القلم والصفحة تمضى إلى الامتلاء .

عاد فيليباس يشعر بالاضطراب فى جسده ، وهو واقف هكذا بلا حراك ، انتابته رغبة فى أن يجرى موليا الأدبار ، وأن يحطم كل شىء ، وأن يزعق ، لكنه تمالك نفسه ، لأنه وجد اليوم أمًا تسكن من روعه . قالت له : « لم تخاف ؟ » ثم مضى العجوز فقال له بدوره : « لا تخف » .

يفوت بعض الوقت . تنحنى صاحبة البيت على الصورة ، وتقول معجبة :

– صورة طبق الأصل منك !

ويسأله المصور :

– هل أنت مستعد ؟

ثم يناوله الورقة . ينظر إليها ... ينظر إليها مرتبكًا فى البداية ، ثم فرحًا ، ثم بوحشية يندفع إلى الخارج .

يعج الدرب بصوته المجلجل : اخرجوا أيها الناس ... يوجد فيليباس آخر هنا !

تقول صاحبة البيت :

- إنه جد متقلب .

وجلست على عتبة البيت الخارجية . لقد طاش صواب المسكين لأنه رأى صورة القديس إيليا فى شبابه . رآه يقود مركبته وأربعة جياد ضارية . وكان الضوء باهراً حتى أفقد التعس رشده .. وكيف بإمكانه أن يطيق كل هذا الضياء ؟

يستمع المصور إلى ذلك وهو يدخن . ينظر عاليًا .. حشد هائل من النجوم .. هل تراها هى أيضًا فى هذه الساعة بأثينا ؟ ها هو إحدها يضيع .. هل تطارد أوهامًا ؟ .. كلا ... كلا .. ليس النور وهمًا من الأوهام .

- كيف يستطيع أن يحتمل المسكين كل هذا الضياء ... كان بالإمكان أن يطبق العمى على عينيه ... لكنه فقد صوابه بدلاً من ذلك .

يهز رأسه ، لكن ذهنه يشرد بعيداً . كلا ... كلا ، ليس وهما ، كل ما فى الأمر أن الضوء يخطف الأبصار ، ويفقد الصواب .

مضت صاحبة البيت تقول :

- إنى أتساءل ، كيف سيقوى العجوز على صعود الطريق إلى هناك . تقدم به العمر الآن ... أين تلك السنين التى كان يصعد فيها الدرب يخطر مثل عصفور . كان فتى من أسرة كريمة المحتد فى أثينا ، وكان يعرف عدة لغات ، وكان حكيماً ... كما يقولون إنه ...

- ماذا يقولون ؟

- يقولون إنه أحب .

– وماذا حدث ؟

– ماتت هى ، فأصبح هو لذلك راهبًا . هذا ما يقولونه ، ولكن من يدرى أين الحقيقة وراء كل شيء ، ولما نأتى هذا أوذاك من الأفعال ؟ .. منذا الذى يدرى ؟

صعدت السيدة مارينا المنحدر ببسالة ، حافية القدمين ، حاملة ابنها في حضنها . قدماها الآن مثخنة بالجراح وذراعاها مهدمتان ، ولكن قلبها خفيف . بدأ تنفيذ النذر ، فليشف فانجيلاكى وأما الباقى فيهون . أوقدت القناديل ، بخرت نفسها ، بسطت غطاء الأرض أمام الأيقونة وأرقدته . ثم فكت الضمادة من على الجرح . وعندما أنجز العجوز صلاة المساء ، أخذت زيتًا دافئا مباركًا من القنديل ، ودهنت به الموضع السقيم ، وتركت الجرح مكشوفًا هكذا أمام عينى القديس . كى يراه ويشفق عليه . مضى الصغير يتابعها صامتًا . وفى عينيه نظرة دهشة متعبة ، كما لو كان يقول : لماذا تفعلون كل هذا ؟

فرغ الأب ستاماتى من صلاته ، وطوى جلبابه الكهنوتى . ثم التفت إلى الصغير وقال : « عونك ، يارب » ناوله ملبسه ، ولكنه لم يعن حتى بأن يمد يده لتناولها .

بادرت أمه قائلة :

– أدخل أطباء أثينا الرعب إلى قلبه .

هز الأب ستاماتى رأسه أيضًا ، وقال بصوت هامس :

– أثينا .. أثينا .. ترى كيف حال أثينا الآن ؟

كان فيليباس يقف وراءه . سمعه ، فافتعل ضحكة ، وقال كما لو كاد يحادث نفسه :

– أثينا .. خراب .. هذا حال أثينا .

مضى المصور الشاب يتأمل الأعمدة التى تسند القبة . ربت عليها بيديه ملاطفًا وبعينيه أيضًا أحاطها بنظرات تكاد تكون عاشقة . أحس إلى حد ما كأنه مضطرب من الجمال الذى كان بانتظاره على هذه القمة .

كانت الكنيسة الصغيرة من النمط البيزنطى ، البيزنطى الكلاسيكى ، وكانت خطوطها عامرة بالانسجام والبهجة والعزة . ولكن الأعمدة التى تسندها كانت مأخوذة من بقايا معبد قديم ، والهيكل بدوره كان من حجارة وطيدة .

عاد فيليباس يقول :

– خراب هى أثينا .. ماذا تظن ؟

التفت إليه ، وضحك سائلاً :

– هل ذهبت إلى أثينا ، يا فيليباس ؟

وكيف لم يذهب . عندما طلب للتجنيد ، إلى هناك ذهبوا به . زحام ، ضجيج ، تدافع بالمناكب ، احتكاكات . أحس كما لو كان تائها فى ذلك البلد الشرس . كان يذهب إلى مقهى يرتاده أهل جزيرته حتى يذكر لغته . وكان يقول : « العام القادم سأعود إلى الجزيرة . أعدوا خطاباتكم كى أحملها معى إلى أهاليكم » .

كان أبناء الجزيرة المغتربون يضحكون ، ويسألونه : « هل تعرف متى يكون العام القادم ، يا فيليباس ؟ » « العام القادم ؟ إنه بعد الشتاء وصيف وخريف ، هذا هو العام القادم » . والربيع يا فيليباس ، كيف نسيت الربيع ، يا فيليباس ؟ إنه يذكر كل ذلك ويضحك الآن . وهل أنسى الربيع ؟ ثم يلتزم الجد ، ويجيل بصره فيما حوله مرتاباً . ينظر إلى الأعمدة الرخامية . ويشير للمصور إلى القديس بخوف قائلا : وحده أتى بها إلى هنا لبناء كنيسته . وبتلك الجرار كان يجلب الماء. هذا مايقولون. تعال ، انظر .

كانت ثلاث جرار حجرية عتيقة ، عتيقة جداً ، منذ أيام كان يقوم على هذه البقعة معبد لأبولون . استدار الشاب بغتة ، وثبت أنظاره بإصرار على الأب ستاماتى ، كما لو كان ينتظر إجابة على سؤال خفى .

قال العجوز وقد بدت عيناه هادئتين وصادقتين :

– أجل ، عندما كان المستبدون يطاردون المؤمنين ، وقد نضبت المياه فى الآبار ، تعبت النساء والأطفال ، وعندئذ نزل القديس . وكل ليلة كان يحمل الجرار على كتفه ويجلب الماء إلى المؤمنين .

– هكذا يقولون ... وعلى الدوام كانت نظرته مثابرة ، بل وتكاد تكون صارمة .

أجاب الأب ستاماتى بصوت هادئ زاهد :

– رآه المؤمنون .

اضطرب بدن فيليباس . رأوه بمركبته وجياده التى كانت تنفخ النار من خطمها .

قال بصوت خفيض متوسل :

- فلنذهب إلى الخارج . الغروب بالخارج . الغروب الوردى ، وطيور الحجل تطير على مستوى خفيض . البحر من كل جانب ، والجزر الأخرى البعيدة ، كما لو كانت تسبح فى هذا الضوء الوردى . لاريب أن الليل يقبل . ولكن طوال هذا اليوم الذى انقضى كانت الشمس قد روت الوجود إلى الأعماق ... إلى الأعماق ، حتى إنها الآن وعلى الرغم من تأهبها للرحيل فإن ضياءها لازالت تنسكب على كل الأرجاء ، على التراب والموج وعلى قلب الحجر وجذور الشجر .

بدأت تهب نسمات قليلة ، داعبت لحية العجوز الطويلة مثلما تداعب خيوطًا من حرير . تسلق فيليباس إلى البرج وأخذ يدق الجرس ، وهو يقفز جذلا . كانت هبات الهواء تحمل الأصداء عذبة ، وتحيلها إلى ضياء بدورها .

تمتم الأب ستاماتى فى نشوة « ضياء صافية » .

نظر إليه المصور قلقًا مضطربًا . تولد فى أعماقه إحساس يشبه الحسد من هذه السكينة وبراءة الطفولة .

ضوء صاف . الضوء من جديد ، الضوء دائمًا وعذابه ... شجرة شوك مختالة مزدهية ، لوحة نصف مكتملة ، بها أشجار زيتون وسرو . كل شيء فيها متقن ، ولكن ثمة ما ينقصها ... وصوت الصبية يقول : تجرى وراء المستحيل . وصوت ربة البيت يقول : كيف يحتمل المسكين كل هذه الضياء .. الضوء دائمًا .. الضوء الذى يدفع إلى الجنون ، الضوء المفتقد ، الذى يأتى بالسكينة .. يريد أن يعض يديه ، أن يبكى ، ولكن فوق كل شيء يريد أن يتكلم .

كم هو معذب هذا الشاب الوسيم ، كم الأمر ساحر وأليم ، هذا ما يفكر فيه الأب ستاماتى .. كلا ، ليس الضوء وهمًا ، يا بنى . فليكن إيمانك قويا ، أيها الشاب ... تريد أن تأسره فى لوحاتك وعلى عجل . انظر إلى هذه الأعمدة وهذه القبة . لقد أسره الصناع على النحو الذى حلموا به ، أسروا الضوء . ليس إذن وهما ... لم تخاف ؟ يجب فحسب أن ترتوى أعماقك .. لا تكن عجولاً يا بنى ... وكن أكثر تواضعاً .

نزل فيليباس من البرج وجاء يجلس إلى جوارهما . بدا عليه الفرح . وبين الفينة والفينة يقول لنفسه : كل شىء حسن ، كل شىء حسن .

– ليس خرابًا هنا ، هيه يا فيليباس .

– كلا ... والآن معى فيليباس آخر . وهكذا ستكون لى صحبة خاصة بى دائما .

نهض ضاحكا حصيفًا ، وأخرج من جيبه الرسم الذى خطه المصور له ، بسطة بحرص وأمسك به إلى جانبه هكذا مفتوحًا . أخذ يتحدث إليه باحترام ، ويريه القرى والأديرة البادية من القبة العالية .

– انظر ، هناك يا فيليباس ... ها هى «القلعة» و «عذراء النبع» .

كان المصور يصغى إليه ويفكر « هكذا كنت أريها النجوم أحيانًا . هذا النجم سيريوس ، وهذا النجم القطبى ، وهذا النجم كاسيوبى ... كلا ، ليس خرابًا هنا ، ولكن لو كانت أيضًا هى بجوارى وأسند رأسى إلى حجرها لما أحسست إلى هذا الحد بالبحر يضغط على ويحاصرنى مقصياً إياى عن سائر الدنيا » .

- هناك يا فيليباس ، انظر ... انظر الكنيسة الصغيرة فى «حلالى» وتلك فى «بارون» .

كرر الأب ستاماتى اسمى هاتين القريتين بتؤدة . ثم أسرع يحكى قصة كل منهما كما لو كان يحكى «حدوته» من «الحواديت» .

... فى سالف العصر ، تزوجت إحدى الأميرات وأعطيت لها الجزيرة كلها بائنة لها . كانت أميرة من الفرنجة وزوجها كان بارونًا . لكنه لم يبق وفيًا لها . ولم يمض عام على زواجهما حتى رحل تاركًا فى قلب الأميرة جرحًا . مضت عيناها تذرف الدموع كلما بلغتها أخبار زوجها فى مجونه ومتعه ، إلى أن نضبت فى مقلتيها ينابيع الدموع . وعندئذ هدتها بصيرتها إلى فكرة عمدت إلى تنفيذها . بنت الأميرة لنفسها ديرًا وصارت راهبة ، وغيرت عقيدتها ، حتى تقطع كل ما يربطها بالخائن من روابط . مضت السنين تارة سريعة وتارة بطيئة ، كما تمضى السنين عادة . وفى صباح ملأ صخب الموج سماء الجزيرة لقد عاد البارون . وأمام الأميرة ركع ذليلاً . حدثها عن حبه لها الذى كان له طوال هذه السنين تعويذة ، وعن الهموم التى سقتها إياه مغريات الحياة . واستحلفها بالله ألا تتركه وحيداً . مضت دون أن تنبس ببنت شفة تنصت إليه كما يجب أن تنصت أميرة جريحة القلب طعينة . ظلت لا تنطق بكلمة ، ولا تحرك ساكنًا ، فغضب هو ، لأنه كان سليل المحتد وذا رجولة ، وفى سورة غضبه صاح فيها غير متمالك لنفسه : لماذا لم تنتظرينى ؟ لماذا صرت راهبة ؟ لماذا ؟ .. على أنها لم تجبه قائله ويحق : لأنك هجرتنى ، وكنت خائنًا . كلا ، لم تجبه بذلك ، بل رفعت رأسها فى إباء ونظرت إليه طويلاً وقالت : إنى فعلت ما حلا لى !

يقولن إنه أصبح بدوره راهبًا . إنه غير دينه بدوره . ويقولون إنه بنى لنفسه كنيسة صغيرة وترهبن فيها . ويقولون إنه كان كل ليلة يشعل ناراً على السطح فوق برج الجرس ، وإن الأميرة كانت تنظر إلى هذه النار من الطرف المقابل حتى ساعة متأخرة .

قالت له : «فعلت ما حلا لى !» ومن هنا نشأت تسمية الدير بدير «حلالى» والكنيسة الأخرى لازال الناس يطلقون عليها «البارون» .

عند الفجر استيقظ المصور ، وخرج ينتظر رؤية الشمس . لم يكن يمسك بيديه لا ورقًا ولا قلمًا إلا أن ثمة إحساسًا بالسكينة داخل قلبه . لم يكن يرى البحر ، لأن ضباباً كثيفًا كان قد احتضن القمة وحجب الرؤية . كان ينظر مبتسمًا إلى تلك الناحية من السماء التى بدأت تتورد ، ومضى يفكر فى الكلمات التى سوف يكتبها إلى الفتاة التى كانت تشعر بالعزلة فى قلب أثينا الصاخبة .

«عزيزتى ، أوجد فى جزيرة يونانية . ليس للزمن اعتبار هنا . وللأشواك جمال يجرح . وكل شىء ضياء . ها هو فيليباس قد اختل منطقه من وفرة الضياء ... عزيزتى ، فانجيلاكى الصغير مريض ويتعذب ، وقطعت أمه الطريق الصاعد كله حافية القدمين حتى دميتا ، وأمضت الليل ساهرة تصلى ، لأن ألم الإنسان – كما تقول – إكليل ثقيل الحمل ، ولأنه لو لم يكن فيليباس وحيداً فى هذا الوجود ، وكان له من يتألم له ، لاحتمل الضياء . تفهمين ... يا حبيبتى ، لا تجيبينى قائلة مثل الأميرة القديمة ... فعلت ما حلا لى .. لا تجيبينى هكذا ، لأن ذلك موت . يفلت المرء من إسار الزمن ، هكذا كما فعل الأب ستاماتى ... ولكن عندما

جاء أول الأمر إلى فيروبا لابد من أن الإحساس بهذا البحر المحيط به من كل جانب كان يخنقه .. لاتجيبى بذلك ، أرجوك احضرى فحسب إلى جوارى لتساعدينى على أن أصبح متواضعاً ، وأن أرتوى بالضياء مثل جذور الشجر وقلب الحجر ... »

حلم فتاة

كوستاس خادزيولوس

لم تحظ كلارا بحب رجل قط . لم تكن تريد أن تصدق أنها على غاية من الدمامة ، وإن كانت تحس بالخوف من ذلك فى قرارة نفسها . لكن أحداً لم يحبها قط ، وإلى رفيقاتها اللاتى كن يتباهين بغرامياتهن ، كان يجب أن تجلس وتنسج بدورها وتنتحل قصصاً من صنع خيالها عن شبان وقعوا فى هواها ذات مرة ، وعن آخرين لازالوا يطاردونها . تارة كانت تحكى عن نزهات عاطفية تجوس فيها الغابات مع عشيق ، وتارة أخرى عن أسفار بزوارق ومراكب عبر النهر والبحيرات مع آخر . كل هذا كان يحدث أيام الآحاد بينما كانت كلارا تلزم الدار تونس أمها المريضة ، أو تخرج فى المساء تتريض فى الأماكن الخلوية تتنسم بعض الهواء ، وتغزل بشكل أفضل فى الهواء الطلق الحلم الذى سوف تحكيه فى الغد لرفيقاتها . كان صديقها الآن فتى غريباً عن الديار ، أسمر البشرة ، أسود الشعر والعينين ، جاء من بلد بعيد ، بلد لا يسقط فيه الجليد أبداً ، وتمتد فيه الحقول على مدى النظر فى حضن نسمات دافئة . وتتدلى الأغصان من الشجر ، وفى الغابات تحيا طيور غريبة ، والقصور التى يرين عليها الصمت تنعكس أعمدتها وسطوحها على

صفحات المياه الصفراء في الأنهار . كانت صويحباتها تتسع حدقاتهن ، عندما كانت كلارا تحكي أن لصديقها قصراً ، وسيأخذها إليه ليعيشا هناك معاً .

كانت كلارا تنتظر مجيئه مثلما انتظرت الآخرين الذين لم يجئ منهم أحد . وذات مساء أثناء عودتها إلى البيت ، عندما شعرت بخطوات مثل خطواتها وئيدة ساكنة تتعقبها داخلتها الظنون عما إذا لم يكن هذا الذي خلفها هو عشيقها حقًا . ولكن لما كانت الدماء قد تجمدت فجأة في عروقها ، وخفق قلبها بشدة ، فقد عجزت عن أن تستدير على عقبيها وتراه . على أنها عندما وصلت إلى باب دارها ودخلت التفتت وألقت وراءها نظرة خاطفة ، فرأت عينيه اللتين لمعتا تحت ضوء مصباح الطريق . صعدت الدرجات مسرعة ، وجرت إلى النافذة . كان يقف بلا حراك إلى جوار عامود النور ، وقد تسمرت نظراته على شباكها .

لم تذق كلارا طعم النوم تلك الليلة ولا الليلة التالية ، لأن خطوات ذلك الغريب تعقبتها الليلة التالية أيضاً . وعندما صعدت إلى بيتها ، عاد يقف مثل نصب أمام شباكها وقد رفع عينيه نحوه ، وفي تلك الليلة الثالثة لم تعد كلارا بقادرة على أن تحتمل المزيد. لبست قبعتها من جديد ، ونزلت إلى الشارع ، وقد اعتزمت إلى أن تذهب إلى الغريب مباشرة ، لكنها مضت رغماً عنها تسير في الطريق ، دون أن تعرف إلى أين مقصدها . يلقي بها كل درب إلى درب آخر ، حتى وجدت نفسها في المتنزه الكبير . عبرت كلارا الجانب الغامر بالضوء والناس ، ودلفت إلى أحد المماشي الضيقة المتعرجة مثل الثعبان والتي لا يلمسها النور إلا لماما ولا يلبث أن يضيع تحت ظلال الأغصان السوداء . اندست في

ظلمتها ومضت قدمًا ، ومن ورائها أحست بخطوات الغريب تتبعها بطيئة متئدة فى أعقابها ، ظلت تمشى حتى وصلت إلى مكان فيه بركة تكاد تختبئ تحت الشجر . وعندما وقفت ، توقفت بدورها الخطوات إلى جوارها . وعندما جلست على الأريكة التى كانت هناك عند حافة الماء وجدت الغريب جالسًا بالقرب منها . وعلى ضوء مصباح يتدلى من بين الشجر أمكنها أن ترى من جديد ملامحه . كان أسمر الوجه ، أسود العينين والشعر ، غزير الخصلات . كان هو .

نظرت إليه كلارا صامتة ساكنة ، كما لو كانت غارقة فى حلم . أشجار واطئة نحيلة محنية ملتوية الأغصان . أشجار هزيلة ممتدة مثل نصال حادة ، ملونة ، غريبة ، معروقة مجهولة ، تلمع مثل الذهب فى وهج الشمس الغاربة . وأمامها تفتحت وضاءة الزرقة ؛ الحقول الشاسعة التائهة بعيدًا فى الأعماق الدفيئة . وكانت قد قرأت فى الكتب عن العيون الداخلية التى ترى أحيانًا قبل العيون الخارجية ، وثبتت أنظارها على الغريب وانتظرت أن يتحدث إليها ، ومضت تحلم بأن يكلمها وتتلهف إلى كلامه عن بلده البعيد ، عن الطيور الغريبة التى تعيش فى الغابات ، عن المياه الشاحبة الساكنة التى تنعكس على صفحتها – مثلما فى مرآة – القصور ناصعة البياض ، لكن الرجل الغريب لم يفتح شفتيه بكلمة ، بل مضى ينظر إليها بدوره صامتًا ساكنًا . هكذا ظل صامتًا طوال تلك الأمسية ، وساكنًا صامتًا أيضًا طوال كل الأمسيات اللاحقة ، عندما كانت كلارا تقوده وراءها ليجلسا جنبًا إلى جنب على الأريكة ذاتها ، عند حافة البحيرة .

لم تعد كلارا الآن تحكى شيئًا لرفيقاتها من هذه القصة . كانت تلتزم الصمت ، سارحة البال طوال النهار ، كما لو كانت تحلم وتنتظر قدوم المساء فحسب .

وأخيراً ، ذات مساء صامت معتم مثل سائر الأمسيات ، ذات مساء انسكب فيه ضوء المصباح كعهده دائما على وجه الرجل الغريب ، وزحف عند قدميه مثل أفعى ، وارتعش أصفر شاحبًا عند حافة الماء ، ازدادت كلارا اقترابًا من الغريب ، وأمسكت بيده .

لم يحرك ساكنًا . تركها ممسكة بها . نظر فى عينيها وسألها :

– ما اسمك ؟

أخبرته كلارا باسمها .

أجابها الغريب ولازال يثبت عليها بصره قائلاً :

– لست أنت .

اتسعت حدقتا كلارا .

– لست أنت . تشبهينها فحسب ،. تشبهينها فى دمامتها .

همت كلارا أن تسحب يدها ، لكنه أمسك بها :

– ... ذات الشفتين المترهلتين ، ذات الوجنتين اليابستين نافرتى العظام ، ذات العينين الصغيرتين المنطفئتين عديمتى اللون ، ذات الجسد المحنى . كانت بدورها أكثر النساء دمامة . ما من أحد أولاها التفاتًا ، ما من أحد اكترث بها . ما من أحد أحبها . الناس عديمو القدرة على

رؤية الروح . وهى كانت روحًا طيبة . لم تنبس بكلمة . لم تطلق ضحكة واحدة فى صحبتى قط . كانت تجلس عند الطرف فحسب ، منكمشة . ومثل نمرة فى قفص مضت تراقب فى صمت ، الأخريات اللاتى كن يضحكن معى . لم تكن هى تشبههن . لم تكن على غرارهن . لم يكن لها مكان فى هذا العالم . من أجل هذا قتلتها .

انتفضت كلارا ، لكن الغريب لم يترك يدها .

وأردف قائلا :

– كنت أحبها ، فقتلتها . لكن لا تخشى ، فأنا لا أحبك . إنك لست هى ، كما خيل إلىَّ عندما رأيتك أول مرة . اعتقدت أن روحها قد انتقلت إليك ، أنها قد بعثت فيك ، أنها عادت إلى الحياة معك . لكن كلا ، أنت لست هى . أنت تخافين ، أما هى فلم تكن تخاف . أنت ترتعدين ، أما هى فلم تكن ترتعد . من تلقائها فضت ضفائرها وأعطتنى إياها ، فعقدتها حول عنقها . شددتها وأحكمت الرباط ، وكلما ضاق حولها اتسعت عيناها ، عيناها الضيقتان ، وأطلتا على الهاوية السحيقة . وانفتحت هناك أبواب على مصراعيها . مثل لوحين من الخزف أجيد صقلهما لمعت عيناها الباهتتان ، ومثل قطعتين من الياقوت تقطران دماء ، ومضت العينان المنطفئتان . تملكنى الذعر فغطيت وجهها . لم أعد أرى سوى الجسد العارى . تلاعبت من حولها أنوار صفراء ووردية شاحبة ، وغاضت هناك أضواء براقة ناصعة لازوردية وخضراء وعسجدية . وكما تنطفئ الألوان ذات يوم معتم فى محارة ، وكما يرتعش فى اللجة القمر غير المكتمل مخترقًا الأغصان من عليائه ، هكذا كان يلمع الجسد العارى أمامى .

نظرت كلارا إلى البركة حيث كانت تشير يده . كانت المياه مظلمة ، ولم يكن القمر بادياً . عند الحافة فحسب ، هناك أمامها ، كان وهج المصباح يرتعش ارتعاشات صفراء .

مضى الغريب قائلا :

– لماذا عارية ؟ تجردت من ثيابها عندما رأت أنني أريدها عارية ، وألقت بنفسها على الفراش . أما أنت فلا تريدين ذلك . إنك لا تفضين وحدك ضفائرك .

مد يده نحو عنقها ، كما لو كان يريد أن يفتح صدريتها .

انتفضت كلارا من جديد .

قال لها الغريب :

– لا تجزعي . لا أريدك أنت .

وأنزل يده .

– تلك تركتني أجردها من ثيابها ، ورقدت في الفراش عارية . لم أدنسه . غطيت الجسد العاري ، فقد كان يملأني رهبة ببريقه . قبلت يدها فحسب ، وكانت تتدلى خارج الغطاء . كانت يدها جد صغيرة ولينة ، أم يدك فدميمة ، ولن أقبلها . يد خشنة مفلطحة رديئة الخلقة .. إنك لست هي . لم تخرجي من المياه الصفراء التي ذهبت ، وألقيت بها فيها ، حتى لا يرى أحد آخر الجسد العاري . إنك لست هي ، تشبهينها فحسب . أنت لاتريدين أن تموتي ، لا تريدين أن تحبي . لا تستطعين . أم أنك تريدين ؟ .. خبريني !

ظل ممسكًا بيديها ضاغطًا عليها بشدة .

نكست كلارا وجهها . لم تكن قادرة على أن ترفع وجهها إلى وجهه ، لم تكن لتقوى على رؤية عينيه اللتين تومضان واسعتين سوداوين باردتين تحت الضوء الأصفر .

بعد هنيهة ، أحست بأنه أفرج عن يدها . وعندما جرؤت ورفعت وجهها من جديد كان الغريب قد اختفى .

فى المساء التالى ، عندما عادت كلارا إلى البيت ، لم تسمع وراءها خطواته . وعندما أطلت من الشباك لم تره واقفًا أمام البيت ينتظر . لقد انتظر ولم تظهر هى . نزلت إلى الشارع ودون أن تدرى وجدت نفسها فى المنتزه تجلس عند حافة البحيرة . ظلت وحدها ساعات مطرقة دون حراك . لم يحضر الغريب . ولكن عندما نهضت لتتصرف ، ودلفت إلى المشى الضيق المظلم ، خيل إليها أنها سمعت ، ربما وراءها أو على مقربة منها أو من بعيد ، أو ربما من داخلها فحسب ، أصداء قهقهة مديدة هائجة متوحشة ، تمضى إلى زوال .

أنوار فى أغوار المحيط

بيتروس خاريس

عاشت الجزيرة الصغيرة منسية من البشر أجمعين . نسيها أيضاً جند العدو . فى الأيام الأولى للاحتلال ، جاءوا إلى مينائها . عينوا رجلين مدججين بالسلاح للحراسة ، ما لبثا بدورهما أن انسحبا بعد قليل ، تاركين الجزيرة الصغيرة مسمرة فى مكانها بين البحر والسماء .

وقد كانت الجزيرة منسية حتى فى السنوات الطيبات أيضاً .

وفى صدد تفسير هذا العزوف عن الجزيرة ، ذهب أهلها يقولون «واضح ، أننا لسنا على طريق مطروق . لسنا على خط القتال» ولم يكن يريدون أن يفكروا فى تعليل آخر . وكيف بإمكانهم أن يفكروا فى غير هذا ؟ هل جاءهم أحد ، هل رآهم أحد ، هل تعرف بهم أحد حتى يمكن أن يكتسبوا حبه أو يسببوا نفوره ؟ سكان الجزيرة لا يزيدون على مائتين وخمسون نسمة أو ثلاثمائة على الأكثر . لم يكن هناك سوى عمدة هو أعلى السلطات ، وعامل تلغراف يحادث الريح والسحب ، ويخبر أهل الجزيرة بما يدور فى العالم البعيد ، وكأنه أشبه بساحر أو نبى .

كل ما تملكه الجزيرة من مراكب البحر مركبان ، كانا فى السنوات الهادئة يتسكعان فى المياه القريبة ، يتجران فى بعض الأشياء . وفى قليل من الأحيان كانا يبلغان ميناء بيريه ، ويجلبان من هناك بعض البضائع . لكن المركبين الآن مربوطان . وبين الحين والحين ، وقد أصبح هذا أمراً نادراً ، كانا يبحران للصيد ويعودان إلى ميناء الجزيرة سريعاً . كان البحر قفراً مهجوراً إلى حد يثير الفزع . ما من دخان ، مامن شراع ، ولا حتى جناح طائر يرفرف على مدى البصر ، كان هو البحر القديم ، الموغل فى القدم ، البحر السابق فى وجوده على وجود البشر . وحيدا ، مترامى الأطراف ، طليقًا بالنهار ، وبالليل يتبادل مع القمر ومع الظلام أحاديث كتلك التى جرت فى الساعات الأولى للخليقة بين الأشباح الخفية وقوى الطبيعة ، دون أن تلتقط أذن الإنسان من تلك الأحاديث كلمة ، مع ذلك ، فلا زال فكره يبحث لها إلى الآن عن مغزى ودلالة .

أدرك أهل الجزيرة سريعًا أنهم سيقضون زمن الحرب فى ضنك معتمدين على ما تجود به أرضهم فحسب . ولو كان بإمكانهم أن يعرفوا ماذا كان يجرى فى الأنحاء الأخرى من اليونان لباتوا راضين بذلك على أى حال .

لا شك أنهم سيقضون أيامًا عجافًا محرومين من أشياء وأشياء ، لكنهم من الجوع ما كانوا سيموتون . المرض وحده كان يفزعهم . فحتى فى أيام السلم قلما اتسع لهم الوقت كى يسعفوا مريضًا فى خطر . كانت الباخرة التى تمر بالميناء تمر متأخرة ، والمركب كان يتأخر فى الإبحار . كانوا يتشاورون فى تكاليف العلاج الباهظة ، ولا يقدمون على

اتخاذ قرار عاجل ، فكان المريض فى مرات عديدة غير قادر على أن ينجو عند وصوله إلى مدينة من مدن الحضر الكبيرة .

هكذا ظلوا فى عرض البحر بعيداً عن الحرب بعيداً عن العمران ، فى صحبة عامل التلغراف الذى يخبرهم من وقت لآخر كم أضحى الإنسان فى الشرق والغرب وحشاً ضارياً فى جبهات القتال الكبيرة والصغيرة ، وفى رعاية الله الذى كان يتابع قرير العين أمور أهل الجزيرة فى حياتهم الهادئة ، ومع الأيام اضمحل ما للعمدة من سلطان ، وأصبح غير قادر – حتى لو أراد – على أن يرفع عقيرته بالصياح ، فلم تكن لديه القوة لذلك . كان بدوره يأكل نصيبه من الخبز القليل الذى تنتجه الجزيرة ، ولم يعد يبدد قواه فى الزعيق والتهديد . وبعد قليل ، فقد عامل التلغراف سطوته بدوره . عطل ما أصاب أجهزته ، فأغلق مكتبه ، وكف عن أن يكون الساحر أو النبى . وبذلك انقطع الخيط الوحيد الذى كان يربط الجزيرة بالجانب الآخر من العالم أيضاً . جاءت ليال ملأتها أحلام غريبة ، وأقبلت أيام تولى فيها شرح الأحلام القدامى المسنون من أهل الجزيرة ، متخذين من رموز تلك الأحلام نبوءات تشير إلى الحرب ، والمجاعة ، وإلى ما حل بالدنيا من نكبات .

بعد شهور كثيرة عاد الجنود الأغراب إلى الظهور . مكثوا بالجزيرة وقتاً قصيراً ، وقالوا القليل ، أقصد أن هذا ما أنبأنا به واحد من بنى بلدتنا سار فى إثرهم وكان يعرف لغتهم . أمراً واحداً تركوه فى الذاكرة :

– ما من ضوء بالليل ! ولا حتى سيجارة مشتعلة !

فى الفجر وصلوا ، وعند الغروب رحلوا . وما لبثت العتمة أن ابتلعت قاربهم الصغير .

سأل أهل الجزيرة العمدة الذى كان لهؤلاء الأغراب معه حديث قصير ، فلم يعرفوا منه شيئًا ، سألوا القسيس الذى ألقى عليه الأغراب تحية الصباح ، ولكن من جديد لم يعرفوا شيئًا . سألوا دون جدوى سكرتير المجلس البلدى الذى مثل أمام أولئك الأغراب معلنًا أن الرئيس يلازم الفراش ولكن ما من كلمة . بأفواه مقفلة انصرفوا . ومع ذلك كانوا قد قالوا شيئًا جللا : إن الحرب لازالت قائمة فى البلاد .. ولابد من أن الأمر كان كذلك أيضًا فى العالم كله ، حيثما وجدت أرض ، حيثما وجد بحر ، حيثما وجد بشر .

كانت الليالى مليئة بالأحلام ، التى تبث بالنهار الآمال فى القلوب أو تثير الرعب فيها . مضت الجزيرة تنتظر ، وتنتظر ، حتى تعودت الانتظار ، فكفت عن أن تسأل البحر الذى سمع وعرف الكثير ، ويطبق شفتيه ، فلا يدع سره يبين فى عينيه الواسعتين سواء فى حالة زرقتهما وهدوئهما ، أو فى حالة تموجهما وتحول لونهما إلى الخضرة ، أو عندما تظلمان وتسودان من شدة الغضب .

فى الشتاء كان النهار ينقضى سريعًا ، أما الليل فلم يكن له نهاية ، وحتى الأحلام لم تكن بقادرة على أن تقصر من طول تلك الليالى الشتائية ، طالما لم تكن في ديسمبر ويناير بكافية لملء كل تلك الساعات الثقال البطيئة . أمام الميناء ومن حوله ، كانت البيوت الصغيرة فى تجمعها أشبه بتجمهر متأهب لكل ساعة صعبة . أما الميناء فكان خاليًا . بضعة قوارب جذبت إلى الشط الرملى ، المركبان مريوطان وراسيان . يضعف الريح تارة ، ويشتد تارة أخرى ، يتجاذب أحاديث الود والصفاء حينًا مع البحر ، ويدب الخصام بينهما حينًا آخر ، فيستعر عراك الموج مع مركبى الجزيرة .

كانت الساعة تناهز العاشرة مساء ، وهو وقت متأخر بالنسبة لأهل الجزيرة ، فكانوا غارقين فى سباتهم ، عندما وفد إليهم الصوت المجلجل ، تلك الليلة أيقظهم جرس الكنيسة الذى مضى يدق كما لو كان يقول لهم :

- انهضوا ! اجروا ! اجروا بسرعة !

تمكن بعضهم من ارتداء ملابسه ، وخرج البعض ولم يكمل لبسه . جروا جميعًا ، فوجدوا شابًا قد تسلق إلى جرس الكنيسة ، وأطلق كل هذا الإنذار السائب .

- أوه ، ياله من مجنون !

كان فانجيلى «عبيط» الجزيرة لم يكن له بيت يأويه ولا ملابس مناسبة تستره . ينام تارة هنا وتارة هناك . ويحسن عليه هذا ، ويعطيه ذاك كسرة خبز يقتات بها ، فتقيم أوده .

أولئك الذين وصلوا قبل غيرهم هجموا عليه ساخطين كى ينزلوه ويلقنوه أن يخلد بالليل إلى النوم الهادئ . ولكن صدهم عنه القس الذى هرول بدوره دون أن يكمل ارتداء مسوحة الكهنوتية :

- مهلكم لحظة !

وشخص ببصره عالياً إلى برج الأجراس ، وقال بلهجة آمرة :

- انزل ، يا فانجيلى !

أطل «العبيط» على الذين ينتظرون عند سفح البرج غاضبين . رآهم يتزايدون برهة بعد أخرى . تردد ، لكنه ما لبث أن نزل . أبقاهم القس بيده الممدودة بعيداً .

- ماذا حدث لك ، يا فانجيلى ؟

مركب ، يا جدى ، سفين ! رأيته بعينى ، بوضوح رأيته ، وأطلقت الإشارة حتى يراه الآخرون أيضاً .

لم ينتظر الحاضرون دقيقة . تركوا فانجيلى وهرعوا إلى الميناء ، وقد انضم إليهم آخرون ممن هبوا من نومهم مذعورين يرتعدون من الخوف والبرد . وفى أعقابهم مضى القس وفانجيلى .

وفى الميناء اتسعت دائرة التجمع ، فقد تواجد هناك أهل القرية كلهم . دارت العيون فى المحاجر ، عيون أهل الجزر التى تعرف أن تنقب فى أرجاء الليل ، وتنبش على الأخص فى ليل البحر الساجى ..

ما من نسمة سمعت ، والهدوء منبسط على البحر الذى شرعت أمواجه تهدر فى حركة فاترة ، كما لو كانت بدورها قد استيقظت على صخب الناقوس . وكان الظلام كثيفاً حتى لكنت تلحظ أدنى ومضة ضوء تبرق على أديمه . ولكن ما من شىء ظهر ، حتى تلك الومضة لم تبد لهم ، فما بالك بسفين ، بسفين قيل إنه أضاء كل أنواره . نظر كل منهم إلى الآخر ، تأكدوا من أنهم لم يكونوا مخطئين . ثم استشاط غضبهم من جديد . لكن فانجيلى لم يكن وحده هذه المرة ، بل كان فى صحبة القس الذى يعرف أنه يتعامل مع « عبيط » مختل .

قال له بلهجة صارمة ، جامدة حتى لا تنم عن غضب :

- أين ترى السفين ؟

- ما عدت أراه الآن ، يا جدى .

– وأين رأيته ؟

– هناك ، يا جدى ، هناك .

أشار إلى أغوار البحر ناحية اليسار ، فى الاتجاه الذى كانت تسير فيه السفن عندما كانت تمر بالجزيرة مروراً عابراً .

دقق الجميع النظر ، حاولوا أن يميزوا فى الظلام شيئًا ما ، لكنهم منَ جديد عجزوا تمامًا عن الرؤية . وأدرك القس أنه قد يقع مكروه فى ظلمة الليل وغمرة الغضب الذى اجتاح كل هؤلاء الناس ، فسعى إلى تبرئة فانجيلى وتبرير مسلكه أمامهم :

– هل رأيت السفينة بوضوح ، أم خيل إليك أنك تراها ؟

هل كنت مستيقظًا أم نائمًا ؟

– رأيتها يا جدى . أقول لك رأيتها .

– ومن أين رأيتها ؟

– من الشباك الكبير فى المخزن .

وقد قصد فانجيلى بذلك الشباك شباك المبنى الذى تهدم نصفه حيث يقضى هذا الشتاء فى خرائبه .

– وكيف رأيت السفين فى تلك الساعة ؟ ألم تكن نائمًا ؟

– لم أكن نائمًا ، يا جدى .

ثم خفض صوته :

– كان الجوع يمزق أحشائى . من أول أمس لم أذق طعاماً .

لم يعد بحاجة لحماية القسيس . أخذ الناس مثنى وثلاثًا يستديرون ، يولون ظهورهم إلى البحر ، وينصرفون . كانوا يرجعون إلى رقادهم ليحلموا بالسفين الذى لم يروه من على الشط فى صحوهم .

لم يمض أسبوع آخر وامتلأ الليل من جديد بصوت الجرس المجلجل . لم يغادر الجميع فراشهم ، ولكن الذين قاموا جروا ليمسكوا بفانجيلى ويحكمون وثاقة حتى لا يعود إلى إزعاجهم من جديد . إلا أنهم عندما وصلوا إلى الكنيسة ، رأوا ما لم تكن عيونهم بقادرة على أن تصدقه ، وسمعوا مالم تقو عقولهم على فهمه .

من على البرج ، صاح فيهم خريستو ، هو شاب من خيرة العمال فى البلدة ، وطيد البنيان ، رزين ، مقتصد فى كلامه – صاح فيهم قائلا :

– رأيته ! رأيته . وكان سفينًا كبيراً وضاء الأنوار ، وضاء الأنوار !

لم يكن خريستو عبيطًا مختلاً ، لكنه عندما ذهب إلى الميناء مع الذين صحوا من نومهم وجروا إلى الميناء ، ثم لم ير شيئًا ، حتى شعاعاً واحداً لم ير فى الظلمة الدامسة ، كاد يفقد صوابه .

وعلق أحد الشيوخ قائلا :

لابد أنها عرائس البحر تمر من بعيد . هيا الآن نعود إلى أسرّتنا وننام .

على أن خريستو لم يحرك ساكنًا ، ولم يخفض عينيه عن البحر وعن الظلام . ولو لم يعمد أصدقاءه بكياسة إلى اصطحابه معهم بعد .

قليل ، لظل هناك ، في الظلمة الكبيرة ، حتى الصباح . لقد رأى السفين كان مستعداً أن يقسم على ذلك ، وأن يضع يده في النار لقاء قسمه. في حضور الآخرين اختفى السفين من أمامه . ما عاد يرى شيئًا . لم يكن بقادر على أن يذكر لهم أين رآه ، على وجه التحديد .

في الصباح ، أدرك خريستو أن القرية غيرت رأيها فيه ، وصارت تنظر إليه بنظرات مختلفة عن ذى قبل . فانجيلى خيل له أنه يرى فصعد إلى البرج ، ومضى يدق الجرس ، مقبول هذا ، أما هو فيصعد ، ويدق الجرس بدوره ؟! هذا ما كان لا يطيق خريستو أن يتصوره عن نفسه طويلاً ، إلا أنه قبل أن تمضى عشرة أيام ، أنقذه أفغوستوس ، ورد إليه اعتباره ، فقد صعد بدوره إلى البرج ، ودق الجرس عند منتصف الليل وفي صميم الليل الوعر . استيقظ الجميع من جديد ، ولكن قليلين هرعوا هذه المرة . وركب العناد أفغوستوس فلم يغادر الشاطئ حتى الصباح . لقد رأى السفين ، ولم يكن هذا السفين يمر من بعيد ، كان قادمًا إلى الجزيرة ، متجها إلى مينائها رأساً .

لم يكن في الجزيرة عبيط غير فانجيلى . لم يكن ثمة أشباح أو جنيات . وكان السفين أول شبح يؤرق بال أهل الجزيرة ، ويقلق نومهم . فكروا أن يراقبوا الميناء ، ويطردوا الأرواح الشريرة من شواطئهم . قالوا بأن يلقوا ماء مقدساً في البحر ليقصى شبح ذلك السفين بعيداً ، بعيداً جداً ، إلى بحار أخرى . قالوا ذلك ، ولكنهم تشاوروا في الأمر وترددوا . ما خطب هذا المركب ، وما الذى يجعلهم يرهبونه ؟

- على ظهر سفين ، سفين من سفن أسطولنا ستكون مصابيحه مضاءة كلها ، لو كان الوقت ليلا ، على مثل هذا السفين ، ألن تأتى الحرية ؟

هذا ما قاله القس ، وصدق عليه العمدة . فهدأ روع الجزيرة . وحتى فى الليالى التى كان يدق فيها جرس الكنيسة لم تعد القلوب تضطرب . ولم تكن هذه الليالى بالثقيلة ، على أى حال . فبعد أفغوستوس صعد إلى البرج ثمانية عشر آخرون من شبان القرية وشيوخها لم يكونوا مختلى العقل ، بل على العكس كانوا على غاية من النصاحة . وكانوا قد رأوا السفين رؤية واضحة تماماً ، وكان بإمكانهم أن يخبروك كم عدد مصابيحه المضاءة ، وإلى أين كان اتجاهه .

مرت شهور العبودية ، ومن بعدها مرت سنوات . وبقيت الجزيرة منسية من الجنود الأجانب ، بل ومن سائر البشر . ولم يكف جرس البرج عن الرنين فى ليالى الشتاء والصيف ، فى ليالى الربيع والخريف . كان السفين يظهر لأهل الجزيرة فرادى ، فإذا تجمعوا اختفى من أمامهم فلا يبين ، لكنهم كانوا يعرفون أنه فى يوم من الأيام أو فى ليلة من الليالى سيرونه جميعاً معاً . سيرون السفين ، وكانوا ينتظرون ..

عندما يهبط الليل

بيتروس خاريس

في الظلام لفهما النسيان ، وما عادا يريان الخواء من حولهما . انتظرها عند باب المكتب . تبعته دون تردد . كانت تلك هي الساعة التي تبدأ فيها حياة أخرى في أثينا المكبلة بأغلال الأسر . ينادي في البوق بآخر الأنباء التي لم يتسن للصحف نشرها ولا للمذيعات إعلانها . يستأنف الشباب ، فتية وفتيات ، عملياتهم الخطرة ، ينتشرون في الشوارع الكبيرة والصغيرة كي يخطوا على الحوائط إشارة أو تهديداً ، وكان الجندي الأجنبي أيضا يحمل سلاحه ويجوب الشوارع ذاتها ، متعقباً البشر الذين يضحون أشباحًا ، ويلعبون به كل ليلة ألاعيب لا يصدقها العقل ، ويجعلونه في الصباح يدعك عينيه في دهشة . الناس ظلال هنا ، ظلال هناك ، كلهم مسرعو الخطا . وإذا تبينت اثنين معًا ، رجلاً وامرأة ، أو فتى وفتاة ، فستجدهما يسيران جنبًا إلى جنب ، متلاصقين ، ولن تعرف أيكون هذا حباً أم أنه بسبب الحرب .

قالت الفتاة ، وهي تزداد التصاقًا به :

– خيل لي أن الساعة متأخرة جداً . فات الوقت .

سألها :

- هل تخافين ؟

- في البيت ، لن ينتظروني قبل التاسعة . رتبت الأمر ، لكن ...

وجالت ببصرها في الخواء من حولها . لم يكن الشارع ، حتى بالنهار ، آهلاً بالمارة . كان حيًا هادئا ، لا يزيد ارتفاع بيوته عن ثلاثة طوابق ، النوافذ رحيبة ، والأبواب الخارجية كبيرة تتسع لاثنين يعبرانها معا . توقفت الفتاة كما لو كان قد نال منها التعب ، وراحت تستند إلى الحائط المجاور لها . أدركتها ذراعه بسرعة . أمسك بها ، وجذبها . أصوات جهورية ، ونباح كلاب ، أصوات أجنبية ، وفدت من ناصية الشارع ، وضوء قوى راح يقترب ، ووقع أحذية ضخمة ثقيلة غاضبة تنقض عليهما . كانا على بعد خطوتين من ركن الشارع ، خطوتين حاسمتين ، تقتضيان قراراً قاطعًا . دفعها ، ودخل بها الشارع الآخر . ثم دفعها من جديد ، دفعة أشد ، إلى باب مفتوح . وجدا نفسيهما في فناء صغير مظلم ، وفي أغواره تبينا سلُمًا من ثلاث درجات ، وبابًا آخر ، جريا ، دقا الباب ، ونادا برجاء :

- افتحوا ، بالله نستحلفكم !

ألحت الفتاة في الرجاء ، كان صوتها النسائي أقل إثارة للرعب في الليل ، على الأخص ، في ليل مدينة مكبلة بأغلال الأسر .

انفتح الباب ، بدت امرأة نحيلة طويلة لم يكن بالإمكان أن تجزم توًا عما إذا كانت شابة أم عجوزًا ، دلفا إلى الداخل ، وقفا صامتين ، مبهوري الأنفاس ، كما لو كانا قد أمضيا ساعات في الجرى .. لم يكن

البقاء بالخارج ممكننا . سمعت الأصوات الأجنبية ووقع الأحذية الضخمة الغاضبة تقد من الشارع . مضت قدما مبتعدة ثم ما لبثت أن عادت أدراجها ، اعتزمت الانصراف من حيث أتت ومع ذلك ظلت فى مكانها مسوعة . كان البيت أرضياً ، وترتفع نوافذه عن الرصيف مسافة قامة . أرهفا السمع ، وأنصتا إلى كل ما كان يجرى .

تبادلا النظرات ، ثم تلاقت عيون ثلاثتهم . لم ينبسوا بكلمة . خلع الشاب قبعته ، وخطا خطوة أخرى إلى الداخل . كان عليهم أن يتحاشوا التأخير . خلع معطفه ، وعلقه ، وأخذ معطف الفتاة أيضاً ، وأومأ إليهما أن يجلسا . كان من الضرورى أن يبدوا أصدقاء ، كان يجب أن يصبحوا أصدقاء .

كانت الأصوات الأجنبية لا تزال خارج البيت ، فى الليلة الشتائية ، التى وإن لم تكن قارسة البرد أو عاصفة الريح ، إلا أن أولئك الأغراب جعلوا منها ليلة ضارية ، تحت جنح ظلامها ؛ ظلام الحرب الدامس . وكان مما يزيد ضراوتها ذلك الغضب البادى منهم ، وتلك الأصابع الأربعة أو الخمسة ، كل منها متأهب للضغط على زناد بندقيته . وقد كانوا ينشرون ويفتشون ، يمضون قدماً ، ثم يعودون أدراجهم من جديد فى إثر الكلب الذى كان قد اشتم شيئاً ، فأخذ يغدو ويروح ، يقفز إلى الأمام قفزة وإلى الخلف قفزتين .

قال الشاب متوسلا :

– كوتشينة ، بسرعة ، كوتشينة .

وتصرف كما لو كان البيت بيته . وضع مقاعد حول منضدة كانت في وسط الغرفة. أخلى المنضدة مما عليها ، وأجلس الفتاة قبالته ، وعندما أحضرت الكوتشينة ، شرع يوزع أوراقها حتى قبل أن تستقر ربة البيت في جلستها . لم يكن من الصعب أن يفهموا . كان من المفترض أنهم بدأوا اللعب منذ وقت طويل . أن يكون للبعض مكاسبه وللبعض الآخر خسائره ، أن يكونوا منكبين على أوراقهم ، فلا يسمعون شيئًا ، ولا حتى الصياح والتهديد الذى يملأ ظلام الشارع . فإذا دفعت الأحذية الثقيلة الغاضبة الباب الخارجي ، ومن بعده الباب الداخلي ، وانقضت على البيت فى هجمة استطلاعية ، فقد لا يثور الشك وتعود من حيث أتت ، إذا لم تجد سوى جلسة ودية مقضاة فى لعب الورق .

مضوا يلعبون ، ولا يتفوهون بكلمة ، يلقون أوراقًا متبعين نظام لعبة يعرفها الثلاثة ، ويجهلها الثلاثة ، ولم يرتكب أحدهم خطأ واحداً ، أو يأتى هنة واحدة ، كما لو كانوا يرجون نفعًا كبيرًا من لعبهم . ومع ذلك ، فقد كان لازال خطر انفضاح سرهم قائمًا . بماذا يلعبون ؟ أين النقود ؟ أين الفيشات ؟ لم يكن بالبيت سوى هذه الكوتشينة ، ولم تكن من الصنف الذى يلعب به القمار ، كانت من الصنف المزوق القديم ، استهلكت وعلا أوراقها الاصفرار . ولا شيء غير ذلك .

طلب الشاب :

– قليل من حبات الفاصوليا ، أو اللوبيا ، أو أى شيء عندكم .

جلبت سيدة البيت طبقًا ضحلا به حبات من الفول الجاف ، وبدأوا اللعب من جديد . اقتسموا حبات الفول . وضع كل منهم ثلاث أو أربع

حبات وسط المنضدة . صار الجو أكثر أمانًا ، لكن اللعب لم يدم طويلاً . هدأ الشارع ، وسمعت الأصوات بعد قليل من بعيد . ومضى الليل فى طريقه قدمًا بخطا صامتة . كانوا قد نجوا .

نهض الشاب من مقعده . كان عليه أن يقدم إيضاحًا :

– يورغوس رئيسيس طالب بكلية الطب .

وهمَّ أن يعرفها بالفتاة . لكن حنكة سيدة البيت التى صارت بادية الآن بجلاء أكبر فى تجاعيد وجهها ، منعته من ذلك .

خل عنك . إنى أفهم . تعطلت عن الأوبة إلى بيتها .

– ربما لا تفهمين ، ربما لا تتصورين ، ما الذى حدث لنا على وجه الدقة .

كان الثلاثة قد هدأوا الآن . وكانوا أشبه بممثلين فرغوا من أداء مشهد صامت صعب .

أردف الشاب يقول :

– نزهة يسيرة ، كدنا ندفع ثمنها غاليًا جدًا . كان التعب قد نال من هيليني ، فهمَّت أن تستند إلى الحائط عند ناصية الشارع ، ظنوا أننا من أولئك الذين نكتب على الجدران ، فطاردونا . من حسن الحظ أنهم لم يطلقوا النار علينا توًا .

نظرت الفتاة إلى ساعتها :

– العاشرة إلا ربعًا . بإمكاننا أن نعود إلى البيت قبل حلول ميعاد حظر التجول . ينتهي التجول في الحادية عشرة . لازال أمامهما وقت . ولكن من كان متأكداً أن الخروج آمن ، ومن الذى يمكن أن يقول إن الكلب الذى اشتم شيئًا لا يحوم حول البيت منتظراً ؟

كان الشاب قد استرد هدوءه تمامًا ، وتذكر أن عليه أن يبدو سيداً ، قال :

– فلنشكر السيدة أولاً ، وبعد ذلك سوف نرى .

وقالت هيلينى :

– حقا سامحينا . دخلنا بيتك على نحو جد مفاجئ ، مثل لصوص ، مثل قتلة مطاردين .

– اجلسا من فضلكما ، سأحضر لكما كوبًا من الماء ، كى تستردا أنفاسكما ... ألقيت هيلينى بنفسها على أريكة لم يكن يبدو عليها قوة الاحتمال . ظل يورغوس واقفًا . جاس فى أرجاء المكان بخطوات صغيرة ، ملقيًا نظرات سريعة فى كل الأنحاء ، محاولا أن يتبين أى بيت هذا الذى وجدا فيه ملاذاً . رأى غرفتين يتألف منهما البيت فضلا عن المطبخ . غرفة الجلوس ، حيث أديا منذ هنيهة مشهدهم التمثيلى ، وإلى جوارها غرفة للنوم ، لم يكن يبدو منها الكثير بسبب بابها الموارب . لم يكن المكان ينم عن فقر ولا عن ثراء . أثاث قديم ، منهك ، ربما كان منذ عدة سنوات مضت جهاز صبية على أهبة الزواج ، تُعِدُّ ماسوف يكون أثاث بيتها المرتقب ، وتنتظر عريسًا لم يأت ، وسعادة لم تتحقق . منضدة ، وبضعة كراس ، ومقعد كبير وأريكة صغيرة . وصورتان على

الحائطين المواجهين يبين منهما على وجه التحديد العهد الذى يرجع إليه البيت وينتمى له أهله . كانتا صورتين للأب والأم فى ذروة حياتهما . رجل مسن ذو ياقة منشاة وشارب ضخم ، وسيدة ذات شعر أبيض غارقة فى ثوب مرتفع العنق . شخصان من جيل الحرب البلقانية ، تسود السكينة وجهيهما ، وتبدو الثقة فى نظراتهما ، وتغلف هيئتيهما تلك البساطة التى يبعثها فى النفس دوام الثراء واطراد النعمة .

لم يتسن ليورغوس أن يرى أكثر من ذلك ، لكنه لمح توًا البساطة ذاتها فى حركات سيدة البيت وخطواتها ، وقد عادت تحمل بين يديها صينية ، وقدمت لهما لوزًا ومستكة وماء .

هرع يورغوس لمساعدتها قائلاً :

– ضعيها هنا ، من فضلك .

وأخلى لها جانبًا من المنضدة التى كانت لاتزال مغطاة بورق اللعب .

اقتربت هيلينى بدورها . أكلا لوزًا ومستكة وشربا ماء ، لكنهما لم يجدا من الوقت فسحة ليعبرا عن امتنانهما . عادت الأصوات إلى الشارع ، وعادت الأحذية الثقيلة ، ومن جديد عاد النباح . فى هذه المرة ، زاد عدد الأحذية الثقيلة ، وزاد غضبها اشتدادًا ، كما سمعت أصوات أناس يجرون ، ثم ثلاث أو أربع طلقات رصاص .

تبادل ثلاثتهم نظرات خائفة . خطا الشاب نحو النافذة ، ومد يده ليزيح الستار . منعته سيدة البيت قائلة :

– بالله ، لا تفعل ذلك !

ظلوا واقفين متسمرين فى أماكنهم ، وكلهم آذان صاغية . ترى ما الذى حدث ؟ من الذين يطاردون ؟ خلا الشارع من الأصوات مرة أخرى . لكن ما من أحد أطل من بابه أو من نافذته يسأل ويستوضح ، كما لو لم يكن قد حدث شىء ، كما لو لم يكونوا قد سمعوا شيئًا ، ولا حتى صرخة أطلقت .

عندما انقضت موجة الرعب هذه بدورها ، نظرت الفتاة إلى ساعتها ، وسألت بعينين واسعتين ملؤهما الهلع .

– والآن ؟ ...

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعًا .

– كيف سأعود إلى البيت ؟ كيف .. آه يا إلهى ، أمى ستجن ..

فقدت هدوءها ، راحت تجول فى خطوات مضطربة ، تمضى إلى باب الخروج ، تقف ، تتنحى عنه . مدت يدها إلى ذراع يورغوس ، نظرت إلى ساعته ، زادت يأسًا :

– إلا عشرًا !

لم ينبس الشاب ببنت شفة . بعد قليل اتخذ قراره ، كى يضع حدًا لقلق هيليني ، سأل :

– ألا يوجد تليفون قريبًا من هنا ، بالطابق العلوى ، أو ببيت مجاور ؟

زادت الإجابة من حالة اليأس ، ولكنها عجلت من القرار . صوب الشاب نظراته إلى عينى سيدة البيت ، كان يستعطفها دون أن يقول

كلمة ، دون إصرار ، راح يتطلع إليها وينتظر . أما هيليني فكانت على وشك الانهيار . لملمت ما كانت قد تركته من حاجياتها على المقعد ، وصاحت :

– سأدرك الميعاد !

أمسكت بها سيدة البيت :

– لم يعد بإمكانك الانصراف . اجلسي . اهدئي . ستقضيان الليلة هنا .

بسطت ذراعها على كتف الفتاة ، وربتت عليها كما لو كانت أمًّا ، أو أختًا أكبر . ودون أن يكون صوتها صوت امرأة عجوز ، أفعم بنبرة نصح وحنان .

تابع الشاب الحديث ، لم يكن يعرف ماذا يقول . لم يكن يجرؤ . كان قد استبقاها طويلاً في نزهة هذه الأمسية ، فأحس شعوراً بالذنب يعذبه .

وفد صوت مصدراً حكماً نهائيًا . ساعة حائط بالدور العلوى تدق معلنة الوقت ، دقة بعد دقة ، بوضوح ، وحزم . الحادية عشرة . أغلقت الأبواب كلها ، عاد الجميع إلى بيوتهم . وخلت المدينة ، شوارعها ، ميادينها ، محالها ، محطاتها ، كلها أضحت من الناس خالية .

احتاج الأمر أن يفوت وقت طويل كي تدرك هيليني أنها حبيسة البيت المجهول . كان عليها أن تصبر صبراً كثيراً طوال ساعات قليلة ، عندما يأتى الصباح ، فى السادسة ، سوف يفتح الباب ، سوف تجرى إلى بيتها ، وتلقى بنفسها بين أحضان أمها ، لن يوجه إليها أحد أدنى لائمة ، سوف يسرون لعودتها إلى جوارهم . ولن تخبرهم بسائر الأمور

الأخرى إلا بعد أن تبعدها الأم عن حضنها ، وتكفكف الدموع . ولكن ترى هل ستحتمل الأم غيابها حتى الصباح ؟ لابد أن النواح قد بدأ فى بيتها منذ التاسعة ، أو التاسعة والنصف ، أو العاشرة . فكيف ستطول المعاناة حتى السادسة صباحًا ؟ .. هل سيحتمل القلب العجوز ؟ ستقضى الأم ساعات تذرف دموعها وتطلق آهات ، ستمضى الليلة كلها فى نحيب ونواح .

– تعالى ، الآن ، لتصلحى من هندامك .

واصطحبتها إلى الغرفة المجاورة .

راح بورغوس يجوب غرفة الجلوس الصغيرة . كان يرى خطاه ، ويفكر فى أهل بيته أيضًا ، لكن عقله كان يعود إلى مسئوليته عن هيلينى ، فلم يكن يسمع تنهدات أمه هو ، وبعد قليل صفا ذهنه . فى النهاية ، آخرون يلقون متاعب أسوأ بكثير فى هذه الآونة ، بل وآخرون يفقدون حياتهم أيضا . إنها ليلة واحدة وستنقضى .

أجل ، ستنقضى . ولكن كيف ستنقضى . ؟ بالبيت غرفتان ، وهم ثلاثة . وليس هناك سوى سرير واحد . ومن ثم ، مع من سيقضى الليلة؟ سيدة البيت . هل هى متزوجة ، أرملة ، مطلقة ، آنسة ؟ حاول أن يستنتج حالتها . كانت فارعة الطول نحيلة . بشعر رأسها خصلات سوداء قليلة ، وتكسو وجهها تجاعيد كثيرة . فى لحظات المعاناة حدق فى عينيها . أجل ، أجل ، هاتان العينان ، زرقاوان ، متعبتان ، مثقلتان . ربما كانت هاتان العينان جميلتين فى وقت من الأوقات . لكن أنفها كان الآن ، ومنذ عشر سنوات أو عشرين سنة . أو خمسين سنة ، أنفها كان ضخمًا ، وكان فمها أيضًا واسعًا دون شفتين تقريبًا . يحد الفم خطان

باهتا الحمرة ، وما كان بالإمكان اعتباره ثغراً نسائيًا دافئًا . جمع كل هذه التفاصيل ، وألف بينهما سريعًا . وضعها أمامه ، كما يلتقط المصور الخطوط الأولى لبورتريه ، وانتابه الخوف . ترى ، هل تعلم ما خطر بباله ؟ لم يجرؤ أن ينطق بالكلمة ، لم يكن بقادر على أن يقصى عنه فكره . أواه ، يا إلهى ! أين قدر لهما أن وجدا ! وكيف سيقضيان ليلتهما هناك ، فى صحبتها ، بالقرب من هذه المرأة .

عادت هيلينى وحدها ، كانت أكثر هدوءا ، وبدا فى عينيها أن لديها ما تريد أن تكشف عن سره . عاجلها يورغورس قائلا :

– فهمت .

– ماذا فهمت ؟

– إنها عانس .

– أجل ، مسكينة . لكن كيف عرفت ذلك ؟

ظلت عانسًا ، تعيش على معاشها من والدها ، ولا تخطو خطوة خارج البيت . ولابد أنها كابدت شدة الحرمان كثيراً ، كى تقرر إيواء رجل ليلة بأكملها تحت سقف بيتها . ولكن كانت هناك الفتاة ، مما كان يجعل القرار أشد صعوبة . كيف ستقضى الفتاة ليلتها ؟ معها ؟ أم معه ؟ فى غرفة نومها أم فى غرفة الجلوس ؟ ولكن كيف يمكن أيضًا أن يمضى عاشقان شابان فى غرفة جلوسها الليلة بطولها ، الليلة بساعاتها كلها ؟

عندما ظهرت عند الباب محملة ، كانت مستغرقة فى التفكير . عاونتها هيلينى فى بسط غطاء المنضدة ، وفى وضع صحاف وملاعق لثلاثة أشخاص ، ليتناولوا عشاء خفيفًا .

قالت متحرجة :

– هذا هو الموجود .

قليل من العيش . وصحنان من البقول ، وسمكة مقددة . ولا شيء غير ذلك . اقتسموا الطعام ، اقتسموا أيضًا الصمت الذى خيم عليهم ، الصمت الذى تجلبه الأفكار الدائرة بخلدهم ذاتها ، والشكوك ذاتها أيضًا .

فرغوا من العشاء سريعًا . ونهضوا من المائدة .

لم يكن يورغوس بقادر على أن يواصل الصمت . أراد أن يقول شيئًا :

– ضايقناك كثيراً .

أجابت سيدة البيت بصوت جاف :

– أوه ، لا شيء . بشر نحن ...

ثم عاود يورغوس السؤال بعد قليل بلهجة تتضح بالاحترام ، بالاحترام الذى نظهره لمن هم أكبر منا ، للمسنين :

هل أستطيع أن أدخن ؟

جرحها هذا السؤال فى أعماقها . نظرت إلى عينيه طويلاً ، بصرامة قد تكون انعكاسات لألم غير محتمل . أفصحت له عن فهمها أنه يتحدث الآن إلى عانس .

قالت له بصوت خافت :

– تستطيع ...

منذ تلك اللحظة أضحت الليلة أشد صعوبة . البيت اقتسموه كما ارتأت صاحبته . قالت لهما تحية المساء ودخلت غرفة نومها . أغلقت الباب . لكنها لم توصده . أدركت أنه ليس بإمكانها أن تفرق بينهما ، فتركتهما في غرفة الجلوس ، بإيماءة ذات مغزى حصيف . وضعت وسادة وغطاء على الأريكة ، ووضعت وسادة أخرى وغطاء آخر على المقعد الكبير . لم يكن في متناولها أن تفعل غير ذلك .

وبدأت في غرفة الجلوس الصغيرة الساعات التي بدلاً من أن يسودها الصمت ، أضحت أغنية حب ، بدأ الليل الآخر الذي نسي العبودية ، ومعاناة البيتين اللذين ينوح أهلهما الآن ، والمرأة التي لم تعرف الحب ولكنها تسمعه على مقربة منها ، يهمس ، ويتنهد ولا يعمل حساباً للخطر والرعب والموت .

رأى الشابان الوسادتين والغطائين ، ولكن لم يكن بإمكانهما أن يحترما الإيماءة الحصيفة . رقدا على الأريكة وبقيا متلاصقين . بعد ساعة ونصف فحسب ، سألت هيليني :

– هل تعتقد أنها تسمعنا ؟

وحاولت هيليني أن تصيخ السمع في السكون لكل جلبة ، ولكل حركة . حاولت كثيراً أن تسمع شيئاً .. ثم همست تقول من جديد :

– ربما سمعتنا .

وافقها يورغوس قائلاً :

– ربما ...

لكنه لم يرخ ذراعيه عن هيليني ، لم يتركها تخرج من حضنه .

بعد قليل ، عادت هيليني تقلق :

– ليس هذا لائقًا .

همس يورغوس بدوره قائلاً :

– ليس لائقًا .

ولكنهما لم يحركا ساكنا . لم يبديا ندمًا . بقيا هناك ، بقيا معًا ، حتى سمعت من الطابق العلوى ، الساعة تدق ست دقات . وعلى مقربة منهما ، امرأة تسمع أغنية حبهما ، ويستعر جسدها . تسمع ، وتدفن رأسها تحت الأغطية تسمع ولا تريد للأغنية أن تنتهى ، تسمع وربما كانت تبكى ...

فى الخارج ، أخذ النهار يشرق . ولكن احتياطات الإظلام المفروضة لم تكن تترك الضوء يدخل .

نهضا . رتبا الأريكة ، أحدثا فى غطاء المقعد ما يوحى باستعمالهما . شرعا يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتجولان فى أرجاء الغرفة .

لم تتأخر سيدة البيت عن الظهور . وجدتهما يتعجلان الانصراف لم تشأ أن تعوقهما خجلت أن ترفع نظراتها إلى عيونهما ، رجتهما فحسب ألا ينصرفا معا .

– اغسلا وجهيكما ، ثم فليخرج أحدكما وحده أولاً ثم ليليه الآخر بعد قليل . لا تعرفان ما إذا كان ثمة من يراقب المكان في الخارج .

لم تكن تقول الصدق . يعرف الجيران أنها تمضى لياليها وحيدة ، ولذلك ما كانت تريدهم أن يروا الشابين يخرجان معًا من عندها .

انصرف يورغوس أولاً . شكر سيدة البيت بحرارة ، لكنه لم يستطيع بدوره أن ينظر طويلاً إلى عينيها .

قال لهيليني :

– سأنتظرك عند أول محطة .

وعندما انصرفت هيليني بدورها بعد قليل ، عانقت سيدة البيت ، وقبلتها ، قائلة دون أن تتبين الجرح الذى تشقه :

– لن أنسى أبداً هذه الغرفة ، ولا هذه الليلة ...

فى الخارج ، بدأ النهار بهدوء ونظام ، مثل كل أيام العبودية ، التى لم تكن تبين شيئًا من كل ما كان يحدث بالليل ، تحت جنح الظلام ، من مطاردات وحشية للبشر . وعندما وصلت هيليني إلى يورغوس كان يمر أول ترام صباحى . بقفزة واحدة ركباه ، وجدا نفسيهما على الأرض ، فى الدنيا .

قال لها يورغورس :

– يالهول ما جرى لنا !

وانفجر فى الضحك .

قالت هيليني بدورها :

– صدقت ، يا لهول ما جرى لنا !

ولكنها بدت حزينة ، حزينة جداً .

وبعد هنيهة ، همهمت بحزن أشد :

– لم تخبرنا حتى عن اسمها ..

رسالة من غريق

فاسيلى روتاس

نزل الإله إلى الأرض ، إله البحر ، هيج البحر ، وبث الرعب فى البلاد ليل نهار . انفكت الريح من عقالها ، مضت تطارد السفن والناس والدواب . تقتلع الشجر ، وتتوغل داخل البيوت مزمجرة . ثم أخذت سحب الشمال السوداء تتبدد . ولم تعد الأمواج تلاطم وتولول ، إلا عندما يبسط الليل جناحيه مثل طائر النورس .

وقد وجد أول الناس الذين خرجوا إلى الشاطئ فى الفجر، الغريق ملقى بين الأغصان والطحالب . كانت الأمواج قد تقيأته ، ولازالت تتجشأ وتلفظ رغوة بيضاء . كان الغريب يرقد غائباً عن الوعى يحتضن النفايات من تحته ، وقد تحلل جسده وتشوه من فرط ما لقيه من أهوال .

إن غريقًا على الشاطئ عند قرية صغيرة يثير بين الناس اضطراباً كبيراً ، فسرعان ما يعلم الجميع بالنبأ ، فيلتفون حول الجثة يحدوهم الفضول ، ويخيم عليهم الحزن وإحساس بالمشاركة فى المصاب . كان الغريق رجلاً فى منتصف العمر ، لكن أمواج البحر كانت قد تقاذفته طويلاً ، وألقت به خارجًا بعد أن أفسدت هيئته ، فلم يعد من السهل تبين

شخصيته ، وشطح خيال القرويين بعيداً للتعرف على شكل الغريق وعمره وعلاقاته الاجتماعية .

ولما كان الحزن معشَشًا فى القلوب ، كلٌ أصابه دمار أو جوع بسبب الحرب التى لم تترك بيتًا لم تشعل النار فى أعماقه ، بل مضت تهدد بكوارث أفظع ، فقد رأت عيون الحاضرين من خلال خيالاتها السوداء الجثة المجهولة التى استقرت عليها الأنظار ، رأتها بين الطحالب منتفخة مفككة الأوصال ، لا تحكُّم لها على حركاتها مثل سكير عربيد بلا حياء ، رأتها كما لو كانت تلعن الحياة ، وتصب أيضاً غضبها على السماء ناصعة الزرقة التى احتضنتها شمس أبريل الوضاءة تطليها بالذهب البراق ، رأتها تسب البحر الذى تهادى على الشاطئ متهالكًا مغشياً عليه ، والنسمات النازلة من القمم الصخرية والسفوح الخضراء معطرة بأريج الزعتر والبنفسج البرى ، وتسب أيضاً الطيور المغردة فى الفضاء الرائق ، والناس الذين يتفرسون فيه بوجوههم المنكبة عليه وعيونهم القلقة الخائفة من حوله .

وفى النهاية جاء الحارس . أفسح له الجميع الطريق ، فمضى متقدماً . تفحُّص الجثة بنظرات حذرة أول الأمر ، من الرأس المنكفئة إلى الساقين الرخوتين . ثم أمر أن يقلبوها على جانبها الآخر ، فبدت سترة الغريق تشبه رداءً عسكرياً .

قال الحارس : « كان جندياً ، إذن » .

تنهد الرجال ، أما النسوة الواقفات من خلفهم فقد ندت منهن زفرات حارة .

أصدر الحارس أمره من جديد : « فتشوا جيوبه » .

شرع القرويان اللذان جرؤا على أن يمدا أيديهما إلى الغريق ، يفكان أزراره ويدسان أيديهما فى جيوبه ، ويخرجان منها أشياء يناولانها للحارس .

قال أحدهما ، وهو يفك ساعة من معصم الغريق : «ها هى ساعته».

عاودت النسوة النحيب ، لكن الرجال والصبيان ضحكوا لأن ذلك الذى فك الساعة – قبل أن يدسها فى يد الحارس الممدودة – وضعها على أذنه ليرى ما إذا كانت لاتزال تعمل .

سأل أحد القرويين محب للمزاح : «كم الوقت حتى نضبط ساعاتنا ؟».

ولقيت مزحته فى النفوس صدى ، فضج الحاضرون بالضحك . لكن الكآبة ما لبثت أن عادت تسيطر خانقة الضحك فى الحلوق ، كما خنق البحر الرجل المسجى على الأرض وخلَّفه غير قادر على أن يمنع أيدى القرويين الخشنة من أن تمتد إلى جيوبه .

وسرعان ما امتلأت راحتا الحارس بالأشياء ، الساعة ، ثم مطواة ، ومنديل ، وورقة مطوية ، وقلم ، ومشط ، وحافظة منتفخة مثل صاحبها ، تهرأت ثنياتها ، ولاحت منها ما بداخلها من أوراق ونقود ، وأخيراً لفافة من الخطابات .

وضع الحارس هذه الأشياء فى جعبة فارغة معلقة إلى جنبه ، واستبقى الأوراق وحدها حتى يفحصها ، بحثاً عن بطاقة الغريق . ثم قلَّب الخطابات المبتلة وقرأ فيها بصوت عال : «عزيزتى هيلينيتسا»

عاد صاحب النكات يقول صائحاً : «خطاب إلى حبيبته !»

وضحك الصبيان .

فض الحارس رسالة أخرى ، قرأ من جديد : «عزيزتى هيلينيتسا ..»

ثم انتقل إلى رسالة ثالثة ورابعة فكانت كلها تبدأ : «بعزيزتى هيلينيتسا ..»

ابتدره البعض قائلاً : «اقرأ ما هو مكتوب بعد ذلك ...»

أمسك الحارس بالخطاب الأخير ليقرأه ، وقد استبد الفضول به كما استبد بالجميع . كان كل من الحاضرين رسم لنفسه فى خضم هذا الغموض المحوط باسم هيلينيتسا ، صورة مختلفة لها . تصورها البعض عشيقة ، وتصورها البعض زوجة شرعية ، تصورها البعض ضخمة بدينة وتصورها البعض صغيرة نحيلة . كل منهم تصورها من خلال مزاجه الخاص وتجربته الخاصة .

قرأ الحارس حتى آخر كلمة وبصوت عال الخطاب التالى :

« عزيزتى هيلينيتسا ، كتبت إليك خطابات عديدة ، يابنيتى ، كل يوم أكتب إليك دون أن أرسل شيئا مما كتبت . لم يتسن لى ذلك وقد فقدت كل أمل فى إرسالها إليك الآن ، لأننى وقعت فى الأسر . ولكن هأنذا أعاود الكتابة إليك رغم ذلك ، وعلى آخر ورقة معى ، فربما وجدت فرصة ما . وضعونا الآن على سفينة ستحملنا إلى بلادهم . هكذا يقول كثيرون ، لكن ما من أحد يعرف إلى أين نبحر على وجه اليقين . تأتى الطائرات تباعًا . تحلق فوقنا ، وتمطرنا وابلا من قذائفها . قلوبنا

مضطربة على الدوام ، فبين لحظة وأخرى سيبتلعنا اليم ونغرق ، إننا نرى اليابسة تبتعد رويداً رويداً وتختفى من أمام عيوننا . ابنتى هيلينيتسا فكرى معك ، وقد تركت فى البيت وحدك ، ترعين كأم إخوتك ولازلت صغيرة . منذ اليوم الذى تلقيت خطابك المرير الذى أبلغتنى فيه وفاة أمك ، أصبحت أفكر فيك ليل نهار وأبكى . كنا قد عدنا تواً من المعركة ، وكنت لا أزال حيًا ، ولم يمسنى سوء . كنت آكل لقمتى راضيًا عندما جاء ، يا ابنتى ، خطابك ينعى إلىّ النبأ الأسود الذى جرحنى ، وأدمى فؤادى . فضلت أن يكون الموت قد اختطفنى أنا – مثلما اختطف الكثيرين من رفاقنا وأبناء بلدتنا – بدلاً من أن يختطف أمك . تمنيت أن يكون الموت من نصيبى أنا ، فقد كانت لازمة لك ولإخوتك الذين لازالوا صغاراً . لعمرى كيف سيعيشون من بعدها . كتبت لى ، يا ابنتى ، أن أشد عزمى فانفطر قلبى ، لأنك تطلبين منى – أنت الفتاة الصغيرة العزلاء – أن أتشجع وأتعزى . أى بنيتى ، ارعى إخوتك ، وكونى لهم أمًا رءوماً . لا تمدى يدك مستجدية إلى أحد على حدة ، بل اطلبى العون من القرية جماعة . لا تثقى يا بنيتى بالقسيس ولا بالعمدة ، ولا تركنى إلى أحد منهما منفرداً طالبة النجدة ، بل عليك أن تقفى يا ابنتى وسط الجميع فى الكنيسة واصرخى بألمك .. اجمعى إخوتك الصغار كلهم من حولك ، وصيحوا جميعًا قائلين : يا أهل البلد ، ماتت أمنا ، أبونا حمل سلاحه ومضى إلى ساحة القتال . نحن خمسة من الأيتام . على القرية أن ترعانا ، فنحن منها ، وها نحن بينكم . لا أجد فى غمرة يأسى سواك يا بنيتى ، يا من أثبت أنك ناضجة العقل رحيمة القلب ، أنت الدعامة الوحيدة التى أسند إليها فؤادى ، أنت النور الوحيد فى الظلمة التى تحيط بى. حاربى يا ابنتى وكافحى من أجل إخوتك . فكرى فيهم ،

ولا تفكرى فى نفسك . لا تتركى المسرات والأفراح تستهويك ، فتنتزعك من مسئولياتك ، ولا تشتهى أن تتجملى وتتزينى فتعرضين عن إخوتك الذين أصبحت حياتهم بين يديك . وقع على عاتقك عبء ثقيل ، يا عصفورتى ، يا هيلينيتسا العزيزة . على كاهلك الرقيق مسئوليات الأم والأب معا . قدّرى هذه المسئوليات ، يا مسكينتى ، واشعرى بها . اصمدى ، وسددى هذا الدين بيقين وعزم حتى نلتقى على خير . لا أريد أن أعود ، يا بنيتى ، فأجدكم مشتتين ، يجللكم العار والخجل ! أما أنا فحيث أوجد هنا ليس لى من أمل يشد عزمى على الجهاد سواكم . كل نبض فىَّ وكل نفس لى يستمد قوته منك ، يا عصفورتى العزلاء ، يا من ستكافحين وتعانين وسط هذه الكوارث ، من أجل الخير والفلاح . وعندما سيلتئم شملنا فرحين ... »

هنا توقفت القراءة ، لأن الكلام لم يكن له بقية . رفع الحارس بصره إلى الواقفين ، فكانوا يبكون جميعًا . تعالى النشيج من حلوق النساء . أما الرجال فنكسوا الرءوس كما لو كانوا يخفون خجلهم ، حتى الأطفال وقفوا واجمين .

صاح أحد الحاضرين : « هذا الغريق منا ، هيلينيتسا هذه وإخوتها أولادنا . يجب أن نتولى نحن رعايتهم » .

صدّق الجميع على كلامه صائحين : « أجل ، أجل ، علينا أن نبحث عنهم ونجدهم ! »

وبدأت مناقشات ومداولات بين كل أولئك الذين تجمعوا حول الغريق . علا صوت الجميع ، وأدلى كل برأى . كيف سيعثرون على قرية الغريق

وبيته ، كيف سيبعثون بأناس مخصوصين وعلى نفقة بلدتهم ، يشدون الترحال ، ويجوبون اليونان كلها إذا اقتضى الأمر ذلك ، ليجدوا تلك المدعوة هيلينيتسا ، ليمدوا لها يد العون .

وأضاف آخر : « نأخذ هؤلاء الأولاد ونحضرهم إلى بلدتنا هنا ونتبناهم » .

وصاح آخر : « هذه الخطابات نحافظ عليها جيداً ، لنحملها كلها إلى الفتاة » .

وقال آخر : « ننشرها فى الصحف ليقرأها كل الناس ... »

وهكذا بانفعال وتأثر وحماس عام لتنفيذ وصايا الرجل الغريق ، أمضى أهل القرية يومهم ذاك ، لكن لم يعرف ماذا فعلوا ، كيف انتهت هذه الحكاية ، ما إذا كانت هذه القرية قد وضعت موضع التنفيذ اندفاعها الأول الذى أثارته فيها رسالة الغريق ، أم أن جثمانه وخطاباته اختطت طريقها الطبيعى ، هو إلى جانب قصى من الجبانة ، وهى فى أحد الأركان المنزوية بدولاب فى مكتب التحقيق . كثيرة هى انشغالات الحياة ولهفاتها حتى إنه لا يكاد تلوح موجة حتى تلحق بها ثانية وثالثة ، وتغمر كل منها الأخرى ، ويكون الشىء الوحيد الذى يبقى مستبداً بالحواس هو الرهبة من هدير الأعماق .

امرأة على الهامش

صوفيا مافرويذى باباذاكى

فوجئت بثوبها الأبيض وعينيها الفرحتين . كانت قد فقدت أخويها وأباها . هدم الموت بيتها ولكنها كانت تعرف كيف تبتسم هذه الابتسامة الوضيئة !

جسم رشيق ، شعر أسود مبسوط ، عينان تسبحان فى النور . لم يكن جمالها متفرداً لكرم وجهها ، كان روحاً كله . طلبتُ أن أتعرف بها . كنت أريد أن أرى كيف تبدو فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها فقدت كل شىء ولم تثبط همتها . كنت أخشى على الدوام أولئك الذين يعطون المعركة شهداءً من ذويهم . يهب المرء حياته عن طيب خاطر . فليس الموت - إذا عرف الشهيد لماذا يموت - سوى غيبوبة يروح فيها كما لو كان شرب خمراً وسكر . لكن ماذا يكون الأمر إذا اقتضى أن تفقد أولئك الذين تحب ، الأب ، الزوج ، الأخ ، الابن ؟ أليس مخيفًا أن تدفع الثمن كاملاً، وأن تضطر إلى أن تفكر فى أنه يجب أن تنقذ ما بقى لك ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما العمل مادام الكفاح والموت يمضيان متشابكى الأيدى ؟

لكن إيلى التى تشع شباباً وحيوية وهى تجلس أمامى ، قد أعطت كل شىء ، ولازالت تومض فى نظرتها اللهفة إلى العطاء .

سألتها :

– كيف حال والدتك ، الآن ؟

– يرى الأطباء أنها إذا اتبعت العلاج اللازم ، يمكن أن تنجو .

– وأحوالكما المالية ؟ لديكم نقود ؟ ثمة أصدقاء يساعدونكما ؟

– كان والدى ، كما تعرفين ، مديراً لبنك ، وترك لنا معاشاً صغيراً . لكنه لا يكفينا . أما عن الأصدقاء فكان لنا منهم الكثيرون . كانوا يدعون أبى وأمى لقضاء السهرة ولعب الورق ، وكانوا يزوروننا . ولكن كان كل هذا قبل حركة المقاومة . أما الآن فهم ينكروننا ويتجاهلون حتى إنهم يعرفوننا . يخشون أن يتعرضوا للمتاعب ، لم يأتوا حتى إلى الجنازة. نحن ، كما ترين ، مشاغبون . ارتكبنا الجرم الكبير بانحيازنا إلى الشعب . تقول أمى : « لا يهم ذلك . ليس بيننا وبين هؤلاء الناس أوجه شبه تربطنا» وهذا أفضل حقا . تصورى كم كان سيصبح الأمر رهيبا وثقيلا علىّ أن أقابل فى تلك الأيام أناسا من محبى السهرات والحفلات .

كنت أتوق إلى أن أعرف عن « تلك الأيام » على أننى تحرجت السؤال . لم أكن أريد أن أعكر صفو تلك النظرة الوضيئة . لكن الذكريات ما لبثت أن بدأت ترفرف حولنا ، مشعلة فى وجه الفتاة قناديل مثل ورود حمراء ، وانفجرت الشفتان وباحت بالذكريات .

كانت تتكلم ببساطة ، وخلا صوتها من نبرة المأساة. كما لو كانت تروى قصة قرأتها فى مكان ما . ولكن عندما حانت اللحظة التى تصور لى فيها أخويها ، تذبذب صوتها بنغمات عذبة .

"كان فانيس فتانا الأكبر رزينًا قليل الكلام . يفكر فى الكثير ولا ينبس بكلمة . انخرط مبكرا فى الجهاد من أجل الحرية . لكننا لم نعرف قط الدرب الذى اختطه لنفسه . كان يدخل البيت على عجل . يأكل لقمة ، وينصرف من حيث أتى . هادئا صامتا . ومع ذلك كنت تلمحين وراء النظرة الساكنة الشرارة القلقة التى كانت تعتمل فى الأعماق . كان يسدل على وجهه ستار الصمت ليخفى عن أخته وأمه ما كانت تعده كل ليلة طبيعته المتقدة . كلمات سر ، نشرات مخابئ ، هجمات . أسلحة . كل هذا كنت تقرئينه في وجهه الهادئ ، إذا كنت قد تعلمت قراءته طوال أربع سنوات . أما بافلوس فكان من نوع آخر تماما . كان يتكلم عن كل شىء لم يكن بقادر على أن يكتم شيئًا كان وجهة الأشقر يتأجج احمرارًا فتشعرين أنه يحيا مقدمًا اللحظات التى كان يخطط لها : " الليلة سأتكلم بالألمانية فى مكبر الصوت . من عشرة أمتار خارج المعسكر هنا وبلدكما يتردى فى النيران ؟"

كان الشحوب يعلو وجه أمنا ، دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة . على أنها تهرول بعد قليل فى أعقابه . وعندما كان يتكلم فى المكبر كانت تقف هناك بالقرب منه عند مفرق الطريق . لايفصلها عن المعسكر سوى عشرين مترا . كانت تقف هناك عزلاء بكماء تحرس المكان ، ولم تكن تغادره إلا إذا رأت بافلوس يقذف المعسكر بالمتفجرات ويختفى وقد

اندثر المكبر . وتتسلل فى الأزقـة الضيقة المجاورة راجعة إلى البيت حيث تنتظر عودة ابنها .

" ألم تحاول أن تمنعهما قط"

"كلا . كانت تعرف أنه لم يكن ثمة جدوى من ذلك . مرة واحدة فحسب قالت : لاتنسيا أن أباكما قد أعدم برصاص الألمان .

لكن فانيس قاطعها قائلا : ومن أجل ذلك ، يا أمنا العزيزة نحل نحن محله في الجهاد . منذ ذلك الوقت ، لم تكلمهما في الأمر من جديد ، إلا أنها صارت كلها آذانا صاغية ، لتسمع كلمة ، أو تلميحا ، تحدس منه برنامج الليلة ، فترتب خط سيرها . قال لها بافلوس ذات يوم : أتعرفين ماذا أعتقد يا أماه ؟ طالما أنك تجهدين نفسك ، وتجرين وراءنا ، ألا تأخذين معك إناء الألوان ؟"

سألتها :

- وأنت يا إيلى ، هل تعملين في مكان ما ؟

- كنت أقوم ببعض الأعمال بدورى ، ولكن على الهامش دائما . عندما أعدموا أبى بالرصاص ، قال لى فانيس : "ارعى أمنا ، يا إيلى . فربما كتب عليها أن تجرع أكوابا أخرى . لا تتركيها .. وحيدة . إننا نمضى فى الطريق الذى قدسته دماء أبى . ابقى أنت إلى جوارها" . وهكذا ، لم أخرج كما كنت أتوق أيضاً ، إلى المعركة أتلقى رصاصاتها فى صدرى . كنت أساعد الفتيان ، بأن أكتب كل ما احتاجوا إليه . وكان محكوما علىّ أن أحيا معاناتى الخاصة تحت ظل البيت ، بينما كان بالإمكان أن أنساها فى خضم المعاناة العامة وفى نشوة المعركة .

لكن الكارثة جاءت ذات ليلة .. دون أن تنبئ بها أية بادرة . كنت أسمع القائلين بأن الكوارث تأتى دون أن يتوقعها أحد ، ولم أكن أصدق ما يقال . أخواى قد هجعا إلى فراشيهما مبكرين ، ونامت أمى خالية البال تلك الليلة . فى منتصف الليل تقريبا دق الباب . بشدة وخشونة . لم يكن الأمر يحتمل أدنى شك . كيف يمكن أن تحزمى أمرك ، وتفتحى الباب ، وأنت تعرفين أن الموت فى الانتظار وراءه . ذهبت وفتحت . كانوا ثلاثة من الألمان وأحد الوشاة من بنى وطننا .

قال اليونانى : نريد أخويك . أين هما ؟

قلت : نائمان . ماذا فعلا ؟ ..

لم يجيبوا بشىء . ووجدت نفسى محاطة بفوهات البنادق ، وقد ألقوا القبض على أخوىّ وهما فى ثياب النوم .

قال لهما بافلوس بالألمانية : "انتظروا دقيقتين حتى نرتدى سترتينا" لكن الجاويش أوبير ذلك الكلب النازى الشرس قاطعه قائلا : "لا داعى لذلك ، أيها الفتى" وأضاف ، وهو يربت على كتف جاره ضاحكا ضحكة تنضح بالقسوة: "حيث سيذهبان ، لن يكونا بحاجة إلى ثياب . أليس كذلك ، ياهانز ؟ "

ضحكوا جميعا . وضحك معهم الخائن الذى يتكلم لغتنا .

عندئذ هبت أمنا كسيف ممشوق ، كما لو كانت صبية فى السادسة عشرة من عمرها ، وأمسكت بأيديهم . وتدفق الكلام من فمها الذى لم يكن ينبس بكلمة من قبل .

"لا تأخذهما منى . ليس لى فى الحياة غيرهما . قتلتم زوجى . اتركوا لى ابنى على الأقل . أليس لكم أمهات ، أنتم ؟ أليس لكم أولاد ؟ ألا تفهمون الألم ؟ لا يمكن ذلك . أنتم بشر ولكم قلوب . قولوا لى إنكم لن تأخذوهما . ها هو البيت كله لكم . خذوا الثياب ، الأثاث ، الكتب . خذونى أنا واتركوهما" .

وكانت تتعلق بأكتافهما ، وتتمسح بأيديهم ، وتخر على الأرض محوطة سيقانهم بذراعيها وتسد الباب بجسمها .

قال هانز : يجب أن ننتهى . خذوا معكم المرأتين أيضا . لكن الجاويش أوبير قاطعه بضحكة ساخرة من جديد .

"أليس فى قلبك أدنى رحمة ، يا هانز ؟ لابد أن يبقى بعدهما من يبكيهما ."

لحسن الحظ ، لم تكن أمنا تعرف لغتهم . ولكن ماذا كانت ستسمع أكثر مما حدسته ؟

قذفوا بها وسط الغرفة بركلة . وألقوا بى فوقها .

وفى طريقهم للخروج . سمعت فانيس يقول : "ارعى أمنا ، يا إيلى" ..

فى اليوم التالى ، بعد الظهيرة ، عندما كان كل شىء قد انتهى انتابنى إحساس بأن الأمر لم يكن سوى كابوس بشع . إذ كيف يمكن أن يكون قد اجتزت كل هذا ولازالت أحيا ، محتفظة بعقلى ؟

أصيبت أمى تلك الليلة بنزيف ، مخيف ، لم يستطع الطبيب أن يوقفه إلا بإعطائها مخدرا . ثم راحت فى غيبوبة فلم تع شيئا مما حولها .

وبذلك أمكنني أن أنجز كل شيء بمفردى . في الصباح أحضروا لي أخويّ غارقين في دمائهما . كانوا قد أعدموهما رميا بالرصاص عند مفرق الطريق . غسلت جثتيهما وألبستهما ثيابهما بيدى ، هاتين . لم تذرف عيناى دمعة . ولم يدب الخوار إلى ساقيّ قط ، لأننى كنت أدرك أننى لن أتلقى العون من أحد . كان يجب أن أعجل ، وأن أنجز كل شيء بنظام قبل أن يجيء الليل . من المؤكد أننى لم أكن في حالتى الطبيعية ، لأننى غير قادرة أن أفسر بعض الأمور . مثلا ، عندما كانت تجرى مراسم الجنازة في الكنيسة ، ويتلو القساوسة صلوات الموت لم أكن أفهم ما صلة كل هذا بأخويّ . كنت أقول لنفسى لماذا لا ينشدون النشيد الوطنى ؟ ما شأن أخوى بكل هذه التراتيل الحزينة ؟ وفي المقبرة انفلتُّ من أيدى أولئك الذين كانوا يمسكون بى ، ومضيت أتنقل هنا وهناك ، أجمع من الحوائط زهوراً برية أنثرها على وجهيهما . كنت أذكر كم كانت فرحتنا جميعا في البيت عندما خلصنا بافلوس من التيفود في العام الماضى . كنت أذكر أيضا فانيس فتانا الأكبر الذى كان معتل الصحة على الدوام ، وكانت أمنا دائبة الخوف عليه . كنت أذكر كل هذا وأربت على وجهيهما ...

توقفت عن الكلام . شابت النظرة الوضيئة غمامة صغيرة ، ولكن من العينين لم تطفر دمعة واحدة . لم أقطع الصمت الذى خيم ، لكننى تذكرت ، وأنا أراها جالسة هناك أمامى بثوبها ناصع البياض ، والصمود في عينيها ، تذكرت شكاتها : "كنت دائما على الهامش" .

"عندما أفاقت أمى ، تكلمت بعد قليل . لم توجه إلىّ سؤالا . ربتت على يدى فحسب ، وقالت : بقينا وحيدتين ، الآن يا إيلى . يجب أن نفعل شيئا نحن أيضا . هل تذكرين ما قاله فانيس ؟ إذا رحل أحد ، يجب

على الآخرين أن يحلوا محله . أريد أن أعمل فى سبيل الهدف الذى وهب ولداى وزوجى حياتهم من أجله ... ابحثى يا إيلى .. ابحثى لى عن عمل أعمله ...

هذا مايجعلنى أحضر إليك اليوم . يجب أن تجدى عملا لأمى . وأنا أيضا أريد عملاً لا أستطيع أن أترك أمى وحدها مريضة . سأشتغل من جديد فى البيت . لكن عندما ستأتى الحرية بعد قليل أريد ألا أخجل من أننى لم أعمل من أجل مجيئها" .

أرسلتها إلى "صحف المقاومة" لم أرها بعد ذلك ، بل ولم أخبرها عما أنا مدينة لها به . فلم أعد بفضلها أخشى . لم أعد أحصى بقلق الشهداء الذين نهبهم كل يوم . فإن الموت يمضى جنبا إلى جنب مع الكفاح ، دون أن يعوقه أو يثبط من قوة اندفاعه ، بل هو يزيده على العكس ، اشتعالا .

إن هذه التربة التى نعشقها ، تعيد بقوة الدماء التى تتشربها شعلة متأججة . غدا ، ستلقى هذه الفتاة التى كانت تعمل حتى اليوم "على الهامش" بنفسها إلى ساحة المعركة ، وستحارب بكل مافى كيانها من شباب ملتهب . لن يضعف الموت الجموع ، وستأتى الحرية .

بستان البرتقال

فليبو بيريذى

إن هذه القطعة من شاطئ قبرص مكان مبارك. أرض رملية طيعة ، ماء طيب ، وأنفاس البحر تلطف من برد الشتاء . كل ما يلزم لزراعة أشجار البرتقال . مكان تغطيه الحدائق . شريط أخضر يحوط الرمال الذهبية الممتدة فى شبه دائرة حول الخليج وينذثر عند اللسان الصخرى. وفى مايو عندما تهب النسمات من اليابسة ، يعبق الزهر بأريجه هواء البحر حتى مدخل الخليج على امتداد ميلين .

قد تكون زراعة البرتقال مجرد كلمة ، ولكن كيف تصبح هذه الكلمة أمراً لا يعرفه حقا سوى أناس ، من أمثال بيترى ، كرسوا جهدهم العمر كله للتربة والشجر حتى لم يعد بالإمكان أن تفصل بالنسبة لبستان هذه العناصر الأساسية الثلاثة بعضها عن بعض . هكذا تعهد بيترى بستانه حتى نمت وترعرعت فيه أشجار البرتقال عند الطرف القصى للشريط الأخضر على الحد الفاصل بينه وبين اللسان الصخرى .

عندما استقل عن أبيه ، وانصرف يعمل من أجل أن يكون له حقله هو ، كان متقدما فى السن بعض الشىء ، فقد كان قد بلغ الثلاثين.

لم يكن بمقدوره أن يختط طريقه الخاص قبل ذلك ، فقد كان عليه أن يرعى أختيه ، وقد تزوجا فى سن متأخرة . ومع ذلك لم تصدر عن بيترى شكوى قط . لم يكن ذلك طيبة فيه أو اكتراثا منه بألا يتخلى عمن فى حاجة إلى حمايته . كلا ، لم يكن هذا هو حقيقة الأمر . كان بيترى من أولئك القوم ذوى اجأش الرابط الذين يواصلون بثبات وعزم السير فى الطريق الذى جعلته الحياة من نصيبهم ، قادرين على أن يحيوا حياتهم دون أن يقيموا وزنا لأحد ، مما يحمل الآخرين على احترامهم . سار على الدرب الذى نهجه أجداده منذ القدم ، كتوماً مجداً ، وعاش نمط حياتهم لمجرد أنه وعى الحياة هكذا . زوج أختيه . وزع عليهما أملاك الأسرة ، وناط إليهما رعاية الأبوين الطاعنين فى السن ، ثم بغير أن يلتقط أنفاسه يوماً واحداً رسم علامة الصليب ، وبصق فى راحتيه وشرع يضرب الأرض بفأسه حتى يزرع الشجر فى أرضه هو . غرسها. طعَّمها. حوطها بسور . بنى بيتًا صغيراً ، وتزوج. ماذا يهم بعد ذلك ؟ إنه اختط طريقه فى الثلاثين بدلاً من أن يختطها فى العشرين. المسار واحد فى الحالتين ، بل والمسار الداخلى أيضا ، ذلك الالتحام بين روحه وبين هذه التربة وهذا الشجر ، إلى الحد الذى لا يستطيع معه أن يميز بين جهاده وجهاد الشجرة الفتية التى تكافح لكى ترسخ جذورها فى الأرض ، ولا أن يميز بين ألمه وألم الشجرة متى أصابها الداء ، وإلى الحد الذى يسمع معه فى نومه صوت أشجاره وقد اشتد عودها ، ويشعر بالفرحة لأنها شربت حاجتها من الماء وارتوت .

وقد قدر لتأخره فى اختطاط سبيله والاستقلال بكدِّه أن يكون سبباً لأن يختلف نهج حياته المألوف من ناحية واحدة . كان بيترى قد جاوز الخامسة والثلاثين عندما أنجبت زوجته التى ناهزت الثلاثين بدورها

طفلهما الأول . كان ولداً . ولم ينجبا غيره . وقد حوط الأبوان اللذان فى منتصف العمر هذا الابن ، أرتيمى ، بعواطف لم يألفاها من قبل ، وكانا يختزنانها فى الأعماق مبهمة غير مفهومة ، لكنها غرست فى قلب الأم بذرة حب لا حدود له ، وبثت فى عقل بيترى بعض الأفكار الجديدة . وهكذا تلقى أرتيمى الابن الوحيد من أمه ملاحظات غير معهودة من أقرانه ، ونال من بيترى الإذن بأن يذهب إلى المدرسة الثانوية فى المدينة التى تبعد عن القرية مسيرة ساعة .

ولم تتوقف الأفكار الجديدة فى عقل بيترى ، فقد انتوى أن يوفد أرتيمى ليكمل تعليمه بعد المرحلة الثانوية. لكنه لم يتناقش مع أحد فى هذا الأمر ، ولا حتى مع نفسه ، فقد كان يعترف به كأنه حقيقة لا تقبل الجدل . «فلينته من المدرسة فحسب . وسنرى » هذا ما كان يقوله فى قرارته ، وقد توقفت يده عن العمل فى الهواء لحظة ممسكة بمنجل التشذيب ، وارتعشت فى عينيه ابتسامة ، ثم كان يعود إلى عمله فى تقليم الشجر .

أصبح عالم بيترى الآن غريباً مشتتاً بين تكريس جهده للأرض وبين أحلامه عن أرتيمى . وما كان عن الاثنين يتزعزع . كان كما لو كان يعيش حياتين لم يكن يجمع بينهما فى فكره البدائى شبه مشترك ، ولكن لم يكن ثمة سبب لأن تدب الفرقة بينهما على أى حال . كل ما هنالك أن الأحلام فتحت نافذة تدفق منها ضوء جديد غمر قلب بيترى .

هكذا مضت السنين . بسطت أشجار البرتقال أغصانها وتشابكت أوراقها . وبلغ أرتيمى الثامنة عشرة من عمره ، وحصل على الشهادة الثانوية . صار فتى أسمر رزيناً قليل الكلام ، يشبه أباه كل الشبه .

وكلما شب أرتيمى وأفلح انتشر النور فى قلب بيترى بثقة واطمئنان ، كما لو كان فلاح الابن مصدقًا على فلاح الأب فى بستانه .

ومع ذلك ففى الآونة الأخيرة بدأت تهب ريح جديدة اقتلعت من الناس ألبابهم . نداء شامل مزلزل كأنه وافد من أعماق الزمن يبشر بأن الساعة قد حانت . فلم يعد إطار الحياة اليومية يسع أهل الجزيرة الطيبين . فى المقاهى ، وفى السوق ، وفى البيوت ، وفى مقار العمل ، وفى المدارس ، علت موجة من التحذيرات والترقبات والتحديات سمت بالأرواح فوق منطق المصالحة والروتين . امتشق الشبان سلاح الحماس ، ومضوا يتقصون عن فرص التضحية والفداء . كانوا يروحون ويجيئون. يتنحون جانبًا ويتهامسون ، ثم فجأة يقفزون إلى دراجاتهم ، يركبونها ويمضون إلى المدينة . وكان أرتيمى من بينهم .

ساورت الريب بيترى منذ أول وهلة ، إلا أنه لاذ بالصمت ، ومثل الحيوان البرى اشتم فى الهواء مقدمات العاصفة الهوجاء . وبكل تحفظ مضى ينتظر أرتيمى ويتتبعه ، لكن ذات يوم عندما حاولت زوجته أن تحدثه عن مخاوفها على ابنها الذى لا يرتدع ، نهرها قائلا :

– دعيه وشأنه ، إنه يعرف ماذا يفعل . ماذا تريدين من رجل مثله ، أن ينكص على أعقابه ، ويندس مختبئًا وراء فساتينك ؟

على أنه بدأ يروِّض بعد ذلك من تحفظه رويداً رويداً إحساسًا بأن كل هذه الانتفاضة من حوله تنبثق من جذور وجوده ذاته ، من الأعماق ، من أقصى الأعماق ، من حيث يعتصر رحيق شعوره بقوميته .

وفى يوم من أيام الخريف السابحة فى دفء الشمس ، كان بيترى جالسا عند عتبة داره يصلح مضخته استعداداً لتعفير أشجاره بالكبريت ، ما أن يجد الوقت المناسب لذلك . فتح باب سور الحديقة بدفعة قوية ، ودخل صبيان لاهثين جاءا ووقفا أمامه ، وهما يديران بارتباك فى أيديهما قبعتيهما المدرسية . فزع بيترى لمرآهما ، لكنه لم يفصح عما ارتابه .

تطلع إليهما فحسب وانتظر أن يتكلما . فى النهاية ، قال أحد الصبيين بلهجة سريعة ، وربما كان قد نسى ما سبق أن أعده من كلام ، قال بعبارة مفككة كل الحكاية : نزل الطلبة فى مظاهرة . أطلقت « قوات الأمن » الرصاص . سقط أرتيمى الذى كان يحمل العلم فى المقدمة . جرح اثنان آخران ، لكن أرتيمى ... سقط ! كرر الصبى قوله بصوت نائح .

فهم بيترى ، وهب لتوه واقفًا بداخله عمود من الغضب العارم ، وعلا الصراخ فى أعماقه . أما الأم التى كانت فى البيت وسمعت فقد ندت منها صيحة ، وهمت بالاندفاع خارجًا ، لكن بيترى مد يديه وصدها . وبينما هو يحتضنها بحنان لم يسبق أن أحس بمثله اقتادها وأعانها على الجلوس .

بدا كل ما أعقب ذلك فى هذا اليوم واليوم اللاحق بالنسبة لبيترى كما لو كان يجرى فى منطقة منفصلة من حياته ، فى منطقة لا شىء فيها ينتهى ، ولا شىء يبدأ ، لأن اللحظة ، كل لحظة ، مشحونة الأعماق بارتجافات تغمر وتستحوذ وتوجه كل شىء . ووسط الانسحاق الذى عاناه قلبه ، أحس كما لو كان مشدود الأزر من تماثل مترام ومتجاوز للحد بين مأساته والنبض الكلى لما حوله .

لكن بعد أن ووري جثمان أرتيمي القبر ، أقبل الليل . وأخذ المعزون ، بضغطة على اليد ، بكلمة مواساة طيبة ، ينصرفون . وبعد منتصف الليل بقي الوالدان العجوزان وحدهما ، وليس ثمة من يقف إلى جوارهما في حزنهما الكبير .

أحس بيتري عند ذاك أنه قد هبط إلى المنطقة المألوفة ، حياة كل يوم. استدار ونظر إلى الأم التي جلست صامتة مكسورة الجناحين وقد بدا لها باطلاً كل عناء وجزع . أحس نحوها في قلبه بذلك الحنان من جديد ، وسرى في عروقه دبيب ميل إلى ملاطفة مكبوتة . وما لبثت الأم ، وقد هدها التعب ، أن رقدت تحاول النوم ، أما بيتري الذي لم تعد الدنيا تتسع له ، فقد فتح الباب ، وخرج إلى البستان .

جرفه مشهد أشجاره النابض بالحياة ، وشذاها المألوف في ضوء النجوم ، جرفه ذلك إلى فلكها كما كان يحدث له دائما .

كانت هذه أحلى ساعات الليل ، تلك التي تبشر بانبلاج الفجر . مضت الجنادب تطرز بصوتها خيوطًا على خمار الصمت . خفق جناحا دجاجة في حظيرة الدواجن . ومن بعيد سمع خوار ثور . ثم أخذ الأفق يكتسي بلون وردي ، ولاحظ بيتري أن الجو كان جافًا وساكنًا . « حان وقت التعفير » هذا ما فكر فيه الفلاح الذي استيقظ بداخله ، ثم عمد من تلقائه إلى ربط الفكر بالعمل ، فمضى إلى كوخه حيث صف معداته ، وأخذ مضخة التعفير ، وشرع في العمل .

ملأت المضخة صمت تلك الساعات في الفجر بصوت غريب ، كان يشبه حشرجة رتيبة عنيدة من مخلوق يحتضر بصوت كما لو كان يهيب بالشمس ، وهي تشرق وتبسط نورها ، أن تعطي لكل شيء معنى واضحاً .

المرأة ذات العينين البريئتين

ميخائيل كانيلليس

– أيها المتهم ، ما دفاعك ؟

– . . . .

فى قاعة محكمة الجنايات بسط الصمت الخالص جناحيه العملاقين .

حبس كل الموجودين ، سواء من هيئة المحكمة أو المحلفين أو المحامين أو المتفرجين ، أنفاسهم وقد تسمر فى صدورهم قلق مشترك .

بدا المتهم مشدوها ، مستغرقًا بمواكب الأشباح الحزينة المتتابعة أمام بصيرته الداخلية . لم يحرك ساكنًا فلم يكن قد سمع ما أمره به رئيس المحكمة وبصوت أكثر ثباتًا ، عاد هذا الأخير يقول :

– أيها المتهم ، بم تجيب ؟

لكزه واحد من هيئة الدفاع عنه بلباقة من تحت المنصة :

– يا سيد – فلامينى ، ادل بإجابتك .

ثم كرر القول ، بصوت أكثر خفوتًا ، حتى يفهمه ذلك الذى جلس محطماً على مقعد أولئك الذين هدمتهم شرورهم :

– هيا ، تشجع ، أيها الصديق التعس ...

عندئذ فحسب أفاق المتهم من غيبوبته .

هب فى وقفة آلية ، وبحركة تلقائية . رتب خصلات شعره الأسود التى تلقى ظلالا ثقيلة على وجهه مثل عرف غراب داكن ، ثم فتح فمه كى يتكلم .

إنه بافلوس فلامينى ، الطبيب الشاب المعروف لدى أوساط المجتمع الراقى . درس فى أوروبا ، وكان يبشر بمستقبل باهر ، كنابغة من نوابغ الجراحة .

أما الآن ؟

يا للخراب !

(كانت المأساة المخيفة قد انقضت عليه فجأة ، مثل طائر كاسر فقأ بمنقاره الجارح عينى قدره السعيد) . تجمعت فى المحكمة يوم القضية النخبة الممتازة من المجتمع الأثينى . مضت الألسنة النهمة تلوك اسمه من كل النواحى بقدر ما فى الجموع من فضول .

وكان الغريب فى الأمر حقًا ، إذ كان العكس هو المتوقع حدوثه ، أن النساء تعاطفن معه ، بينما ألقى الرجال الوزر عليه ، وقذفوا فى وجهه جميعاً قولهم :

– أيها المجرم !

بدا بافلوس فلامينى وقت أن قام يدلى بدفاعه رماديا ، شاحبًا ، كميتٍ قبل أوانه غطاه فيض من التراب المظلم ...

بين الفينة والفينة ، عندما كانت تصل اعترافاته المفجعة إلى أكثر مشاهدها قتامة كان يلجم لسانه ، ويتعثر ، ويبح صوته . وبين شدقيه كانت الكلمات تجهض ، تموت قبل أن تولد ، وتختلط عباراته ويدب فيها الارتباك . وعندئذ كان حديثه المحطم ينبئ عن مبلغ الدمار والخراب الذى حاق بروحه ووجدانه .

وشرع يقول :

. . . .

– أين عرفتها ؟ كيف عرفتها ؟ لماذا عرفتها ؟ لا أدرى ... يكفى أننى قد عرفتها ... عرفتها بالقدر الذى يمكن لرجل أن يعرف امرأة . أعنى أننى لم أعرفها قط ... لأنك كلما زدت تعرفًا بامرأة ، كلما ازداد جهلك بها . إن المرأة تيه تضل فى سراديبه . وكلما أوغلت فى أعماقه كلما تكاثف الظلام من حولك ...

قاطعه رئيس الجلسة بعصبية :

– أيها المتهم ، ادخل إلى الموضوع رأسًا ، إلى الموضوع رأسًا ! إنك لم تأت هنا لتتفلسف ، بل لتدافع عن نفسك ، لتبرر لنا تصرفك ، لتبرر تصرفاتك ...

(كان الرئيس قد اكتسب من عمله القضائى عادة أن يردد ثلاث أو أربع مرات ختام عبارته . وكان هذا التكرار المشدد يضفى عليه صلابة ومهابة) .

هب الأستاذ ميلاراس محامى المتهم وعضو البرلمان واقفًا برشاقة ! انتفش الشعر المستعار على رأسه مثل أسد هصور ، واندفع يقول فى احتجاج متأجج :

– إنني أعترض ، يا سيدى الرئيس ! إن دفاع المتهم عن نفسه حق مقدس ! لاتنسوا أن حياة إنسان يتهددها الخطر فى هذه اللحظة ، وأن حبل المشنقة ليس بعيداً عن رقبته .

– إننى لا أسمح لمحامى المتهم بمقاطعة المحكمة .. لا أسمح بذلك لا ..

– بل ستسمحون ، يا سيدى الرئيس ، إن حياة موكلى فى خطر ، ولهذا فمن حقه أن يدافع عن نفسه كما يشاء ...

اشتبك الرئيس ومحامى الدفاع لحظة فى مشادة حامية . إلا أن وكيل النيابة الذى كان من أعضاء الهيئة القضائية الطيبين نجح فى تهدئة الطرفين . وهكذا استطاع الطبيب فلامينى أن يواصل دفاعه عن نفسه بلا قيد سوى نصيحة واحدة من رئيس المحكمة أن «اختصر .. اختصر .. اختصر .. ! »

– كان الوقت صيفًا .. صيفًا أحمر ، أحمر مثل شفتيها ، أيها السادة ... فى بعض الأحيان ، خيل إلىّ أن شهر يوليو قد ولد من شفتيها ... كنت أقضى إجازتى آنذاك .. (كم من السنين مضت منذ ذلك الحين ؟ كم من الأصياف انقضت ؟ لا أعرف ... أذكر فحسب أنه الوقت الذى كنت فيه لا أزال أحيا !) قضيت أيامًا ليالٍ حلوة فى تلك الجزيرة من جزر بحر إيجة .. كان الليل ينسابُ فى هدوء فوق جسمى مثل أهداب حبيبة . آه ، كم انسجم جسمى مع تلك الجزيرة ...

ثم التقيت بها !

لم يكن لها أب ولا أم ، ولا قريب . كانت وحيدة وغريبة ومعتزلة ، كما لو كان قد ألقى بها إلينا كوكب آخر . أكانت آنسة ؟ سيدة ؟ أرملة ؟

لم أكن أعرف. وما من أحد غيرى كان يعرف . كان الجميع ينادونها « بالمرأة ذات الضحكة الحمراء » .

رقصت معها ..

كانت رشيقة ، مياسة القد ، مثل شبح امرأة حسناء بُعثت إلى الحياة. أثناء الرقص كانت تنزلق من بين يدى كما لو كانت طيف امرأة. كنت أفقدها من حضنى فجأة بينما كنت أحتويها كلها بذراعى . وبين الفينة والفينة كان أحد أجزاء جسمها يتبخر من جانبى وإن كانت تظل فى ناظرى . وكان هذا مدعاة للرهبة !

كنت أراها كاملة ، ولكننى كنت أحس بها ناقصة . لم تتبين عيناى على هيئتها المضيئة شيئًا غائبًا ، ولكن لمستى كانت تشعرنى بأن ثمة فراغا ...

ذات ليلة ، رقصنا كثيراً . لم تكن تلك التى بين ذراعى امرأة ، بل كانت روح الرقص التى تفتننى وتلهب النار فى جسدى . تبتعد كمادة وتضيع فى أغور البحر العميقة ، بينما كانت تظل تنتفض وتتثنى فى أحضانى . كانت جد بعيدة عن متناول يدى . من يدرى أين ؟ .. فى الوهاد الغائرة ، فى الأجواء الأثيرية المترامية ، فى أجواء الفضاء ، فى مدارات النجوم ، لاشك أن موطنها الغامض هناك فى مكان من هذه الأمكنة ...

كان جسدها يسافر ، يهرب ، ينوب ، يرحل بعيداً تاركًا لى إطاره الخارجى فحسب ، كنت أرقص – ويا لهول ذلك – مع الجلد الخارجى لمخلوق وحشى أجوف ..

شربتْ تلك الليلة الكثير من الشمبانيا . فشعشعت الخمر في خواء كيانها ، وتلألأت الومضات في عينيها ، وأضاءت بشرتها مثل طبقة من الراديوم .

ومن الغريب أنها ما كانت تغيب عن وعيها مهما شربت . على أن جسدها كان يتبخر من أمامي يتحول في ناظري طيفاً ناصع البياض ، كما لو لم تكن مخلوقاً بل كائناً يتعدى كل المخلوقات ...

كانت أنثى تتجاوز روحها الحدود .

ولا شيء غير ذلك ..

فقط كانت النظرات تتطاير من عينيها ملتهبة ، كما لو كان القدر قد اقتلع من غرس باطن الأرض مقلتي شيطان وزرعهما في محجريها . كانت عيناها مفعمتين بالحياة . أما شفتاها الحمراوان ، شفتاها شديدتا الحمرة ، فقد بدا أنها كانت تخضبهما بلهب الشمس ...

أومأت لي قائلة :

– لنذهب ...

– إلى أين ؟

– لنذهب ..

لم تنبس بهذه العبارة . كلا ، لم تنبس بها . أقسم لكم على ذلك بجريمتي المحتومة المقدسة . أقسم ! لماذا أخدعكم ؟ وما حاجتي إلى أن أخدعكم ؟ إنكم ترونني : إنني ميت ...

لم تنطق بكلمة «لنذهب» لم تنبس شفتاها بهذه الكلمة .. ومع ذلك فقد دوت فى أعماقى .

وذهبت ، تبعتها موثق القيد إلى خطاها ، يشدنى ظلها إليها ، كما لو كنت كلبها الأمين وسرنا معاً ، أنا والمرأة ذات الضحكة الحمراء ، أنا والشيطان ! ذهبنا إلى خليج هادئ ، قصىٍ ناءٍ عن العيون ، حيث كانت الأمواج تتبسط مثل الشهد على رمال الشاطئ .

من حولنا ، مضت النجوم تسير وسط الصخور . أما القمر فقد انسكب كله فى البحر .

وفى اليوم المريض ذاب صديده فبدت الموجات الساكنة مخضبة بما يشبه صفار البيض .

وقفت صامتة على صخرة صغيرة جوفت ما تحتها تيارات البحر الغائرة .

نظرت إليها ...

بدت هيئتها كاملة ، ومع ذلك لم يكن أمامى حتى ولا نصفها . أين ذهب الجزء الباقى من جسمها ؟

شرعتْ المرأة تخلع ثيابها ...

مضت تتجرد أمامى ، بلا اضطراب ، ولا خجل ، ولكن أيضا بلا وقاحة ، كما لو لم يكن ثمة رجل إلى جوارها ، كما لو لم أكن كائناً ، بل مجرد طيف خيالى ...

هل كانت تجهل وجودى ؟

هل كانت ناسية ؟

من يدرى ؟

كانت تخلع ثيابها ...

ومثل بخار ينفصل عن بخار أخذت الغلالات تسقط عن جسدها الأثيرى . وكنت أرتعد ، أرتعد مثل حيوان مقضى عليه ، خشية أن يتبخر الآن من ثيابها جسدها أيضًا ، أن تتبدد المرأة من أمامى ، وتستحيل هواء أو ضبابًا أو عدمًا !

وبدون أن تفتح فمها ، قالت لى صراحة ، بكلمات لاتتبس بها الشفاة بل تتحدث بها الأعماق :

– ألق بنفسك ...

– أين ؟

– فى اليم . ألق بنفسك ...

كانت الآن عارية تمامًا .

تمتمت ، مجنونًا :

(مجنونًا ؟ كلا ، لم أكن مجنونًا ، كلا ، لست مجنونًا ، من قال إننى مجنون ؟)

– لم نحضر لباس البحر ..

أشارت لى المرأة العارية ، بحركة آمرة إلى البحر الساكن سكون الأموات ، إلى اليم الفسيح الهادئ الملىء بالصديد ، الذى يرقد نائمًا .

- ألق بنفسك ...

وفى لحظة كنت بدورى عارياً إلا من جلدى المبهور . وقد غاصت ساقاى باستسلام فى طحالب البحر وحشائشه . خطوت أولى خطواتى فى الماء ، فسرت الرعدة فى أوصالى .

رأيته راكداً سميكاً . كان البحر مريضاً الليلة . بطنه التى تكاثفت عليها الطحالب انتفخت على غير المألوف ، كما لو كان قد أصيب بالاستسقاء منذ سنين .

كان البحر مريضاً الليلة ، مثل أنثى اكتمل حملها وبلغ منتهاه ، وقد طفحت على سطحه طبقة من البثور مضت قدماى تفقأها فى خطوى. كنت أشعر أن البحر يلفظ الليلة سموماً . كان اليم عكراً للغاية .

توقفت .

أردت أن أعود . آه ، أن أعود أدراجى إلى اليابسة من جديد حيث تجد أقدامى الاستقرار والرسوخ .

ولكن هيهات ! ..

لقد نهتنى المرأة العارية عن ذلك ، باسطة ذراعيها نحوى مهددة .

انتصبت المرأة واقفة بينى وبين القمر ، فرأيت ، ويالهول ما رأيت ، القمر وضاءً من خلالها ! كما لو كان جسدها شفافاً ، لم يكن يحجب أشعة القمر. لم يكن يصدها .. كان الضوء يخترق قامتها بحرية .. كما لو لم يكن جسدها من لحم ودم بل من زجاج ! .

أية طبيعة ، أية خليقة ، من أية مادة مجهولة بعد فى هذا الكون صنعت هذه الأنثى الغريبة ؟

أواه ! لم تكن قد خلقت مثل نساء الأرض ، من ماء وجير وفوسفور وخلايا ، كانت مخلوقة ذات تركيب بيولوجى خارق . كان معدنها قد انصهر واستوى فى أفران جد مختلفة خارج نطاق أرضنا . كانت معلومة حية ، إشارة نشطة تبعث بها القوى العاقلة فى الفضاء المترامى الأطراف عن المخلوقات التى تحيا وتتحرك خارج نطاق الكرة الأرضية .

رأيتها تقفز بدورها بعد قليل إلى جوارى فى اللجة .

وسرت الرعدة فى من جديد .

سقطت دون أن أسمع أذنى صوت لارتطامها بالماء . وغاصت فى صمت .

شرعت تشق الموج بلا جلبة .

انتابنى الهلع . أردت أن أراها ! أردت أن ألمسها لم أكن أريد أن أتبين الآن من هى ، بل أن أتبين ما هى ..

هجمت عليها ...

أدركتها وذراعاها يشقان اللجة السميكة ، كما لو كانا يشقان سطحاً من العسل . طوقت وسطها متلهفاً أن أضم جسمها إلى جسمى أخيرا ، وأن أحس به مثل سائر أجساد نساء الأرض ...

وعندئذ حدث شىء مخيف ، لن تصدقوه أنتم لأنكم لم تلتقوا «بالمرأة ذات الضحكة الحمراء » .

لم تصادف يدى وأنا أحتضنها أية مقاومة ! لم يكن لجسدها كثافة خاصة تزيد على كثافة الماء !

وفصلت جسمها عند الوسط ، شطرته بضمتى لها . وبلا صد من جسدها أمسكت يدى بجسدى أنا !

لكن المرأة الغريبة كانت هناك ، إلى جوارى ، تكاد تنكب على بسخاء وحيوية، وأسنانها البيضاء تلمع وضاءة بين شفتيها الحمراوين .

سرت رعدة باردة فى عروقى .

لم تكن هذه المرأة من لحم ودم !

مما كانت إذن ؟

يخيل إليك أن ثمة مرضاً غريباً على الجنس البشرى ، قد أوهن من التصاق أجزائها بعضها ببعض ، وزاد من الفراغات بين خلاياها ، وحذف الرباط الوثيق بين الذرات . فاستطاعت يدى بذلك أن تجد على نحو ما ، فجوة نفذت منها .

ولكن كيف بدا إذن قوامها الوطيد على هذه المرونة والتماسك ؟

كيف لم يكن يسبح وينهار مثل كتلة هشة ؟.

تفحصته الآن لا كرجل ، بل كطبيب لأتبين ظواهره الكيميائية ، لأفهم لماذا خرج هذا الجسم على قوانين الطبيعة التى لا حيدة عنها ، وتحكم الوجود كله .

وربت عليه ...

وأجريت راحتي المتيقظة عليه كله متحسساً إياه ، لا عن عاطفة بل عن حس تشريحي مرهف .

لم يكن يبدو على الجسد الآن ، وأنا أتحسسه أية بوادر غير طبيعية . كان الجسد العارى لامرأة شابة مبللا بالماء ، مصقولا مشرعا مثل نصل أبيض .

فقط حيثما لمستها ، بالضبط حيثما التقت بشرتي ببشرتها كان يبدو احمرار ، كان لحمها يتورد ، ولكنه سرعان ما كان يفقد لونه كما لو كانت ثمة شفاة مجهولة تطفئ لواعج اللهب .

وهكذا مضيت اتفحصها ، تحسست كل موضع من بشرتها . دون أن تخطر ببالها أدنى فكرة استحياء ، كما لو لم تكن قد مرت قط بمرحلة العذرية . تركت لى الحبل على الغارب ببراءة واستسلام طفلة فى الثانية من عمرها ، كما لو لم تكن تعرف المعنى الجنسى لملامسات الرجل .

لكننى كنت أشعر بها الآن مكتملة تتدفق حيوية . كلها بين ذراعى ، تتكئ إلى وأتكئ إليها ، وكان هذا يكفينى .

كنت الرجل ، وكانت هى المرأة . كنا وحدنا ، كما لو كنا خارج حدود الدنيا . لا أحد معنا ، ويلتف كل منا بجسد الآخر .

كنت أشتهيها .

ضغطت على يدها . وجذبتها خارج البحر ، إلى ناحية من الشاطئ يكسو رماله بساط من الطحالب ، كانت تفوح من أحشائها أنفاس

خشنة لحضن ميت ، كما لو كانت تمور من تحتها فى صمت قبلات موتى الأرض كلهم .

أرقدتها على الطحالب . كانت الرمال تئن من ثقلها . انحنيت عليها فجأة . كانت الرغبة فى أعماقى هوجاء عارمة لأننى لم أكن أجد منها أدنى صد .

همست متمتمًا :

– ألا تحبيننى ؟

أجابتنى بصراحة تامة :

– كلا .

ألا تحبيننى ؟

– كلا .

(يا للجحيم ! كلا ؟ ومع ذلك كانت هناك عارية كما ولدتها أمها ، مستلقية دون أدنى فاصل يفرق بين ظلينا !)

تمتمت حانقًا :

– سوف تحبيننى ؟

– ربما ...

إيه ، فى النهاية ما الذى يعنيه الحب ، طالما أننى ظافر بقربها ؟ ما الذى تعنيه الروح طالما كان الجسد لى ؟

– تعالى ! ...

لكنها لم تأتِ إلىّ ، بل أنا الذى اندفعت إليها ، فلم تتهرب منى ، وتقبلتنى باردة مستسلمة . وما لبثت الرمال أن مضت تئز بعد قليل من فرط ثقلينا ...

بعد أن أفقت من ضجعتى ، وجدتها قد عادت إلى وقفتها تحت القمر ، وقد رفعت عينيها المتقدتين بنور أحمر عاليا نحو قبة السماء الرحيبة من فوقها .

تابعت نظراتها بنظراتى . ورأيت أنها كانت تحملق على الدوام فى النجم ذاته الذى كان يرتعش فى الفضاء البعيد .

سألتها :

– إلى ما تنظرين ؟

اضطربت ، وشحب لونها :

– لا شىء ...

– أى نجم هو ؟

– إنه نجمى أنا .

تبينت أن هذا الموضوع قد أزعجها ، فتقلص جسدها كله مثل فأرة مسعورة ، فغيرت الحديث :

– ها أنت قد أحببتنى ، إذن ...

– قلت لك كلا .

– لكنك قد وهبت نفسك لى .

نظرتْ إلىَّ مبهورة ، وقد كانت دهشتها مفعمة بالصدق ، حقا :

– أنا ؟

– إنك ...

– وهبت نفسى لك ؟

تمسكت بعزتى كرجل :

– ألم أستمتع بك تواً ؟

هزت رأسها فى حزن :

– أنت مجنون يا فتاى . إنك تحلم . يبدو أنك قنوع .

– إذن ، لم تصبحى لى ؟

رفعت كتفيها بحركة طبيعية :

– كـلا ، ولا شـك . وما كان بإمكانى أن أصبح لك . أولا ، لأننى لا أحبك ، وثانياً لأننى ...

– لأنك ماذا ؟

– لازلت عذراء .

ولأول مرة رأيت دماء الحياء تكسو خديها .

– عذراء ؟

انتابتنى نوبة الضحك . ها ! ها ! ها ! عذراء ؟ فلأضحك ثانية . ها ! ها ! ها ! ماذا كانت تعتقد فى ؟ مجرد مبتدئ غرير ، يتلمس طريقه بخجل ، ولازال يجهل معالم البنيان الأنثوى ؟ لقد كنت ذا خبرة عملية وعضوية بجسد المرأة ، وقد تأكدت جيداً أن معول الحب قد هدم كل القلاع فى ذلك الجسد ...

وهى تدعى الآن أن ...

- ها ! ها ! ها !

فى البداية تصورت أنها مجنونة .

ولكن هيهات ...

كانت المرأة ذات الضحكة الحمراء تدرك جيدا ما تقول . كانت هى عذراء حقًا ، وكنت أنا المجنون !

- منذ ذلك الحين بدأت بالنسبة لى حياة على غاية من الغرابة ، لم يتح للرجل أن يعرفها ولا شك .

كانت لى دون أن تكون لى . كانت عشيقتى إلى أقصى الحدود التى يمكن أن تتاح لرجل .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن بأى حال من الأحوال تعترف بذلك . كانت تنكر الأمر بإصرار وبغضب لا يصدق .

وقد ولد عنادها عنادى . لم أعد أقنع بأن أكون مالك الأرض كلها ، لم أعد أقنع بأن أكون الربان المسيطر على كيانها الأجوف كله .

كنت أريدها أن تعترف هى بذلك . هكذا بدا استحواذى عليها ناقصًا ، غير مكتمل طالما لقيت سيادتى عليها حدودًا وعوائق ، طالما انبسطت على جسدها دون أن تطول روحها .

فى ساعة الفرحة ، على الرغم من أن العناق كان يوثق بيننا كتوأمى سيام ، ورياح قبلاتى الملتهبة تهب حتى أعماق كيانها ، فإننى كنت أضغط رأسها بين راحتى مهتاجًا ، كما لو كنت أريد أن أنقل إليها بعزيمة يدى سطوتى ونفوذى ...

وكنت أسألها :

- والآن ، من أنت ؟

- لا شىء .

- ألست لى الآن ؟

- كلا ...

كلا ! يا للشيطان ! لم تكن لى على الرغم من أنها كانت لى ! ياله من عذاب !

وعندئذ تاقت يداى إلى شنقها . وتحولت ملاطفتى إلى أظافر مسنونة . انزلقت يداى من خديها إلى أسفل واستقرتا على عنقها واستعرت فى أصابعى الرغبة العارمة أن أقتلها .

واستحالت قبلاتى إلى نحيب ...

ذات ليلة بعد ممارسة الحب ، أردت أن أجعل عينى تلثم عينيها بحركة عاطفية رقيقة للغاية تتلاقى فيها رموشنا .

أول الأمر ، لم تتبين ما كنت أنوى . وما أن رأت حدقتى عينى تحط على حدقتيها المفتوحتين إلى أعلى ، حتى أطلقت صرخة .

انتفضت ، ودفعت بى بعيداً عنها ، ومن فمها انسكب لعاب مشتعل مثلما ينسكب من وحش جريح . قالت مولولة :

– ماذا تريد أن تفعل بى ؟

– مجرد ملاطفة ...

فى عينى ؟

– ولما لا ؟

– لا أسمح بذلك . لا أسمح بذلك معك .

– لماذا ؟

– لأن عينى سأمنحهما لمن سأحب .

ضحكت ببرود :

– إذن ، أنا لست من تحبين ؟

– كلا .

لم تكن تحبنى ، ومع ذلك فقد كانت تمنحنى جسمها كله ، أرتوى منه كما أشاء . ومرة أخرى على الرغم من أنها كانت تستسلم لى تماماً مضت تدافع بضراوة عن عينيها ، فقد ارتبط بهما شرفها وعرضها .

(ولكن أى مخلوق هى ؟)

أي مخلوق تلك المرأة ؟ لعنة ! ... أي شيء هي عرفته فيما بعد .
ومنذ ذلك الحين وأنا أجرجر ظلي الميت على الأرض مثل شبح هائم بالليالي ...

ومع مضي الوقت ، وازدياد الألفة بيننا ، لاحظت على هذا المخلوق مظاهر غير مفهومة .

لم تكن تستخدم أحمر للشفاه قط . ومع ذلك شفتاها حمراوين على الدوام ، ليل نهار . لم يكن لونهما يبهت قط . بل وحتى لعابها كان أحمر في أول الأمر انشغلت عليها اعتقدت أنها أصيبت بنزيف . قلت لها ذلك .

ابتسمت .

- إنني بخير ...

- ولكن ...

- افحصني إذن ، مادمت طبيباً ...

خلعت ثيابها بكل ثبات . وظلت بين يدي عارية من رأسها حتى خصرها . تناولت السماعة وكلي خشية أن تتناهى إلى سمعي العوارض التقليدية المعروفة .

أصخت السمع ...

لا شيء من ذلك !

كان جهازها التنفسي يعمل بشكل منتظم وبلا لغط . كانت الشعيبات الرئوية تضخ الهواء كصمامات آلة وطيدة الصنع ...

سألتها دهشاً :

– ولكن ؟

– ماذا ؟

– هذا الدم ؟

– ليس دماً ...

رفعت كتفيها ، وأضافت متضايقة :

– وما شأنك ؟

لم تكن قوانين الطبيعة والطلب بسارية إذن على هذا المخلوق الخارق للمألوف الذى كان يتعدى قبضة تلك القوانين الفولاذية ؟

وقد لاحظت عليها أيضًا أنها لاتنام الليل أبداً . وقد كان الفجر يلقاها شامخة متجهة بصدرها إلى الغرب ، وقد أولت ظهرها بحركة عدوانية إلى بركان الشرق المتقد .

ساهرة ، كانت ترشف شفتاها تيارات الليل كلها . وفى صمت راقدة على المقعد كانت تبتلع النجوم ...

كل النجوم ؟

كلا .

تمكنت من أن ألاحظ أنها كانت ترنو حالمة بحنين ولهفة إلى نجم واحد من بين النجوم كلها ، نجم أحمر كان يسحرها ويجذبها إليه كمغناطيس لا فكاك من أسره ...

وتصادف أن كان يقضي إجازته بدوره على جزيرتنا أحد معارفي يعمل بمرصد نيقوس الفلكي .

ذات ليلة أريته ذلك النجم الذي كان ينشر في الفضاء بلا انقطاع أشعة مثل أوراق وردة حمراء :

– أي نجم هذا ؟

– ألا تعرف هذا النجم ؟

– كلا .

– آه ، إنه النجم المعروف « المريخ » !

ألجم لساني ، بهت . ثم تمتمت :

– « المريخ » ؟

– كوكب في غاية الأهمية . أقرب جيران الأرض . لا يبعد عنه سوى مليون ونصف من الكيلومترات . أي مجرد قفزة برغوث ، إذا ما قورنت بالمسافات الفضائية بين الأجرام السماوية . نجم أحمر هو ، عرف بقنواته المشهورة التي أثارت الجدل بين علماء الفلك ، منذ قرن ونصف من الزمان . بل وأحدث النظريات عن هذا النجم أنه كوكب مسكون ، ومسكون من كائنات جد قريبة الشبه منا ، طالما أن قوانين الحياة في المريخ تماثل قوانينها على الأرض . تصور ، يا سيد فلاميني ، أن يكون هناك أيضا رجال مثل رجال الأرض ونساء مثل نساء الأرض ، تجمعهم عواطف واحدة ، بل وربما كان لهم الأجسام ذاتها ...

وقد مضت الإيضاحات العلمية المبهمة التى يدلى بها صديقى تدوى فى سمعى .

شىء واحد من كل ذلك رن فى ذاكرتى مثل جرس جنازة .

- « نجم أحمر ... »

وهذه المرأة ذات الضحكة الحمراء ، التى لا اسم لها ، المجهولة ، كانت ترنو إلى هذا النجم بحنين ويأس ، مثلما تتعلق أنظار سبية من مركب الأسر بأرض أجدادها التى تغيب عن أنظارها مبتعدة .

لماذا ؟

ذات مساء آخر ، جاءت إلى بيتى لتصحبنى ، إلى نزهتنا التى اعتدنا عليها بالقارب الذى اشتريته من ترسانة الجزيرة ، قارب رشيق طيع مثل فرس يخطر على الموج ...

تصادف أن قرأت فى إحدى الصحف الأثينية مقالاً متخصصاً عن كوكب « المريخ » لأحد علماء الفلك ، أعلن فيه أنه وفقًا لأحداث الشواهد ، فإن كارثة كونية ستفجر قريبًا هذا الكوكب الواهن الذى دبت فيه الشيخوخة ، وأوشك أن يبلغ آخر دورته الحياتية خلال هذا العام .

« ويعتبر المريخ ، على حد قول العالم المتخصص ، بالرغم من حيويته الخداعة ، واحمرار لونه الموهم بأنه على ما يرام ، يعتبر نجمًا مقضيًا عليه ، لابرء له ، على شفا الهلاك . آفة خفية تنهش أعماقه . مرض عضال مضى ينخر فيه ويقوض كيانه ..

ثم استطرد المقال قائلاً :

« وربما تسنى لجيلنا الحاضر أن يستمتع بالمشهد البانورامى المهول لدمار نجم المريخ ، سيتفتت النجم العجوز ، ويتحول آنذاك إلى مطر غزير منهمر من الشهب المتقدة .

وببراءة قرأت عليها المقال .

أصغت إليه غير مصدقة ما تسمع . وقفت صامتة متوترة . وعندما وصلت إلى النهاية هجمت على كقط برى ، وقطعت الصحيفة إربًا إربًا :

– هذا كذب ! كذب !

ومزق الصياح حلقها ، مثل نصل حاد يشق ثمرة خضراء :

– إنه وضيع ، الذى كتب ذلك . وضيع ! وضيع !

انهارت ...

تلقاها حضنى مثل هدية مريضة .

وعندئذ مالت المرأة برأسها على كتفى الذى لم يكن يتوقع ذلك ، وقد انشرخ وجهها وانخرطت فى بكاء مرير ...

لماذا أثارها هذا المقال ، وأحزنها إلى هذا الحد ؟

ما هو إذن اللغز المخيف الذى لم يسبق معرفته ، المتجاوز للحدود الإنسانية المختفى وراء ذلك المخلوق المحير ؟ وبين مخالب أى سر مريع يتخبط ؟

ويا للكارثة التى ستحل بى !

إنني سوف أعرف ذلك بعد قليل !

ذات يوم تلقيت برقية من أختي تقول : «أمنا مريضة ... عد حالا ...»

لم أعد . ماتت أمي . لم أرها ، لم أرافقها إلى مثواها الأخير ، فقد كففت أن أكون أنا . صرت حيوانًا تابعًا للمرأة ذات الضحكة الحمراء .

ذات يوم سألتها :

– كفاك تهربًا ، وخبريني ما اسمك ؟

ترددت أول الأمر . وأمسكت عزيمتها الإجابة الجاهزة على طرف لسانها . لكنها ما لبثت أن اتخذت قرارها :

– ٠١.٢٥٤.٣٥٧ .

أجفلت !

– ليس هذا اسمًا ، بل رقمًا .

– إنه اسمي هناك عاليًا ...

– أين ؟

انزعجت . عضت شفتيها كما لو كانت قد أسفت على كثرة ما أفلت منها . ثم رفعت كتفيها بازدراء :

– هلا أتيت لنرقص ؟

أمضيت شهرًا معها بعد ذلك ، غارقًا في النشوة والرهبة . وكلما ازددت معرفة بهذا المخلوق الغريب ازداد حبي له . وبقدر استسلامها لي ومنحها إياي جسدها عن طيب خاطر ، بقدر ما كانت تمسك عني بإصرار عينيها البريئتين وروحها العذراء .

ذات ليلة – وكانت عشية موتى ! – دعيت لأعود مريضاً . امتطيت بغلاً . فقد كانت قريته تبعد أربعة كيلو مترات من بقعتنا الساحلية . اضطررت أن أبيت بمنزل المريض . وفى مساء اليوم التالى تحركت راجعاً من حيث أتيت .

وصلت بيتى فى ساعة متأخرة من الليل . كانت ليلة صفراء ، كما لو كانت السماء قد أمطرت كبريتاً . ومضت كلاب سوداء ممطوطة تعوى ، وقد مدت أعناقها وسيقانها الأمامية مضمومة فى اتجاه القمر الميت .

جريت إلى بيتها . صمت مطبق . كان الباب موارباً . دخلت . فى غرفة نومها سمعت ملاطفات مكتومة ، وهمسات ماجنة من فم اعتصر كل ما حلا له من قبلات وأقبل الآن على الكلام .

أحسست بفأس خفية تهوى على ركبتى .

أرهفت السمع .

– تحبيننى ؟

– كلا ..

(يا للعنة ! ذات كلامها السابق تقوله الآن لرجل آخر ، ذات كلامها !)

واستطرد صوت الرجل المجهول قائلا :

– طالما لاتحبيننى ، لماذا منحتنى نفسك ؟

– أنا منحتك نفسى ؟

– أجل . أنت !

– أنت مجنون . كيف استطعت أن أمنحك نفسى ، وأنا لا أحبك ، فضلا عن أننى لازلت عذراء ...

يا أيتها السموات ، أطبقى على الأرض وأهلكيها ! كلامها ذاته هذه العاهرة ! بكلماتها البريئة تغطي أفعالها الفاجرة ! بكلمات الإنكار من فمها تحاول أن تغطى عطاء جسدها .

– فاجرة ! ..

هجمت على غرفة النوم وقد أشرعت مسدسى فى يدى . رأيتهما هو وهى مستغرقين فى القبل . أطلقت النار على العشيق ! أفلت من رصاصتى ، قفز من النافذة واختفى بعاره فى ظلام الليل ، الليل الذى كان يزحف خارجاً فى الطريق مثل ضبع يلغ فى الفساد .

أما هى فلم أكن أريد أن أجهز عليها بالمسدس . كلا ! هذه لن يكون بمقدورى أن أقتلها بطلقة رصاص ، لأنها لم تكن من مخلوقات الأرض الطبيعية .

ضغطت على صدرها بركبتى . سمعت قرقعة عظامها الداخلية كما لو كانت تريد أن تقفز من مكانها لتخرج من فمها .

تطلعتْ إلىَّ دهشة مبهورة ، بريئة النظرة ، غير متبينة أى أذى ألحقت بى ، فلما استشعرتْ الموت يزحف إليها ، قالت وقد علت الابتسامة شفتيها :

– تقتلنى ؟ أشكرك ! ما عدت أطيق الحياة على كوكبكم هذا الغبى ، حيث الحب مجرد التقاء قذر بين حيوان وحيوان ... إننى أعترف لك بالجميل .. والآن ، أحبك ... الآن ... اطبع قبلتك على عينى ... أيها الحبيب ... أيها الابن التعس لأرضكم الشريرة .. الآن ... وقد أحببتك .. أطبع على عينى قبلتك .. خذنى لك .. عيناى .. عانق عينى .. إننى أموت ...

شرعت تذوب ، تنطفئ ، تتضاءل بين يدى ، كما لو كان ثمة ريح يقطعها إرباً إرباً . كانت أجزاء جسدها تتحلل وتتبخر ، الواحد فى إثر الآخر ، كان العدم يتصاعد من قدميها إلى جذعها ويبددها .

أما أنا فقد مضيت أحضن جسدها الذى راح يتناقص . اندثر صدرها ثم أعقبه ذراعاها ومن بعدهما رقبتها ثم رأسها ، كل هذا انطفأ بدوره . وفى النهاية تلاشت عيناها البريئتان اللابشريتان اللتان لم يستمتع بهما لحظة موتها سواى على الأرض .

عندما خلا السرير من جسدها كله ، رأيت على يدى عينيها . آه ، لم ترحلا ، إذن ! بقيت عيناها وفيتين لجسدى وظلتا تحدقان فىّ بنظرة حية منبعثة من امرأة عاشقة .

أخذتهما مرتعشاً وحافظت عليهما كشيئين نفيسين ، كجسدين مقدسين لنعمة البصر ، لأن هاتين العينين ستقودانى ، عندما سأتطهر من أدرانى الأرضية ، وعندئذ كنجمين يضيئان طريقى سترشدنى عيناها إلى السبيل الذى أسلكه لأذهب وأجدها . وسأذهب لأجدها فى بلدها البعيد ، فى بلدها المهذب ، فى بلدها البعيد ، فى بلدها المهذب ، فى بلدها الطاهر ، هناك !

ويرأه المحلفون .



الحمامة والصقر

إيفانجيلوس أفيروف – توسيتسا

يحكى أنه فى العصر المجيد لزيوس ، عندما كانت الروح ، وعلى الأخص على هيئـة الحب ، تسـود الأرض ، وقع صـقـر قـوى فـى غـرام حمامة بيضاء فاتنة . كيف وقع فى غرامها ولماذا ؟ ما كان بإمكان أحد ولا حتى سيد آلهة الإغريق ، أن يعرف . كل ما هناك أن حبًا جارفًا نبت فى قلب ذلك الطائر الجارح الفظ ، فمضى يغازل الحمامة البيضاء . كان ما أن يراها خارجة من عشها حتى يهبط فيكاد يلامس الأرض ، ويريها ما يستطيع أن يأتيه جناحاه القويان ، ثم يوجه إليها من بعيد أعذب الكلمات . وباختصار ، سعى بكل الطرق إلى أن يدلل لها على حبه .

أول الأمر ، كانت الحمامة تحس بالخوف منه ، وتعمد إلى الاختفاء ما أن تراه ، متصورة أنه يريد أن يمسك بها ، وينشب فيها مخالبه لافتراسها . إلا أنها بعد أن لاحظت المرة تلو المرة أنه كان بإمكانه أن ينقض عليها لكنه كان يحجم عن ذلك ، وتبينت ملاحقته لها وسمعت كلامه الرقيق ، فهمت فى النهاية . وعندما فهمت راق لها الصقر .

كان شرسًا قويًا . وما كان يرقُّ إلا لها . كان جد مختلف عن رفيقها الذى يظل راقداً على البيض عندما تهرع لترى الزهور والشمس أو لترى ، وهذا منذ أمد ليس بالبعيد ، الطائر الوسيم . كان الزوج المسكين يكرر كل يوم الحديث عن التوافه ذاتها ، عن الغذاء والعش ، عن الحر والبرد . أما الصقر الرشيق فما كان يشير إلى مثل هذه المشاغل اليومية ، بل كان يتطرق فى حديثه إلى موضوعات أخرى . ما كان ينطق إلا بكلمات عذبة ، وإن كانت غريبة ، وبعبارات تخلب اللب . كان واضحًا أنه لم يكن يتوانى عن أى شىء يغرى به الحمامة الوديعة .

وعلى المدى الطويل ، لم تعد لديها بطبيعة الحال القدرة على المقاومة . كانت مسحورة به . وذات يوم ، قبلت أن تذهب للنزهة معه .

قالت له :

– لكننى لا أريد أن يرانا أحد . أين نذهب ؟

أجابها :

– سنصعد عاليًا فى السموات . أنت تعرفين كم هى زرقاء ، هذه السموات .

– أجل ، إنها لكذلك . لكنها تملؤنى خوفًا . .

– ولماذا تخافين ؟

– لأنها رحيبة ، رحيبة وغامضة .

– وهل تعتقدين ، يا حمامتى الغالية ، أن الأرض صغيرة ، وأننا نعرف أرجاءها كلها ؟

– عشى تحت السقيفة صغير . والأحجار التى أخرج إليها لأنعم بالشمس جد قريبة. والحدائق التى ألتقط منها غذائى مجاورة. كما أنها زاخرة بالزهور والورد .

– وهى مليئة بالحسك والشوك أيضاً . أما السموات فهى خالية من ذلك .

– ولكن يا صقرى المتوحش ، السموات تحتوى على صواعق زيوس !

رد عليها ضاحكًا :

– إن صواعق زيوس ، لا تبرق إلا نادراً . وعندما تبرق فإن وميضها يضفى مزيداً من الوضوح على ما يزخر به الفضاء من جمال وشاعرية . وسواء ومضت فى زرقة النهار أو فى سواد الليل فإنها تبعث إلى العالم برسائل غامضة مكتوبة بأحرف من ذهب . يجدر بك أن تكرهى الحسك والشوك الذى لا يصدر عنه وميض ، ولا ينقل أية رسائل .

– ربما كنت على حق ، ولكنى جناحىّ أضعف من أن تجابهها السماء وصواعقها .

– جناحاى ليسا ضعيفين ، وسأكون بجوارك . سيحميانك أنت وحلم حبنا . تعالى ، تعالى ، يا كنزى الثمين ، نوقى هذا الحب فى حضن الأثير ، ذلك القصيد الأزرق . تعالى ! إنه المكان الوحيد فى العالم الذى يليق بهذا الحب الفريد بين صقر قوى وحمامة بيضاء رشيقة. تعالى ، لاتترددى .

– إننى أرتعد ، يا صقرى الشجاع . أتردد .

– يجب أن لا تخافى أبداً مما هو جميل ، ولا أن تجزعى عندما يوشك الحلم أن يصبح حقيقة . إن الجمال بانتظارك ، والحلم أيضًا . تعالى ، يا كنزى الذهبى !

معا ، فتحا أجنحتهما وطارا . وكيف كان بإمكانها أن ترفض أن تتبعه ؟ إنه يقودها إلى الجنة ، تلك الجنة التى كانت تقنع فى ذلك الحين بتخيلها ، وها هى تكاد تصير بالنسبة لها حقيقة .

راح الصقر يتمهل قدر الإمكان فى طيرانه ، بينما مضت الحمامة تضرب بجناحيها بأقصى سرعتها . وأخذا يرسمان بحركتيهما دوائر صاعدة حتى وصلا إلى ارتفاع جد شاهق .

سألها :

– هل ترين كم هو جميل المنظر من هنا ؟ لم يقع ناظراك على ما هو أبدع قط .

أجابته قائلة :

– إنه رائع حقا ، رائع ، لكننى أشعر بالتعب .

تأثر بحبهما زيوس ، الذى كان لا يكاد يفرغ من حب حتى يقع فى حب غيره ، فأصدر أمره إلى سحابة هينة أن تنساب إلى جوارهما ، سحابة صغيرة تكاد تتسع لهما ، وتكفى كثافتها لتحملهما .

وسرعان ما لمحت عين الصقر المدربة هذه السحابة ، فقال للحمامة :

– بدلا من أن يرسل زيوس صاعقة ، أرسل إليك سريراً ناصعا . تعالى لتستريحى .

توجهت الحمامة مسرعة إلى الفراش الربانى . ولكن ما أن رقدت عليه حتى انقض عليها الصقر بقواه كلها . وقال لها :

– إن آلهة الأوليمب يباركون الحب . ولهذا فإنهم يهدونك فراش الأحلام . وعلى هذا المرقد الوثير بعيداً عن دمامات الأرض ، وفى أحضان هذه القبة الزرقاء قريبًا من الشمس الذهبية ، أمرت الآلهة أن تصيرى لى ...

لم يكن لدى الحمامة الصغيرة متسع من الوقت كى تدافع عن نفسها أو تعلن اعتراضها . وربما كان التعب قد نال منها ، وخشيت أن تهوى ساقطة من هذا السرير الضيق الذى منحه لها زيوس . وربما أيضا لم تكن لديها الرغبة فى أن تقاوم . ما من أحد يعرف ما قالته فى أعماقها الداخلية ، أو ما إذا كانت قد قالت شيئًا على الإطلاق. وعلى كل حال أصبحت له ..

ولكن ما إن أطلق الصقر سراحها ، وأحست بلذة مفاجئة وغير معروفة تجتاح جسمها حتى انتاب الحمامة العفيفة الخجل ، وذلك لأنه على خلاف ما يجرى بين البشر فإن الإخلاص بين الزوجين هو عند الحمام القاعدة السارية .

ويالها من خيانة تلك التى ارتكبتها ! ومع عدو لبنى جنسها ، يطارد أقرانها ويفترسهم . إلى أين سيقودها هذا الطيش غير المعقول ؟ كيف سيمكنها الحياة بعيداً عن الأمان تحت الأسقف ؟ وأى حياة سوف تكون تلك هناك فى الأعالى بين السحب ، أو على قمم الصخور المقفرة ؟ يا إلهى ، ماذا سوف يكون عليه الغد ؟

وبدون تفكير ، ألقت الحمامة الصغيرة بنفسها فى الفضاء . تذكرت كيف رأت الصقر يهبط من أعالى السماء ، تذكرت النحو الذى يلصق به جناحيه إلى جسمه مثل شفرتين من رقائق الصلب ثم يغطس ، ورأسه إلى الأمام ، نحو الأرض . لماذا إذن لا تكون بدورها قادرة على أن تنزل بالطريقة ذاتها التى ينزل بها هو ؟ سوف يمكنها ذلك .

وغطست ، مستوحية منهجه . وكان هبوطًا مدوخًا مسكرًا ، ولكنه كان أيضًا هبوطًا عن ثقة .

وفقط عندما رأت نفسها قد اقتربت من الأرض ، تبينت فجأة أن القفزة أكثر خطورة مما توقعت . فبسطت جناحيها واستحالت الشفرتان الرهيفتان من جديد إلى ريش شامخ . حركتهما قليلا فى الهواء الفاتر الصاعد من الأرض ، وبرفق حطت الحمامة على النجيل الأخضر ، ثم جرت تختبئ فى عتمة عشها إلى جوار خلها الوفى الوديع .

وطوال أيام عديدة ، لم تتركه ولم تبتعد عن جواره . وراح الطائر الحصيف الذى يراقب أرجاء الناحية بنظرات حذرة ، يحكى لها أن ثمة صقراً غاضباً بدت عليه نوازع الشر جلية يحوم ليل نهار من حولهم . وأكد لها أن الأفضل ملازمة العش حتى لو كان فى ذلك معاناة من ضيق الأنفاس بعض الشيء .

وفى الصباح أبلغها أن الطائر الجارح قد اختفى .

لم يعد الصقر الولهان يظهر فى الأفق ، كما لم يعد أحد يعرف ماذا جرى له .

ولكن منذ ذلك اليوم ، سواء بحثًا عن طائرها الوسيم ، أو رغبة فى إحياء ذكرى حلمها القديم ، مضت الحمامة البيضاء تكثر من مغادرة عشها . صباح مساء ، فى زرقة السماء ، والشمس تلمع على أديمها ، كانت تطير عاليًا جدًا وتختفى بعض الوقت فى الفضاء كى تنزل بعد ذلك ، كما نزلت من قبل ذلك اليوم المبارك ، يوم أن عرفت الحب الكبير .

لم يكن خلها الأمين يفهم لماذا تعمد إلى هذه اللعبة الخطرة ، ولم يكن يحنو حنوها قط . ولا حتى صغارها كانوا يفهمون هذا الذى تقدم عليه أمهم ، وإن كان ذلك لم يمنعهم من أن يجربوا معها ، وأن يشعروا بلذة ما يفعلونه ربما كان بعض هؤلاء من سلالة الصقر . أو ربما على العكس من ذلك أيضًا ، كانت ومضات الصواعق الربانية والخطر المهدد يجعلهم أشد التصاقا بعشهم المظلم الخانق ولهفة للعودة إليه ، فينقضون من عليائهم إليه نازلين . ولا حتى زيوس نفسه يمكنه أن يقول فى هذا الشأن قولاً قاطعًا . كل ما كان معروفًا أن أولاد تلك الحمامة وأحفادها وأولاد أحفادها مضوا يواصلون الرحلة الرومانسية التى كانت تخرج إليها الجدة العاشقة .

ذلك هو أصل اللعبة التى يؤديها « الحمام المنطلق كالسهم » تلك اللعبة اللا معقولة التى لا يعرفها سوى أولئك الذين قضوا بعض الوقت فى مدينة أو قرية من مدن وقرى اليونان الشمالية .

وهذا «الحمام السهم» طيور رشيقة ، طويلة المناقير ، وجناحاه يشبهان شفرتين من رقائق الصلب. يحتفظ بها فى أبراج صغيرة دائما. ولكن عندما تصفو السماء ولا يهطل المطر ، يخرجها أصحابها فى الصباح والمساء . ويدفعونها إلى الطيران مشجعين إياها بالصوت

والإيماء ، فتصعد إلى ارتفاعات شاهقة فى السماء راسمة فى صعودها حركات لولبية رحبية . وكثيراً ما ترقى إلى أبعاد تجعل من الصعب على من يتطلع ناظراً إليها أن يميزها . وحينما يدعونها فإنها تنزل على هيئة انقضاض عمودى فى خط رأسى لا انحراف فيه ولا تعرج .

عديدون هم أولئك الذين فى اليونان الشمالية ، قد حضروا هذا العرض المثير ، الحافل بالحماسة والجسارة والبهجة . لأن الكثيرون هناك يقتنون ويربون حماماً من هذه السلالة .

الأحزان

إيمانويل ليكوذيس

حدث ما سأرويه لكم في ميناء بالمضيق الكورينثي ، على شاطئ اليونان الوسطى ، عند مرفأ تنعكس على صفحة مائه ، مثلما في مرآة ، البيوت وقد اصطفت في خط مستقيم بلا كثافة ، ويلوح أمامك جبل الموريّاس الذى تتوجه عاليا قمم سيرياس ، وإن شئتم فلننقل إن ما سأرويه لكم قد حدث فى فيترينيتسا أو فى إيتيا .

على مبعدة قليلة من الشاطئ ، رست سفينة شراعية ، جميلة الشكل ، قشيبة الصنع ، ناصعة البياض كما لو كانت قد نزلت تتهادى من النجوم . كانت السفينة مهيأة للإبحار . بدا ذلك واضحا من العلم المرفوع بأعلى صواريها ، وأشرعة المقدمة والمؤخرة المنبسطة كلها على السواء .

رأيت فجأة قارب النجاة يحل من مؤخرة السفينة ، ويخرج به بحار وحيد يمسك بمجداف الخلفية ويديره مثل عجلة قيادة ، وعند الحافة الأمامية وقف كلب من كلاب السفن يعوى عواء حزيناً .

رسا القارب عند الساحل الرملى ، أمام صف من الدكاكين ، وعلى وجه التحديد أمام قاعدة نصبت بأعمدة غرست فى البحر ، كى يأخذ هناك عشاق التدخين نراجيلهم دون أن يتكبدوا مشقة النزول إلى الشاطئ . رسا القارب ، فرأيت البحار يمسك بالكلب الأسود من ظهره وعنقه ، مثلما يمسك بشاة ، ويدفعه بقوة ملقيا به إلى اليابسة . وما إن ألقى به حتى انطلق بضربات شديدة من مجدافه مندفعا بسرعة نحو السفينة .

لكن الكلب ألقى بنفسه إلى البحر ، فى أعقاب القارب ، ومضى يسبح وهو يعوى عواء حزيناً ! انكب البحار على مجدافه الوحيد جاهدا قدر إمكانه أن يقطع بقاربه أقصر طريق ، ولكن الكلب بدوره ، يائسا ، راح يضرب الماء بسيقانه حتى لحق بالقارب .

رفع البحار المجداف وقد توحش غضبه ، وضرب الحيوان التعس على رأسه ، قائلاً : « بعيد المنال عليك ذلك ! .. أظننت أنك ستعود من جديد إلى السفينة ؟ » .

أطلق الكلب التعس عواء أكثر حزنا ، ربما من شدة الألم ، أو ربما من شدة الجرى . ولم يحاول بعد ذلك أن يمضى فى إثر القارب ، بل راح يضرب الماء بسيقانه ، بلا هدف ، وبلا قصد ، لمجرد ألا يغوص فى اللجة .

لحق القارب بالسفينة . ربط البحار القارب بمؤخرتها ، وقفز إلى ظهرها ، وهى ماضية فى الإقلاع . اصطكت السلاسل بشدة ، ثم رفعت المرساة إلى الداخل . كانت الريح تهب طيبة من الشمال الغربى ، وفى التو انتفخت أشرعة السفينة بالهواء وانسابت فى اليم مثل ثعبان

المـاء . تـاركـه خلفـهـا شـقـا يفـور بالزبد ، متجـهـة بسـرعـة ومضـاء نحـو بحر إيجة .

ظل الكلب يعوى ، يدفع الماء من حـولـه مـغلوبا على أمـره يتـخـبط مـيـمـا شطر الأغوار البعـيدة حيث رحلت السفينة . ولكنها كـانت قد ابتعدت كثيرا ، وفى النهاية أطبق عليه اليأس . أدار رأسه نحو اليابسة ، وبعنـاء وجـهـد كبـيـريـن تمـكـن مـن الخـروج من الماء ملقـيا بنفسـه مثل جثـة هـامـدة على أكـوام الطحـالب التى كـدسـتـهـا هبـات الريح ، تحت القاعدة التى قلت لكم إن صـاحب المقـهى كـان قد أقـامـهـا على أعـمـدة غرسها فى الماء .

وما أن بلغ الكلب الشاطئ حتى نهض واقفا ، مـاداً رقبته ، مـاضيا فى نبـاح يمزق الفؤاد ، وهـو يلمح صـوارى السـفـينة البـيضـاء تغـوص مختفية باهتة فى ضباب البحر الرحيب . كانت بطنه تنتفخ بالهواء الذى يستنشـقـه بشـدة ، وترتـعـد فرائصـه بـردا ، وتسـيـل مـن عليـه قطـرات الماء المالح ...

كنت أراه هناك طوال ثلاثة أيام ، وقـد أقـعـى لايغـادر مكانه على الشـاطئ ، ولا تحـيـد أنظاره عن عـرض البـحـر أبـدا . حـملت إليـه هناك تحـت تلك القـاعـدة علـى الشـاطئ بعض العظام وكسر الخبز ، ولكنه لم يقرب شيئا منها ! ومـا أراد حتى أن يتشمم طعاماً . وقد راح جسده يضـمر ، ولا تقوى سيقانه على حمله من شدة الضعف والهزل . فإذا دعته الحاجة إلى القيام بدت أطرافه كما لو كانت قد أصيبت بالكساح . ونفرت من تحت جلده الضلوع .

كانت الأولاد تسومه مر العذاب ، لأنه كلب من غير صاحب ، وعلى حد قولهم كلب من كلاب الشوارع . كانت الحجارة تنهمر عليه مثل المطر المدرار ، فتصيبه بمزيد من الرضوض والأوجاع . ولكن الغريب فى الأمر ، أنه لم يكن ينوى أن يغادر مكانه . هناك تحت أخشاب القاعدة ! ومن يدرى ؟ ربما خيل له أنه هناك تحت سقف سفينته وبيته . وعلى الرغم من كل شىء ، فقد أنزل به الأولاد من صنوف العذاب ما جعلنى أتساءل كيف أنه لم يلق بعد ؛ حتفه على أيديهم .

ذات يوم ، بعد أن لاطفته كثيرا ، عقدت منديلا حول عنقه ، وأردت أن آخذه معى إلى بيتى الذى كان على مقربة من الشاطئ .

تبعنى بلا ممانعة ، وهو يهز ذيله .

وعندما وصلت إلى البيت فضضت المنديل من حوله عنقه ، وربت على جسده كثيرا .

نظر إلى بعينى كلب مخلص نظرات مفعمة بالود والعرفان بالجميل . عينان ، وإن كانتا عينى حيوان إلا أنه قد ارتسم فيهما كل ذلك الأسى العميق الذى يمزق روحه ، وبعد أن لعق يدى ابتعد منصرفا بخطوات ثقيلة . وما لبث بعد هنيهة أن أدار رأسه ، والتفت نحوى هازا ذيله ، وعاد ينظر إلى من جديد بعينيه المتألمتين ، ثم غاب مبتعدا .

أحسست بأحاسيس ذلك التعس . لم يكن يريدنى أن أسيء فهمه . كان فمه عاجزا عن الكلام ، ولكن النظرة الشجنية بدت كما لو كانت تقول لى : « لا تعتقد أننى ناكر للجميل ، لكننى أريد أن ألفظ أنفاسى

الأخيرة هناك تحت أخشاب القاعدة حيث يبدو لى المكان شديد الشبه بسفينتى . هناك ، أريد أن ألفظ أنفاسى متطلعا إلى عرض البحر ، مستنشقا رائحة الملح التى تأتى بها الريح » .

ولكن كم كانت هذه الريح تزيد من آلامه !

هناك ، تحت ذلك الركام العطن الذى اختبأ فيه ، عندما كان البحر منخفضا والماء جزرا ، كان يتاح للمسكين شبران من اليابسة يبقع عليهما منكمشا على نفسه ، راقدا بين الطحالب المبللة . ولكن عندما تهب الريح ، ينتفخ البحر وتغمر مياهه ركامات الطحالب كلها ، وتغطى الكلب واقفا حتى بطنه .

ولكنه لم يكن يتزحزح عن مكانه هناك . فقط عندما كان يسمع صليل سلاسل مركب يلقى بمرساته ، كان ينهض ، ويخرج من فجوته المظلمة ، يتفحص البحر بنظراته ويتشمم الهواء . وعندما يقترب من الشاطئ قارب ، يجرجر نفسه إلى هناك هازا ذيله للبحارة لكنهم كانوا يرجمونه بالحجارة ، لأن سمات السعار كلها اجتمعت فيه ، فى هذا الكلب القذر اللعين . كانت عيناه الغائرتان تلمعان ، وكان يدس ذيله بين فخذيه على الدوام .

وفى النهاية ، قرار أصحاب الدكاكين على الشاطئ أن يربطوا فى عنقه حجرا ، ويغرقوه فى أعلى سلم الميناء الخشبى ، لأنه كان يعوى كثيرا فى الليل ، فيثير جواً من النحس يدعو الموت إلى اختطاف الأرواح .

وقد عانيت كثيرا ، وتوسلت إليهم أن يغيروا من رأيهم هذا . مضيت أقول لهم إنه إنما يبكى من شدة حزنه ، ولكن ما من أحد كان

يريد أن يستمع إلىّ . أما الذى جعلهم يسكتون ويعدلون عما كانوا يزمعون فهو ما أخبرتهم به من أننى أعرف عن هذا الكلب أنه لا يقرب طعامًا ، وأنه خلال يومين ، على الأكثر ، سينفق وحده .

جاءتنا بالأمس سفينة صيد ذات أشرعة بيضاء ، وعند الفجر ، فى الثالثة بعد منتصف الليل تقريبا ، كنت فى قاربها ألقى الشباك ، كى أرفعها عند طلوع النهار .

كنا قد أوغلنا إلى عرض البحر كثيرا . وعلى الرغم من ذلك ، بينما كنت أرمى الشبكة ، تناهى إلى سمعى مع هبات الهواء الوافدة فى تلك الساعة من اليابسة عواء الكلب واهنا يلفظ أنفاسه .

وبعد قليل ، على الرغم من أن الموج قد دفع بنا على مقربة شديدة من الساحل ، ماعدت أسمع صوته . كان ذلك وقت أن بزغت من وراء جبال نيسفيناس نجمة الصباح .

لم أعد أفكر فى الكلب ، وانهمكت فى صيد حتى طلعت الشمس . أخرجنا شباكنا كلها فى النهاية ، ويممنا صوب الشاطئ عائدين .

هناك على الرمال ، عند حافة الماء ، كان يرقد الكلب ، بالهيئة التى يرسمون عليها أبا الهول ، ساقاه الأماميتان ممدودتان ، ورقبته مشرئبة ، وعيناه مصوبتان إلى عرض البحر تحدقان بعيدا .

لكنه كان ميتا ، كانت عيناه المحملقتان منطفئتين زجاجيتين ، وكان جسده متخشبا .

وعندئذ قال الصبى البحار الذى يمسك بمجداف قاربى :

– ياه ، إنه الأعرج ! يا للكلب المسكين ! قالوا كلمتهم ، ونفذوا ما قالوه ، أولئك الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ...

هذه الكلمات المفعمة بالأسى على الحيوان المسكين شدتنى إلى البحار الصغير ، وجعلتنى أحس بالتعاطف معه ، فقلت له :

– أتعرف ، يابنى ، هذا الكلب ؟

– وكيف لا أعرفه ؟ إنه الأعرج ، كلب سفينة من جزيرتى . سفينة نيكولوستامبا . قالوا إنهم سيطرونه وقد فعلوا .

– ولماذا طردوه ، يابنى ؟

– لم يكن شريرا على الإطلاق ، مهما فعلوا به . ضربوه ، شدوا وثاقه بالسلاسل كى يثيروا ضراوته ، ولكن دون جدوى ! كلاب السفن ، كما تعرف يا سيدى ، يجب أن تكون شرسة ، متوحشة ، يجب أن تعلو أصواتها بالنباح ، وتكشر عن أنيابها . أما هذا الكلب ، فقد ولد وديعا طيبا . كان يهز ذيله لكل من تطأ قدمه السفينة . لم يكن يعتبر أحد لصا ، لم يكن يتوجس فى إنسان شرا ...

حقا ، كم كنت مخطئا أن أظن إلى تلك اللحظة أن الإنسان وحده تقضى عليه طيبته !

دروب وعرة

ستراتيس تسيركاس

دفعة فى إثر دفعة ، تركته يأخذ منى ما يقرب من مائة جنيه ، على أمل أن يقرر الزواج بى . كم شقيت وامتهنت حتى أجمع تلك الجنيهات الثلاثمائة التعسة ، بائتى التى ليس لى غيرها. أيتها الداعرة ، بهذا النعت ، فى غدوى ورواحى ، كان يسبنى المعارف والأغراب .

لكن ذلك اليوم اللعين من أيام الآحاد ، كنت على استعداد أن أعطيه كل ما يطلب . مضى عليه أسبوع ولم يحضر ، وقد تعودت أن أراه يوماً بعد يوم ، أو على الأكثر كل يومين ، فكنت على أحر من جمر ، أنهش نفسى . قلت : "إلهى ، فليأت برهة فحسب ، يشرب قدحًا من القهوة ، ولا يعنينى أن يرد إلىّ الجنيهات المائة ، بل سوف أعطيه غيرها. حلال عليه ! "كنت قد ألفته كثيراً . أحببته .

كلما سمعت المصعد يصعد ، ينتابنى شعور غريب . تتقطع أنفاسى ، وتهن ساقاى ، كما لو كانتا قد صنعتا من القماش . ساقاى الاثنتان ، السليمة والمريضة على السواء . أنهض وأذهب إلى الباب . لكن لم يكن

ثمة أحد آت إلينا . المصعد يقف في طابق آخر ، فأعود وأجلس مع فولا في غرفة الاستقبال الصغيرة .

لم يكن لدنيا فساتين نحيكها ، ولم نكن ننتظر زواراً . خرجت الفتيات مع أصحابهن ، ينعمن بيوم الأحد . وكان الجو مشمساً ، وبهيجاً . كنا في يناير ، ويخيل لك أننا في الصيف .

ظللت أنا وفولا ، مثل البوم ، محبوستين في العتمة . راحت تقول لي ما ألفت أن تردده على الدوام ، حكايات عن أرواح ، وجرائم قتل ، وأمراض ، وإخفاقات ، وسحر ، ومن وقت لآخر ، تزج بالقديس فانوري في حديثها .. روحي تنقبض .. هذه المرأة تملأني تعاسة . لا أذكر قط أنها خلعت ثيابها السوداء ، التي تفوح منها رائحة الجثث "اسكتي ، اسكتي ، من فضلك ! أنزلي القدر من النار ، وقدمي لنا الأكل " .

انتظرناه طويلا . على المائدة خيم علينا الصمت . كنا نزدرد الطعام بصعوبة . بين الحين والحين ، ترفع فولا عن صحنها عينيها المصابتين بالحول ، وتنظر إليّ . كانت تتحين فرصة أسمح لها فيها أن تعاود حديثها المكرور من جديد .

قلت إنه سوف يأتي ساعة تناول القهوة . اعتاد ذلك . ولكن حتى آنذاك لم يظهر .

في الثالثة اتخذت قراري . قلت : "فولا ، ارعي البيت . إني ذاهبة . سوف أتظاهر بأنني أمر أمام البيت . ربما كان مريضاً ولا نعرف نحن ذلك . على أسوأ الأحوال ، لنقل إنني قمت بنزهة في هذا الجو المشمس ..."
قالت لي : "كما تشائين . احذري فحسب أن تلتقي بزوجة أخيه ، لأنها

سليطة اللسـان . إنه يقطر سمـا . أخبرتك بما كانت تقوله منذ أيام لستيليانا بشأنك" . قاطعتها قائلة : "أعرف ، أعرف !" ونهضت أغير ملابسي .

انكمشت فولا في ثيابها السوداء ، وتمتمت بشيء ، عن فطيرة القديس فانوري التي مادامت قد خبزت ، فإنها سرعان ما ستحقق ما نذرت من أجله .

كان يقيم مع أهله بعيداً ، على مشارف المدينة ، في حي فقير ، يكتظ ببيوت واطئة وتتناثر فيه الحقول . في الترام كنت قلقة خشية أن أتوه في الأزقة ، ولا أعثر على بيته . شرحت لي فولا ماذا أفعل كي اتفادى طريقا أطول . قالت لي : "الأمر سهل" قلت لها : "يبدو الأمر سهلا لك أنت . أما أنا التي تختلط عليّ الشوارع ، وبساقي هذه ... فالدروب وعرة .."

كان هذا الأمر يشغلني ، فلم أكن أرى الشمس الساطعة بالخارج . ثم انصرف ذهني إلى أمر آخر. ماذا لو كان مريضا حقا؟ مريضا للغاية ؟ كيف أتبين ذلك ؟ ربما ستكون أمه في الشرفة ، وتراني أمرُّ ، فتناديني. في لحظات مثل هذه تحدث أمور كهذه . ربما تشفق علي وتدعوني للدخول ، وذلك – إن شئنا القول – كي تدخل البهجة إلى قلب ابنها .

كنت أبتسم وحدي . ولكن كيف أنسى ماقالته زوجة أخيه لستيليانا ؟ ذهبت زوجة الأخ إليها ، تذم حماتها : "أتعتقدين أنها طيبة ؟ أنت

واهمة ! إنها عجوز داهية . حفظنا الله من شرها . ألم أخبرك ماذا قالت عن صاحبته ؟ قالت أفضل أن أراه لصا قاتلاً ، معلقًا في المشنقة على أن أتركه يتزوج هذه العرجاء العاهرة . إذا كان يلهو معها ، ويضمن مصروفًا لجيبه ، إيه ، فإني أتظاهر بأنني لا أفهم . أما إذا تعلق الأمر بالزواج ..." هذا ما أخبرتني به فولا نقلا عن ستيليانا . على أنني كنت أعود فأقول لنفسي ربما لم تقل ذلك ، ولا حتى دار بخلد العجوز ، ولكن تشيعه زوجة ابنها ، فهي تعرف أن هذه الأقوال ستصل إلى سمعي ، وهي تعاديني ، كما لو كنت قد ارتكبت في حقها جرما . وأنى لي معرفتها ، هذه القذرة ؟

وهكذا تارة أبتسم وتارة يخيم عليَّ الوجوم ، حتى وصلت إلى النبي إيليا دون أن تبين ذلك . صعدت الدرجات وأوقدت شمعة كبيرة من فئة الخمسة قروش ، أمام أيقونة القديس استيفان ، راجية أن يكون مريضًا حقًا . قبلت أعتاب النبي وخرجت . اجتزت الفناء ، كما قالت لي فولا ، ووجدت الباب الخلفي مواربا .

ولكن ما أن وطأت قدمي أرض ذلك الدرب حتى انتابتني رعشة ، كما لو كان ثمة ما ينذر بالسوء . جلدي الذي كان قد اتقد في الشمس صار الآن جعدا . على الجانبين حوائط ، ومن وراء أسوار البساتين تميل أشجار ، تطل على الشارع . تتلوى أغصانها المعقدة مثل خصلات معزولة على هيئة قناطر خضراء وكهوف قاتمة . عصافير صغيرة كانت تملأ الجو بزقزقتها . ثم ترفرف أجنحتها فجأة ، وتطير معا مبتعدة . كان الشارع الطويل تقطعه من وقت لآخر أزقة تصب فيه مثل أبسطة من أضواء معتمة .

أخذت أسير . من يسارى ، خلف سور أحد البساتين نبح كلب . أحسست بساقي تميدان من تحتي . كنت أخاف الكلاب دائماً .

لم أتوقف . عندما اقتربت من الزقاق الثالث إلى اليمين لمحت البيت ذا السقف المهدم عند الناصية . خفق قلبى بشدة خلته سيتحطم ، ومن ورائى كان الكلب ينبح .

تظاهرت بأنى أمر من هناك غير مكترثة . فى الشرفة وقفت أمه العجوز . كانت ترتدى منديلاً جديداً ، ولكن إحدى عدستى نظارتها كانت مشروخة . ومن وراء الزجاج اتسعت عينها واكتست ضراوة . بدت كما لو كانت ترقبنى وتتجسس على . قلت لنفسى : "لو تزوجنى ، سأشترى لها نظارة جديدة فضية الإطار ، ولها جراب" .

هتفت العجوز منادية "فانجيليو ! "كانت فانجيليو ابنتها . ترملت وأقامت بدورها هناك مع أطفالها . قلت ستيليانا لفولا إنها لم تكن على وفاق مع الأرملة الأخرى ، زوجة أخيها سليطة اللسان .

وفى البيت أيضا يعيش يورغيس شقيقهم الأكبر ، النجار . ذات يوم كانت هذه الأسرة من الأسر الكبيرة . ولكن الموت نزل بمنجله وحصد وفرّق الأزواج . وكم يحل الخراب بالأسر عندما يحط مرض السل على رجالها ! .

لم أكن أعرف ماذا أفعل . هل أقف ، وأقول : "مساء الخير . ما رأيك فى هذا الجو ؟ "كى أتظاهر بأنتى أبحث عن بيت بعض الناس ... كنت أعرفهن ، وهن يعرفننى ، لكن كلا منا كانت تتظاهر بأنها لاتعرف الأخرى .

جبنت ، ومضيت فى سيرى . سمعت شباكا يفتح . أكانت فانجيليو ؟

صاح صوت ينادى : "ستيفان ! "كما لو كانت النار اشتعلت بالبيت ، أو أن اللبن فار فى إنائه على الموقد . دارت رأسى . أحسست قلبى يتخلع ، ويسقط متدحرجا من مكانه . تعثرت خطواتى . ماذا يجرى ؟ هل سيخرج هو الآن ، ويطل من الشباك ؟ .

أجابها أحد الصبية ضجرا : "ماذا تريدين ؟ "كان ابن الأخت ، ابن فانجيليو ، وكان اسمه ستيفان أيضا . لم أستدر لأراه . كانت ساقى المريضة تزحف على الأرض وتثير ترابا . خيل لى أنى أسمع ضحكا ورائى .

إلى يسارى ، زقاق أعرفه ، يقود إلى ساحة أقيمت عليها عمارات . بسطح إحداها تقيم كولا ، صديقة قديمة . لكنى لم أستدر لأدخل هذا الزقاق ، قلت لنفسى فلأمض إلى نهاية الشارع وأعود على مهل ، كى ألقى نظرة أخرى .

على مبعدة من هناك ، كانت فيلا عصرية ذات سور من قضبان حديدية . ليس بحديقتها أشجار . أرض خضراء فحسب ، وقليل من شجر الورد ، وأرائك ، ومنضدة صغيرة وضع عليها طقم للشاى . ويا للغرابة ، من أرى جالسا هناك ؟ السيد ديمتراكى ، أحد زبائنى . كان يتردد علينا . فقد كانت له عشيقة من الشغالات عندى ، بنت سمراء نحيلة ، شديدة الدلال كثيرة النزوات . أما الآن ، فهو يجلس ، وقد فتح صدريته ، مستغرقا فى القراءة . زوجته امرأة مهندمة ، لاتزيد على الخامسة والثلاثين من عمرها ، بيضاء الذراعين كانت دائبة الحركة ،

تعد الشاى . سوف يقول من لا يعرف الحقيقة يالهما من زوجين متآلفين ... تذكرت يوم أن أغمى عليه ، فدلكناه بالكولونيا ، تذكرت حمالة سرواله وبطنه المنبعجة . وقد أنشدنا نغنى ساخرين منه :

"يامدراكى ، يامدراكى ، لاتناسبك السمنة ، أيها البدين .."

لمحنى . طوى صحيفته ، ونهض يرمقنى فاغرا فاه ، كما لو كان قد رأى الشيطان أمامه . مضيت فى سبيلى ، ووصلت إلى آخر الشارع ثم قفلت راجعة ، بخطوات بطيئة حتى لا أرهق ساقى . مررت من جديد أمام الڤيلا . جلس الزوجان الآن يشربان الشاى . عندما رآنى ارتبك من جديد .

سمعته يسأل زوجته : "من هذه ؟ "كما لو كان يقول لى : "لا تأتى إلينا . ترين أننى أتظاهر بأننى لا أعرفك" . أما أنا ، فما كان حتى خطر ببالى شىء من هذا القبيل . أكان سيعلمنى مهنتى ؟ لكنى وددت أن ألقنه درسا على مابدا منه حينما رآنى ، قلت لنفسى : "دعك منه الآن . سيأتى دوره يوما" .

وصلت إلى البيت ذى السقف المهدم . رأيت ستيفان الصغير منكباً على دراجة أسندها إلى الأرض . أخذت أهتف إليه فى قرارة نفسى متوسلة : "أين خالك ، أين خالك ، يا حبيبى ؟" .

كانت الشرفة خالية ، والنوافذ مغلقة . أكان يرقبنى من ورائها أحد ؟

تعالى مرة أخرى صوت ينادى : "ستيفان" ودب الرعب فى أوصالى من جديد . سرت فاقدة الوعى ، مثل مخمور ، حتى الكنيسة .

ولكن بدلا من أفـتح البـاب الخلفى وأرحل ، عـدت إلى الشـارع ذاته ، بخطوات عرجـاء . ثمة مايجذبنى . كنت أتوق حتى الموت إلى أن أراه ، أن أعرف أحواله .

كان الصغير صاحب الدراجة قد انصرف . لم تكن ثمة بادرة على وجود إنسـان . شباك واحد ظل مفتوحا ، ومنه بدا سرير حديدى يغطيه دثار ناحل ، ومرآة صدئة ذات إطار خشبى مذهب شديد القدم . ولكن مرة أخرى انطلق صوت يقول : "ستيفان ! أطرد الشحـاذة التى تجلس بالخارج !"

كـانت زوجـة الأخ ، سليطة اللسـان . آه ، كم أثر فى ذلك تأثيـراً سيئًا . خطر لى أن أقف . أفتح فمى وأصيح : "أيتـها القذرة ، أيتـها القذرات" ثم أقول : "أنا شحـاذة أم أنتن الشحـاذات ، تنتظرن لقمتكن من رجل واحد" . وكنت سوف أمضى فأتحدث عن جنيـهاتى المائة التى سلبـها منى - كنت سـأقول : "إذا ، كـانت حـماتك تلبس منديلاً جديداً وأنت حذاًء جديدا ، وفانجيليو خفا من الجوخ ويورغى العامل الفاشل ربطة عنق حـريرى ، فـأنتم مدينون بكل هذه النقـود لى أنا ، جـاء إلىّ عشية عيد القديس فاسيليو وطلبها منى" .

همـمت أن أتكلم . لكننى تمالكت نفسى وتركت غـضبى يتـبدد . واصلت سيرى ، لأننى لو كنت تكلمت لتكالبن كلهن ضدى ، وكان السير جيئة وذهبا قد أضنانى وأوهن قواى . تلهفت أن أعود إلى بيتى ، آه إلى بيـتى أعـود وأسـتـريح . ولكن مـاذا أفـعل ، وقـد كنت سـوف أصطدم بديمتراكى ، لو مضيت إلى الأمام خطوة ، أردت أن أجلس فى مكان ما هنيهة ، أشرب قدحا من الماء .

يممت شطرى إلى كولا . أعرف أن زيارتى لن تروق لها . كانت قد وفقت إلى الزواج من سائق قبرصى ، ورزقت طفلا ، بل وهى الآن فى انتظار طفلها الثانى . سعت المسكينة أن تقطع صلتها ، تقطع صلتها تماما ، بحياتها السابقة كلها . ولكن ماذا بوسعى أن أفعل أنا أيضا ؟ سأطلب منها كوبا من الماء فحسب ، وأجلس قليلاً أسترد أنفاسى من عناء السلم وأنصرف إلى حال سبيلى .

الطوابق أربعة ، ثم السطح . السلم مظلم ضيق ، درجات شاقة ، وعالية جدا . ظننت أنى لن أقوى عليها . وعندما صعدت ووصلت إلى السطح كانت بانتظارى فاجعة أخرى . لم يكن أحد بالبيت .

استندت إلى الحاجز وبكيت مليا . أحسست كأنى تخففت من همى . رفعت رأسى ، رأيت الشمس والبحر من بعيد قد غسلهما المطر ثم نظرت إلى الساحة حيث سمعت صوتا تحت . بعض الأولاد يلعبون الكرة بينهم ولد هزيل أحمر الشعر ، بساق كسيحة وعكازين لم يشركوه فى اللعب ، وتركوه يجرى يحضر لهم الكرة متى قذف بها بعيداً ، حتى لا يكلفوا أنفسهم مشقة إحضارها . كان المسكين يجرى ، يطوح ذراعه الحرة ، ويطوح ساقه الكسيحة ، فإذا مالحق بالكرة راح يركلها برجله السليمة ويدفعها بعكازه ، ويضحك وهو يلتقطها بيده ويقدمها إليهم . كان ذلك الفعل الصغير يملأه فرحا وهو ينظر إليهم . وعندما يتبين أنه تأخر فى إحضار الكرة ينحنى خجلاً .

ذلك الصبى أعاد السكينة إلى قلبى . قلت : "سوف أمر من جديد ، للمرة الأخيرة . قد يخرج للقائى وإلا فإنى سأمضى فى سبيلى إلى بوابة النبى إيليا ، ومن هناك إلى البيت" .

نزلت بعزم جديد . بل كنت أقول لنفسى ربما أكن قد أفرطت فى المرور أمام بيته . إذا كانت العجوز لم تتعرف علىّ فى المرة الأولى فقد رأونى مرتين فحسب . أهذا كثير ؟ ألا يحدث للمرء أن يمر بذات الشارع مرتين وثلاث مرات ؟ ثلاث مرات عدد كبير ، لكن مرتى الثالثة سوف تكون الأخيرة . سوف أنصرف ، وعندئذ فليقلن ما شئن . بعد ذلك أخذت أقلب قول زوجة الأخ عن الشحاذة . أذكر أنها لم تقل "التى تمر" أو "التى تحوم" بل قالت : "التى تجلس "وأنا لم أكن جالسة ، كنت مارة . ربما كان ثمة باب آخر بالخلف تجلس عنده شحاذة ، من يدرى ؟

كانت الشمس مائلة إلى المغيب . كنت أقول لنفسى إنه لو كان قد ذهب إلى سباق الخيل ، فقد آن ميعاده أوبته . آه ، تبا لهذا السباق ، كم يجلب من الأحزان . ولكن مهلا ، سوف أجد وسيلة لأضغط عليه ، وأصرفه عنه .

دارت كل هذه الأفكار بخلدى إلى أن وصلت إلى الناصية التى يقع عندها بيتهم . كانت النوافذ مفتوحة ، دون أن يبدو أحد . فجأة سمعت صوت رجل ، وخفق قلبى . اقتربت دون أن أعى من السور ، وأمسكت بقضبانه الحديدية . لكنه لم يكن ستيفان ، بل يورغى العاطل . كان يطلق الشتائم ويقول : "كل يوم فاصوليا ، حتى يوم الأحد ، أيها الصغير ، أحضر ، أحضر الأوزو . هيا ، قلت لك بسرعة . اركب الدراجة !"

هممت بالتراجع – ولكن وا مصيبتاه . ماذا أرى ؟ الجميع معا ، أمه ، وفانجيليو ، وزوجة أخيهم ، والصغير ، خرجوا بغتة إلى النوافذ

والشرفة ، ومضوا ينظرون إليّ ! خرج يورغى أيضا . يبدو أن الصغير كان يراقبنى .

أسقط فى يدى . خطوت متراجعة ، لكن اختلطت على الأمور ، بدلا من أن أسير فى الطريق الذى يؤدى إلى النبى إيليا ، دخلت فى الزقاق الآخر ، إلى اليسار ولم أكن أعرف إلى أين يقود . تظاهرت بعدم اكتراث من يمضى فى طريقه غير مهتم بشىء .. كان التراب طريا ، لم تكن قد وطأته الأقدام كثيراً من قبل . تعثرت مرة أو مرتين . انتابنى دوار شديد لم أعرف ما إذا كنت قد سمعت حقا ضحكات أم أن أذنى كانتا يدوى فيهما طنين .

وهناك سمعت حشرجة ورائى ، لم ألتفت ، لكننى حدست أن ثمة ظلا يقع علىّ . لويت رقبتى ، أحسست بالتراب يملأ أنفى ، ورأيت ستيفان الصغير راكبا دراجته يقف أمامى وسط سحابة . ثم خفف قبضته على الفرامل . ومضى يدور بالدراجة حولى . كما يفعلون بالسيرك .

انتابتنى لوثة . انتابتنى الرغبة أن أقتل الصبى الصعلوك . كززت على أسنانى ، ووسعت من خطواتى . لكى أرحل ، من هذا الشارع ، حتى لا يرونى . لكن الصغير ، كان هناك ، يعاود معى الحركة ذاتها ، مرة بعد أخرى . وكلما أمعن علت الضحكات .

غطانى التراب ، كانت أسنانى تمضغ التراب الذى دخل فمى ، وزال أحمر الشفاة من على شفتى ولطخ يدى . تصبب عرقى . والتهبت عيناى . وساقى مضت تزحف على الأرض ، آه ، آه ، كفى ! أردت أن أصرخ . وفى النهاية ، أخذت أجرى .

لكن ، وا مصيبتاه . الآن ، تجيء الفضيحة الكبرى . عندما رفعت رأسي برهت رأيت أمامي حائطا ، وعن يساري حائطا ، وعن يميني حائطا . كان ذلك الشارع زقاقًا مسدوداً حقًا ، دون مخرج من أي جهة .. ولم أكن أعرف ! تلفت حولي لعلي أجد بابا أطرقه . ما من باب على الإطلاق . كنت كمن دفنت حية ، وعندئذ تعالى الصياح والصفير إلى عنان السماء .

كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعني في ذلك الركن ، وأن أستسلم لأنين قلبي ، وأطلق العنان لدموعي ، وأقول لهم اذهبوا عني ، دعوني ، لا أريد منكم شيئًا ، لن أطالبكم بشيء . وددت لو أنني كنت ميت .

ومع ذلك ، نكست رأسي من جديد ، وعدت أدراجي ، مهيضة الجناح ، تعلوني الأقذار ، بخطوات عرجاء ، ولم يكف الصفير عن المجيء والذهاب ، واعتراض طريقي ، مزهوا بما يفعل . ولم ينقطع الصفير والصياح والتصفيق من أنحاء الطريق . تجمع أيضا بعض المارة والجيران . وقفوا يشاهدون بدورهم ما يجري ، ويضحكون وما من إنسان واحد وجد ليقول لهم عار عليكم ما تفعلون . أما أنا فقد مررت من أمامهم دون أن أنبس بكلمة . كنت أتعثر في خطاي فحسب وأمضي في سيري .

. كان ما انتابني من امتهان ذلك اليوم لا يطاق ، وأحسست بمرارة لاتوصف ...

وطوال الوقت الذي كنت أتعذب فيه هناك عند بيته ، كان هو يجلس مع فولا في غرفة الاستقبال الصغيرة ، ينتظرني . قال إنه جاء يطلب مني أن أقرضه خمسة جنيهات ، يدفع دينا عليه من ديون السباق .

الفيل

كوستاس فاليتاس

كنت فى غرفتى ، عندما سمعت جلبة فى المشى . أبواب تفتح وتقفل . أنفاس لاهثة وخطوات تركض على درجات السلم . ضلف توارب لتسترق النظر من خلفها عيون مضطربة . ثم صوت شىء على الأرض يهوى مصحوبًا بأنين وهبدات ، مثل طلقات مدفعية ، تواكب خطوات مزلزلة ترج طوابق العمارة .

ألصقت عينى بثقب الباب ، لكننى لم أميز شيئًا . رأيت وهجًا أخضر وظلالاً . وضعت عينى الثانية محل الأولى ، فرأيته ، كان يقترب بخطا راسخة واثقة غير مزعزعة . ثم أظلم كل شىء . أحسست بالباب يضغط عليه بشدة ضغطة غير عادية . صارت تفصلنى عنه كتلة الخشب الرقيقة .

(عندئذ فحسب أدركت الخطر الذى يواجهنى ، وتبينت أننى واقع تحت تهديد سطوته المباشرة)

صادفته من قبل فيما حولى ، لكننى لم أتصور أنه سيتألب علىّ . أصدقكم القول لم يدر ذلك بخلدى قط . كما كانت الصحف بإعلانها إنه

« لن تسمح بكذا وكذا » تصرف أذهاننا عن الأمر ، وتخدر جماهير قراءها الكرام[1].

لم أتح له أن يأخذ عليّ مأخذاً ، واعتقدت أنني بمنأى عن كل خطر ، وفوق مستوى الشبهات . وأنه على أقل تقدير لن يجرؤ على مضايقتى . كان قد نما إلى عملى بالطبع أخبار بعض زياراته لبيوت الأخرين وما شاب تلك الزيارات من بهيمية وعنف ، لكن ذلك لم يكن يعنينى فى شىء . لابد أن ثمة أموراً تشوبهم دعته إلى زيارتهم . أليس كذلك ؟ لا أحد يضايق غيره بلا سبب .

ألقيت بجسمى على الباب ، ورحت أصده عن الدخول ، كان يجب أن أفعل شيئًا ، أن أجد شيئًا . أن أقاوم . عندئذ فقدت هدوء أعصابى . كان من المستحيل ألا يحدث ذلك . إن علىّ أن أقدم على شىء ، مهما كان صغيراً .

(ارتخت خيوط أعصابى . أحسست بعضلاتى تلين . أضحت عجينًا) .

زايلنى قدر من توتر ، كما لو كنت قد استرددت توازنى . أحسست بعضاً من عنفوانى يعود إلىّ . دفعت بالمنضدة ووضعتها خلف الباب . لكننى انهرت من جديد . انصهرت عظامى ، وما عدت أشعر بها . ارتعشت يداى كما لو كنت مصاباً بمرض ارتعاش الأطراف .

أما هو فلم يكن فى عجلة من أمره . بركلة رائعة من إحدى قدميه الأماميتين حطم مقاومة الباب المدعم بالمنضدة . وبرفعة ازدرائية من خرطومه - الذى لم تكن ، والحق يقال ، تنقصه الوسامة - نحى الحطام جانباً ، ودخل بعدم اكتراث مملوكى . وقف أمامى على مبعدة قريبة .

راكعًا على قدمي رحت أحدق في عينيه مباشرة . بادلني بدوره النظرات . خيم علينا الصمت . لم ينشأ بيننا أي تجاذب أو تعاطف . لاحظت أن له عينين واسعتين مضيئتين ، تصدر عنهما نظرات حكيمة ، ليس فيها من الغباء شيء . (كما قد يعتقد المرء عند النظرة الأولى) .

ناعستان ضجرتان ، هذا حق . لكنه يعرف ذلك ، وكثيرون رأوا عينيه ، وقد وصل إلى الحد الذي لم يعد شيء يترك فيه انطباعًا . وما في نظراتهما من قسوة وبهيمية مبرر . كان يعرف عيوبي ، أي عملة مزيفة أنا ، وفي أي الأخطاء ترديت .

(كل هذا كنت أقبله لو حدث لغيري ، ولو كان من جيراني . ولكن هانا مهدد تهديداً مباشراً ، في جسمي . ليس هزلاً أن يدخل أحد على هذا النحو إلى حجرتك) .

لمدة عشر ثوان قام نوع من التوازن بيننا ، ولم لا نقول من التعاطف أيضاً . ربما كان وصف ذلك بالتعاطف مبالغًا فيه . الأصح أن نقول فهمًا متبادلا . فهم هو موقفي ، كما فهمت أنا موقفه . وقد كنت أتأهب لأن أقول له شيئًا مثل : « لو كنت مكانك لفعلت مثلك » .

رأيت التحول الذي طرأ على خواطره ، انطبع على حاجبيه الضخمين ، وعلى جفنيه ، وعلى حدقتيه المرسومتين . تبينت في عينيه تجاهلاً وازدراء ، ولمحت استهجانًا . كانت نظراته تبصق في وجهي الاحترام القليل جداً الذي كان قد أفصح لي عنه أول الأمر . عرفت من ستكون ضحيته التالية ، سيدوسني . سيمر من عليّ ، ويسحقني بثقله الضخم . فيلصق جسدي الذي أضحى قطعة من عجين لاقيمة له بجسده ،

ويضـــاف إلى كـيـــانه الجـرم . وربما نمت من جـراء ذلك قليــلاً أذناه الكبيرتـان اللتـان تسمعـان كل صوت ، ولا تغيب عنهما أى همسة . أو ربما ازداد خـرطومـه استطالة . ولكن من المضـحك أن أشـغل نفـسى بالموضع الذى سأمتص إليه من جسمه ، وأصبح جزءًا من أنسجته .

أجل ، أجـل ، الأمر واضـح كـالشـمس . إنه يريد أن يمتـصنى ، أو يجعلنى مثله ، على صورته ونسخة طبق الأصل منه ... كلا ، كلا ، لم يكن يريد أن يقتلنى – ومن ذا الذى يقتل فى عصرنا ؟ – كان يريد أن يستحوذ على وجودى ليهضمنى ويتمثلنى فى كيانه الجسدى .

كنت لازلت ألاحظ ضـآلتى البدنية . لاوجه للمقارنة بينى وبين قوته الطبيعية ، التى تتجاوز كل منافسه ، وأما عن اعتزازه بنفسه وثقته فيها فـحدث . كـيف يمكننى ، أنا المـمتلئ بالمشـاكل والشكوى والتـمزقـات والتعاسات الخاصة ، والصراعات المستمرة مع ذاتى . أنا اللوام دائب النقـد ، الذى لا أسـتـقـر على حـال ، وأراجع آرائى فـى كل وقت، كـيف يمكننى أن أقـارن نفسى به ؟ بهـذا الذى توحـد شكلاً وعـمـلاً ، عـزمـًا وتنفـيذًا ، الذى يقول فـلا يعـصى له أمـر ، الذى رجح عـقله فسـرى فى جسده كله وأمتد إلى أطراف أظافره (وإلى نابيه اللامعين أيضا) بهذا . الذى صار حتى خرطومه بالحكمة يتفلسف ؟

وعندئذ ، كما لو كنت أتلقى العون من جهاز رائع للطاقة الشمسية ألقـيت على ظهـر الدولاب بالآلة الكاتبـة (التى أهدتنى إياها السنة الماضـية نـافسيكا بمرتبهـا الثـالث عشـر) وبقفـزة انتحـارية قفزت إلى النافذة .

خطا الفيل فى أرجاء الحجرة ، كأحد المعارف القدامى الذى يعرف خباياها ، وبجذبة واحدة ألقى الآلة الكاتبة أرضًا وراح يدوس عليها بقدمه اليسرى حتى جعلها لوحًا حديديًا . مبطوطًا . ثم فتح الدرج ، الذى كنت أخفى فيه مخطوطاتى عن الجمهور والنقاد . وحشا بها فمه ، لكنه لم يبتلعها ، بعد ثلاث ثوان تقيأها كعصيدة ملكية ، تكورت على هيئة كرة قدم .

الزائر

كوستاس فاليتاس

« كانت الجثة ليورغوس ذيماكيس المستخدم بالقطاع الخاص ، وقد اختفت من الجبانة فى الثالثة بعد الظهر . كيف وجدت هنا ؟ »

كنا حول المذياع ، ننتظر سماع الأخبار . كانت قد انقضت ساعة على انتهاء الوقت المصرح فيه بتجوال السيارات . سمعنا دقات على الباب . انزعجنا ، وخرجنا إلى المشى ، وفى التو رأينا شخصًا مجهولاً ينظر إلينا من فتحة الباب . كيف دخل ؟ كيف فتح باب الطابق الأرضى المغلق ؟

أبعدت ملابسه المهندمة احتمال أن يكون قد تسلق إلى السطح ، ثم نزل من السلم . عهدت إلى زوجتى وأمى أمر استقباله . استأذنت كى أتأكد مما إذا كنت قد أوصدت باب الطابق الأرضى . كان موصداً . كذلك لم يمس زجاج باب السلم وباب الخدم بالشقة السفلى . صعدت ، ورأيته جالساً بين المرآتين ، وقد وضع ساقًا على ساق .

– ماذا تريد ؟

– لا شىء ؟

– لا شىء ؟ كيف ؟

– لا شىء يجعلكم تتضايقون .

– إذن ، لماذا جئت ؟

– أتساءل بدورى .

– معذرة . لكنى لا أعتقد أننا نعرفك .

– أنتم لا تعرفوننى . هذا صحيح . أما أنا فأعرفكم جيداً .

قالت أمى بصوت منطفئ :

– هل تتناول قدحاً من الشاى ؟

ابتسم ولم يجب . لكن يبدو أن السؤال الذى وجهته المرأة العجوز دون أن يلقى إجابة زاد من اضطرابنا ، حتى لم نعد بقادرين على أن نمضى فى السلبية والاستسلام .

كيف دخل هذا الغريب البيت ؟

من هو ؟

ماذا تعنى كلماته المريبة بأنه يعرفنا حق المعرفة ، وأنه لا يعرف السبب من زيارته ؟

ماذا يريد ؟

بل وكيف كان يتجول فى الشارع فى هذا الوقت ؟

استنفدت هذه الأسئلة صبرى ، لكن السؤال الأخير على الأخص كان يملأنى خوفًا من نوايا الزائر .

قلت :

– فرض حظر تجوال .

– أعرف .

– منذ ساعة وعشر دقائق بالضبط غير مسموح لأحد أن يوجد بالخارج .

– هذا صحيح .

– من حسن الحظ أنه لم يصبك سوء .

– من حسن الحظ .

– ألم تقابل أحداً فى الشارع ؟

– لا أحد .

– أعلنوا أنهم سيطلقون الرصاص على كل من يتجول دون ترخيص .

– سمعت بدورى هذا .

– ترخيص خاص .

– أجل .

جرؤت فاستطردت قائلاً ، وأنا أحاول الابتسام حتى تبدو عباراتى عادية :

– إلا إذا كان لديك ترخيص .

– ترخيص ؟ ليس لدى ترخيص .

– كيف جرؤت إذن على الخروج ؟

– كيف جرؤت ؟

– لا تقل لى إنك خرجت هكذا إلى الشارع معرضاً حياتك للخطر . أتعرف ، أن هناك قتلى ، وجرحى ؟ أذاعوا أن هناك صرعى برصاصات طائشة ؟

– للأسف .

– لم تكترث إذن بشىء ؟ لابد أن ثمة دافعًا قويًا دفعك إلى ذلك ؟

– أؤكد لك أنه ليس لدى أى دافع ؟

– ألم تعرض حياتك للخطر بمجيئك إلى بيتى ؟

سأل ببرود :

– ماذا تعنى ؟

انفجرت قائلاً :

– كى تأتى إلى هنا . فلننته ، لماذا أنت هنا ؟ ماذا تطلب ؟ لا تقل لى إنك لا تعرف .

– ومع ذلك ، فهذه هى الحقيقة .

– لكن هذا غير معقول . تأمل الأمر قليلاً . لا يعرف أحدنا الآخر . التجول محظور . يطلقون النار على كل من يبرح بيته . ومع ذلك فأنت

هنا ببيتنا ، غريب ، مجهول ، لم يدعك أحد ، أثرت الذعر فى أهل بيتى ، دون أن يكون لديك من الأدب ما يجعلك تشرح لنا مقصدك ، فى لحظة مشحونة بالأخطار وبالضحايا .

خفض صوته وقال :

– من فضلكم . لا تعملوا حساباً لى ، امضو فى أموركم العادية .

كنا ننظر إليه مبهورى الأنفاس ، صامتين . كان كلامه جد مختلف ، عما ينتظر سماعه من شخص فى مكانه . ومع ذلك ، فقد كنا نجد فى الظهور المريب للرجل الغريب بيننا منطقًا رغم كل هذه الأوضاع غير المعقولة .

– بصرف النظر عن أننا لا نعرف كيف دخلت ...

– وأنت ، ماذا تقول ؟

– لا أريد أن أكون قليل الأدب ، لا أريد أن أوجه إليكم اللوم ..

– أرجوك ، أرجوك ...

– ربما كان لك أسبابك الخاصة ، لكن ماذا يمكننى أن أقول ؟ لا أعرف ماذا أقول . لا يمكننى أن أقول شيئًا . تتجاوز الأحداث كل تفسير معقول أو مفهوم . من المستحيل أن أجد فيها جرعة من المنطق ، أو قدراً من التماسك يقيم أودها . ولكن أنت تفهم ، فى لحظات مثل هذه يسودنا الرعب ، ضع نفسك فى مكاننا شخص مجهول يدخل البيت بينما أبوابه موصدة ، بل وأحكم إيصادها ، والمفتاح فى جيبى .

– حقًا ؟ (قال ذلك ببراءة ، أقل ما توصف به أنها براءة مثيرة للغيظ ، كما لو لم يكن هو ، بل شخص آخر ، من أوجد هذا الوضع كله)

– من أين دخلت ؟

(سألته ، وقد استقر عزمى على مواجهة كل الاحتمالات) .

– كيف فتحت الباب ؟ أجب .

– يحزننى كل ذلك .

– هل معك نسخة من المفتاح ؟ هل تسلقت إلى السطح ؟ وكيف ؟ لكن لو كنت قد فعلت ذلك لتهدلت ملابسك وعلق بها التراب . لابد أنك استخدمت سلماً أو حبلاً على الأقل، إلا إذا لم تكن وحدك ، ولك أعوان .

– إنى وحيد .

– ولكن وحق المسيح ، ماذا تطلب ؟ ماذا تريد ، أيها الرجل ؟ لماذا كل هذا ؟ ما هدفك ؟ لا تعذبنا أكثر من ذلك . أشفق علينا . ألا ترى إلى أى حال أوصلتنا ؟

– وددت لو أستطيع .

(قال الرجل المجهول هذا ، ثم تدحرج على الأرض ، كما لو كان قد وقع فى قبضة زلزال شديد)

ألقينا وسادة تحت رأسه . فككنا أزرار سترته وصدريته . رأينا جرحاً عميقاً مثل قرنفلة متفتحة بحمرة الدم الذى جف يزين صدره . عضام مهشمة ، وعضلات متهرئة . وبقايا عروق وأعصاب وشرايين بظت من ضلعه المكسور ، وعلى الرغم من أن ميروبى حاولت أن تجرى له تنفساً صناعياً فقد قربت المرآة من فمه . فبقى زجاجها نظيفاً ، ولم تعتمها الأنفاس . غطيناه بملاءة بيضاء . وجلبناه إلى منضدة الطعام . ورحنا ننظر إليه صامتين .

شرعت المرأة العجوز تقول :

- إذن ...

لم تكمل عبارتها ، فقد سمعنا عند الباب الخارجى جلبة مفزعة ، ارتجت من شدتها أعمدة البيت ودعائمه .

- افتحوا .. سوف نحطم الباب .

- هل تخبئون أحداً ؟

- لا أحد !

خرجت إليهم :

- ألازم البيت قبل ميعاد حظر التجول بساعتين .

- هل تعرف من يدعى ذيماكس ؟ يورغيوس ذيماكيس ؟

- كلا .

- أهو من أقاربك ؟

- كلا ، على الإطلاق .

- إذن ، لماذا سرقت جثته من المشرحة ؟

- أية جثة ؟

أين تضعها ؟

(وبخطوات واسعة اقترب المفتش من المنضدة . وأزاح الملاءة)

– من هذا ؟

– لا نعرف !

– كيف وجد هنا ؟

– لم نستطع أن نعرف . شيء لا يمكن تفسيره .

– هذه جثة يورغيوس ذيماكيس . اختفت من المشرحة فى السادسة مساءً . ألا تقدم تبريراً ؟

(لم يتكلم أحد . وماذا كان لدينا لنقوله)

– كيف وجدت هنا ؟

– ألديك ما تريد أن تضيفه ؟ كيف وصلت الجثة إلى بيتك ؟ هل لديك ما تقوله ؟

– ليس لدى شيء على الإطلاق أقوله ، على الإطلاق .

– أعطنا يديك .

(عندما لمس القيد الحديدى معصمى وسرت فىَّ برودته داخلنى إحساس غريب بالسكينة والراحة) .

علـى ضـفـاف النـيـل

كيتى باباذاكى – كاراميتسا

وجـدت منضـدة منزوية ، وجلست . الرواد قليلون فى هـذه السـاعـة المبكرة من الصباح . بإحدى المناضد فتى وفتاة يتحدثان بصوت خفيض غيـر مكتـرثين بما حولهـمـا .. كـان إمـام يكاد ينام على أحـد الكراسى . عندما رآها ، سوّى طربوشه على رأسه ، وشد الحزام العريض الأحمر حول جلبابه الحريرى المخطط . اقترب ، ووقف أمامها .

قالت له شاردة البال :

– فنجان من القهوة .

كـان هذا المكان على ضـفـاف النيل يروق لهـا دائمًا . راحت تتـابع قاربًا يمر ببطء يشق اللجة ، به رجل لمعت حبات العرق على وجهه وعنقه. يلبس طاقيـة ، ويكاد يغمض عينيـه من وهج الشـمـس . يميل جـسـمـه الرشيق المفتـول تارة إلى الأمـام وتـارة إلى الخلف ، كمن ينحنى يقبِّل مصيره مرة ، ويتراجع يتطلع إليه بكبرياء مرة أخرى . يجذب المجداقين ، يضرب بهما صفحة الماء فى إيقاعات بطيئة ويتغنى بأحلامه القنوعة .

أمامها دهبية عاطلة عن السفر ، تنتظر الناس الذين يأتون إليها من وقت لآخر ، وتحسد البواخر النيلية التى تمر بجوارها بصفيرها الفرح مبحرة إلى الصعيد تحت سماوات تستحم بضياء القمر . أما هى فتبقى ملتصقة بالماء ، تمضى لياليها مطفأة الأنوار . على مرمى البصر أشجار ، أشجار كثيرة ، تطل على النيل ، تشاهد فى مرآته جمالها . وتستلقى ظلالها حبيبات مدللات بين أحضانه . وفى الأغوار جسر مثل قوس النصر يمر من تحته إله جليل . ومن جامع قريب يتعالى الأذان فترشف الموجات الخاشعات صوته .

تناولت جرعة من القهوة ، وعادت بفكرها إلى الوراء . تذكرت نظرته التى سرحت بعيداً مع المياه . لم يقل لها قط كلمة تنير الطريق أمام خطواتها ، وتهديها فتنسجم مع وقع خطواته . سمعت نفسها تقول له من جديد .

– يقولون إننى يجب أن أرحل . وأنت ماذا تقول ؟

لم تتلق منه رداً . نظر إلى أعماق عينيها . رأت جبينه يظلم . أشاح بنظراته فى يأس . كان الأمر بالنسبة له بعيداً ، جد سابق لأوانه . بداخلها ، أهابت به :

– أسرع . لم يبق وقت . آخرون يقررون مصيرى . إذا أردت سوف أصمد . سأنتظر لو قلت لى انتظرينى ، وسوف أنتظر مهما طال الزمن .

فكرت وراحت تقول لنفسها . كان يجب أن أخبره . أجل ، كان يجب . مادامت تعرف أنها فى حياته مختلفة عن الآخرين ، وأنها تجعله

سعيداً إلى حد يفوق التصديق ، وهى تحتضنه بعواطفها الجياشة . هذا ما كان يقوله لها . أجل ، يجب أن تنود عن حياتها . وتزداد تشبثاً بها . يجب أن تحيلها إلى شىء ملموس ، فلا تتخلى عن هذا الحب الذى انبسط ، وأبان لها عن وجهه فى كل الأرجاء . هذا الحب سرى فى دمائها دافئاً ، وتستشعره الآن بأعماقها مثل جرثومة تمرضها ، وتترك على شفتيها طعم العلقم .

أجل كان يجب . أجل ، كان يجب ، ولكن خبرتها آنذاك كانت قليلة ، أما خبرتها الآن ، فما عادت تعرف ماذا تفعل بها .

انصرف العاشقان . بحثت الفتاة عن يده ، وأمسكت بها . صاحت فى أعماقها بأسى :

– لاتتركيه ، لاتتركيه .

عادت تنظر إلى حيث تجلى لها اليوم وجهه ، معلقاً بين السماء ولجة الماء . رأت طائراً تسمر فى الهواء محتفظاً بتوازنه ، وظل مثل شهاب يرفرف فى النور . ثم مضى يحط على شجرة . ارتعشت يدها على فنجال القهوة . تلمست بأصابعها دفئه ، لكنها وجدته بارداً .

الصبار

كيتي باباذاكي - كاراميتسا

نظرت إلى يديها المتعبتين. أصابع طويلة ، نحيلة. في شبابها الباكر كانتا أفضل حظًا. لكن قدر لهما بعد ذلك أن تفلحا أرضًا مجدبة. ارتضت العمل الشاق بكبرياء. انتقت أفضل ما في قلبها من بذور ، وبذرتها. ترقبت أن تنبت ، واثقة من أنها ستعطي زهرًا يانعا .

بعد قليل ، رأت لدهشتها أن البذور المنتقاة أنبتت صبارًا . انكبت في قنوط ترعاها . تدس يديها في أعماق التربة لتخرج الحصى وكل نبت وحشي ، كي يتنفس التراب الخشن ، ويتحسن الصبار ، فربما أنبت في المستقبل زهرة. فكرت أن تسقيه ماءً ، ماءً كثيرًا . فتحت صنبور الطيبة ، وروته حتى آخر قطرة .

لكن السنين مرت ، وظل الصبار مغطى بالشوك ، أعجف ، راحت أوراقه تنبسط دون أن تبزغ منه زهرة. امتدت الجذور الشرهة وتغولت. امتلأت الأرض بها . وما عادت تفسح موضعًا ولاحتى لزهرة برية كي تنبت من حولها ، تراها تطل فتتعزى وتقر بها عيناها .

تعبت يداها ، احمرتا. كما تعبت عيناها من منظر البقاع الجدباء على مدى البصر. رفعت وجهها إلى السماء لتريح بالها الذى لاسمير له. سحب سوداء بجنون تجرى على أديمها. نقبت دون جدوى عن خفقة جناح. وفجأة ظهر طائر أبيض كبير يطير فى وجه الريح. فوق الصبار ، فوق ديار البشر ، بدا جناحاه أنصع بياضًا فى الفضاء الرمادى اللانهائى. وفد إلى خاطرها الرجل الذى كان فى وجه الريح يطير بدوره. تحت سماوات دكناء ، فوق الصبار ، وديار البشر. كان بدوره هكذا كبيراً على نحو غير عادى وغير مألوف .

ظلت مدة طويلة تلوح لذاك الذى يطير مبتعداً. ثم دست رأسها الأشقر بين ذراعيها المعقودين ، وانخرطت فى بكاء صامت. ستبقى على ماهى عليه دومًا ، قدماها مغروستان فى التربة الخشنة فى الأرض الجدباء ، يحيط بها الصبار ويحاصرها .

الرجل الذى أراد أن يعود طفلاً

أندونى ساماراكى

ذات مساء فى يناير الماضى دخل صيدلية ليلية ليشترى علبة من الحبوب المسهلة ، فقد كان يعانى من إمساك مزمن فى السنوات الأخيرة . ثم ذهب ليأخذ الأوتوبيس إلى بيته .

وجد صفًا طويلاً من المنتظرين فى المحطة . ظل ينتظر صابراً . وفى النهاية أمكنه الصعود . فى العربة وقف . كان قصيراً على قدر من البدانة ، ذا بطن تنبعج قليلاً . وفى نوفمبر الماضى بلغ السابعة والأربعين .

بجواره كان ثمة من يضغط عليه . وبعد قليل نهضت سيدة ونزلت ، فجلس هو مكانها . وعندئذ وجد مجلة «عالم الأولاد» وهى مجلة من مجلات الأطفال . كانت أول مرة تقع عيناه فيها على هذه المجلة . لم يكن له شأن بمجلات الأطفال من قبل .

ألقى نظرة على الغلاف الملون . كان يصور راعيًا من رعاة البقر يقفز بجواده الأبيض . وقد كتب تحت الصورة : تابعوا قصتنا الجديدة

«مغامرات فى الغرب القصى» التى تبدأ فى هذا العدد . المجلة تصدر كل سبت ، كما هو مكتوب على الغلاف . وكان هذا عددها الأخير ، ولم تفض صفحاته بعد . لم يكن يدرى ماذا يفعل به ، فليس له أولاد . أربعة عشر عامًا مضت على زواجه ، والسبب عقم أصاب امرأته . فى الديوان الذى يشغل به وظيفة صغيرة منذ ثمانى عشرة سنة ، كان موضوع سخرية زملائه لانه لم يفلح فى أن ينجب أولاداً .

تلفت عله يجد طفلاً يعطيه المجلة . ولكنه لم يرى من حوله سوى كبار . فكر أن يعطيها لولد من أقربائه ، لابن بنت عمه ، وهو صبى عفريت فى الحادية عشرة من عمره ، يقطن فى جيرته .

كانت ثمة رائحة عطنة فى الأتوبيس .

عندما وصل إلى بيته ، دخل إلى غرفته الصغيرة التى كان ينفرد بها ، إلى جوار غرفة الأكل . بغرفته مكتب صغير ومكتبة وحاملان صفت على رفوفهما الكتب . لم يكن الطعام قد أعد بعد وكانت زوجته بالمطبخ ، تطهو مكرونة باللحم المفروم . ذهب إلى غرفته الصغيرة حتى يجهز الطعام . كان قد ترك المجلة على أحد الأرفف . بسط صفحات جريدته . أحس وجعًا بساقه اليسرى . كان يعانى من الروماتيزم . سوف يطلب من زوجته أن تدلكه . عندما يصبح الجو رطبًا ، أو يصعد سلمًا ، تنتابه الآلام .

مضى زهاء أسبوع على ذلك . الوقت ليل ، بعد العشاء لم تكن به رغبة فى النوم . أغلق على نفسه باب غرفته ، وفتح مجلداً من مجلدات الموسوعة .

كانت زوجته قد أعدت له قدحًا من القهوة . ثم مضى إلى سريره ورقد .

قرأ عشر دقائق . انتابه الضجر . نهض ، طاف بأرجاء البيت ، وأشعل سيجارة . وفى النهاية ، قرر أن يذهب لينام . وعندئذ لمح «عالم الأولاد» التى كان قد نسيها على الرف ، فكر أن يقتل بعض الوقت .

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ثلثًا تقريبًا عندما أمسك بالمجلة . كانت الساعة الواحدة والنصف عندما تركها .

أجهز عليها كلها . قرأ القصتين الطويلتين : «مغامرة الغرب القصى» و «سنتان فى الغابة» وهذه الأخيرة كانت تنشر فى حلقات منذ أعداد سابقة . وقرأ القصص ، وحكاية «عروس الخريف» التى كانت موجهة إلى أولاد أصغر سنًا ، وصفحة «الذكاء» وفض الكلمات المتقاطعة ، وحل الفوازير ، وعثر على «الصورة الخفية» التى اقتضت منه بعض الجهد والوقت ، ركبه الإصرار ووفق إلى الحل فى النهاية . كانت الصورة أرنبًا صغيراً تبحث عنه أمه . قرأ صفحة «أصدقاءنا الصغار يكتبون» التى تنشر قطعًا أدبية للقراء الصغار . كما قرأ صفحة «أصدقاءنا الصغار فيما بينهم» حيث يتراسل الأولاد تحت العديد من الاسماء المستعارة ويتبادلون شتى الدعابات . وفى النهاية ، وضع المجلة فى درج من أدراج مكتبه وذهب لينام . استلقى إلى جوار امرأته رقدت على ظهرها فاغرة الفم .

حلم تلك الليلة حلمًا . رأى نفسه راعيًا من رعاة البقر يمتطى جواده الأبيض ويجرى فى مرج من مروج الغرب القصى . وبينما هو

ماضٍ فى قفزه هذا استدار على الجنب الآخر وسقط على زوجته دون أن يصحو من نومه . على أن المرأة استيقظت ، معتقدة أن زوجها قد اشتاق إلى بعض المداعبات التى كف عنها مؤخراً . وإذ رأته غارقًا فى سباته استدارت على الجنب الآخر وعاودت نومها .

ثمة شيء حدث بداخله منذ تلك الليلة . أمر ما تغير .

يوم السبت من كل أسبوع ، صار يشترى «عالم الأولاد» وفى اللحظة التى يشتريها من الكشك يلقى نظرات متلصصة حوله ، فقد كان بداخله إحساس بأنه إنما يفعل شيئًا غير لائق . وفى الليلة ذاتها بعد العشاء ، يغلق على نفسه غرفته الصغيرة ويقرأ المجلة . لم يصارح بالأمر أحداً . ومن فى إمكانه أن يحس به !

كان يغلق على الأعداد درجًا من أدراج مكتبه .

ثمة شيء حدث فى أعماقه ، وهو يقرأ «عالم الأولاد» عثر من جديد على عالم الأولاد . عالم جد مختلف عن عالم الكبار .

في الديوان كف عن تنكيس الرأس . من قبل ، وعندما كان يرى انحرافًا أو خطأ لم يكن يفتح فمه بالكلام خوفًا ، تعود على تقبل كل شيء بلا احتجاج . أما الآن ، فقد أصبح مختلفًا . بل وفى ذات مرة دعته إلى مكتبها إحدى الشخصيات البارزة بالوزارة ، إحدى الرياسات الكبيرة ، ومضت تضغط عليه حتى يأتى تصرفًا في اختصاصه مخالفًا للقانون ، أن يقيد طلبًا بتاريخ سابق ، ولكنه لم يرفض ذلك فحسب ، بل وخبط مكتب الرئيس بقبضته خبطة شديدة حتى أن قدح القهوة دلق ولطخ بعض الأوراق . أسقط فى يد الرئيس . لم يكن يتوقع ذلك قط .

لاحظت زوجته ماطرأ عليه من تغير . لاحظت أنه يعتنى بنفسه . اشترى ربطتى عنق جديدتين . تبدل حاله . قلقت . شكت فى أن تكون امرأة أخرى دخلت حياته . لكن ما لبث أن هدأ بالها ، وقد لمست رقته البالغة معها . اعتقدت أن حبه القديم لها قد أزهر من جديد .

ومن ناحيه أخرى ، فقد شفى من الإمساك الذى كان يعانيه .

أرسل ذات مرة إلى المجلة قطعة من الشعر المنثور كان قد كتبها «تأملات فى الخريف» هذا هو العنوان الذى أعطاه لمقطوعته . بعث بها إلى صفحة « أصدقاءنا الصغار يكتبون» احتاج بطبيعة الحال أن يتخذ لنفسه اسمًا مستعاراً . فكر فى كثير من الأسماء فى النهاية اختار «الفارس الأشقر» كان أسمراً اللون ، ومنذ صغره وهو يحسد الشقر ، ويتمنى أن يكون أشقر .

نشرت المجلة مقطوعته النثرية الشعرية. كم كانت فرحته كبيرة ! ثم نشرت له مقطوعة أخرى . بعد ذلك رفضت له مقطوعة ثالثة . وردت عليه المجله بقولها : «إن الموضوع الذى اخترته ياصديقنا الصغير أعلى من سنك. انتظر حتى تكبر قليلاً وعاود من جديد» .

هكذا كانت الأمور عندما قرأ - بعد شهرين ونصف تقريبًا من الليلة الأولى التى قضاها مع «عالم الأولاد» - قرأ فى العدد الأخير من المجلة بصفحة « أصدقاءنا الصغار فيما بينهم» الخبر الآتى :

«اعتزمنا أن نقيم أمسية موسيقية أدبية . ولذلك فإننا نرجو من أصحاب الأسماء الآتية من أصدقاءنا المعروفين لدينا وغير المعروفين أن

يشرفونا بالحضور : كارمن ، ماريا ستيوارت ، أغرامبيللى ، ذو القناع الحديدى ، نابليون ، الفارس الحزين ، الفارس الأشقر ..»

وتوالت أيضًا بعض الأسماء المستعارة الأخرى . ثم أردفت الدعوة تقول : «إننا فى انتظارهم جميعًا ونهيب بهم ألا يتخلفوا عن الحضور ، يوم الجمعة الثانى من أبريل الساعة السابعة مساءً ، ١٤٥ شارع النصر ، الدور الثانى.»

بيرينيس – ملكة سبأ – القرصان الأسود – شيطان الموج .

لا شك أن الأولاد سيحزنون عندما ينتظم عقدهم بغير «الفارس الأشقر» . وهذ ما فكر فيه ، ولكن بالإمكان غير ذلك .

صاح فى السائق : ١٤٥ شارع النصر . بأقصى سرعة فى مقدورك ! سأنقدك ضعف ما يسجله العداد» .

كاد يحدث تصادم مرتين بسبب السرعة ، ولكن الأمر الوحيد الذى كان يعنيه أن يصل إلى هناك فى أقصر وقت . تأخر . كانت الساعة السابعة وعشرين دقيقة ، والدعوة قد حدد لها السابعة .

كيف انصرف عن الديوان ! كيف ترك كل شىء ، الأوراق والمحبرة والريشة وأدراج مكتبة مفتوحة ، كل شىء على حاله . ونزل يقفز السلم درجتين ! قابله رئيس المستخدمين لحظة انصرافه . قال له مامعناه إنه يأخذه لمغادرته مكتبه على هذا النحو دون إذن ، فلم يعره التفاتًا .

كانت قد أمسكت به قبضة جبارة للغاية ، استولت عليه قوة انفتحت بداخله فجأة ، بينما كان هناك فى مكتبه ، يوم الجمعة بعد الظهر حيث

ميعاد العمل من الخامسه إلى الثامنة مساء . أرغمته تلك القوة المستحوذة أن يترك كل شيء وينصرف .

السيارة تقترب الآن . كان يجب أن يأخذ معه شيئًا ، فليس بالإمكان أن يذهب إلى الحفل خالى اليدين. يجب أن يأخذ معه شيئًا، حلوى، زهور ... هناك محل لبيع الأزهار فى شارعهم . نزل من التاكسى . اشترى باقة من الورد . ورد أحمر .

وصل . دق جرس الباب الخارجى للعمارة وهو يحمل باقته . كان قلبه يدق بسرعة فائقة وبقوة . عاليًا ، فى الدور الثالث ، نوافذ مضاءة . وفدت أنغام معزوفة على الأكرديون .

فتح باب العماره . دخل سلم خشبى حلزونى . ارتقى الدرجات بسرعة . لم يعد لأوجاعه الروماتزمية وجود ، زالت عنه .

عند قمة السلم ولدان وبنت . فى حوالى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر . وقف على الدرجة قبل الأخيرة . وقال :

– الفارس الأشقر .

قال ذلك ، كما لو كان يعرفهم بنفسه .

سأله أحد الولدين ، وأطولهما قامة :

– ألن يحضر ؟

وسأل الآخر :

– ماذا ؟ لن يحضر ؟

عاد الأول يسأل :

– أهو مريض :

قالت البنت :

– يا للخسارة ! كنت أتوق كثيراً إلى التعرف به .

نظر إلى الأولاد الثلاثة صامتًا . لم يكن بإمكانه أن يقول كلمة .

فجأة ، وبحركة مباغتة وضع باقة الزهور ، الورود الحمراء بين ذراعي الفتاة ، استدار ، ونزل السلم مسرعًا ، وخرج ، ومن النوافذ العالية بالدور الثالث سمع الأكرديون يعزف لحنًا مرحًا ، مضى في ظلمة الليل ، خاوي الصدر أيضاً .

المترجم فى سطور :

د. / نعيم عطية جرجس

ولد فى ٢٨ مارس ١٩٢٧ بمدينة أسوان .

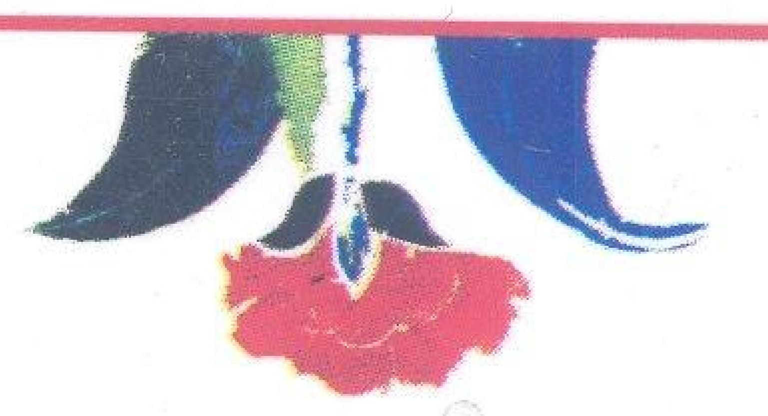
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى يونية ١٩٦٤ عن رسالته بعنوان «مساهمة فى دراسة النظرية العامة الحريات الفردية» .
- قرأ كثيراً فى الفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية .
- نشر سلسلة من الدراسات الجادة فى تطور الروابط بين الفرد والسلطة .
- توج حياته القضائية بأن أصدر عام ١٩٩٤ «الموسوعة الإدارية الحديثة» .
- أسهم - إلى جانب تخصصة فى القانون - فى الحياة الثقافية رابطًا بين الأدب والفن والقانون بأوثق الروابط .
- قام بعمل عدة دراسات وترجمات عن الأدب اليونانى المعاصر
- حصل على جائزة كافافيس فى الدراسات الأدبية عام ١٩٩٣ .
- عضو مؤسس لكل من «اتحاد الكتاب» و« جمعية نقاد الفن التشكيلى» وعضو عامل فى «جمعية محبى الفنون الجميلة» و«جمعية النقد الأدبى» و«جمعية أصدقاء المتاحف» كما عمل ردحًا من الوقت مستشاراً قانونياً «لنقابة الفنانين التشكيليين».

الإشــراف اللغــوى : حسام عبد العزيز

الإشـــراف الفنى : حـــسن كـــامل







يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى المكتبة العربية، فقد ضم بين دفتيه عدداً وفيراً من قصص الأدب اليونانى الحديث، ترجمت إلى العربية من اللغة الأصلية التى كتبت بها وهى اللغة اليونانية.

ولا شك أن ترجمة الأدب وسيلة ناجعة فى تعريف الشعوب بعضها ببعض، وفى توطيد أواصر الصداقة والمحبة بينها. ومن خلال أعمال عدد من القصاصين من أبرز أدباء اليونان الحديثة يمكن للقارئ العربى أن يتنسم نسمة من الهواء الطلق تسرى إليه عبر البحر الأبيض المتوسط، من بلد له ماضيه التليد فى الفن والأدب، ويشق طريقة قدما لكى يتبوأ مكانته اللائقة فى طليعة البلاد ذات النهضات الأدبية، فيصل بعض أ
الحصول على أكبر الجوائز الأدبية فى العالم. وسيرى
بذلك أيضا أن الأدب اليونانى لم يعد التراث ا
فحسب.

تصميم الغلاف: أسامة العبد